سيرة ذاتية

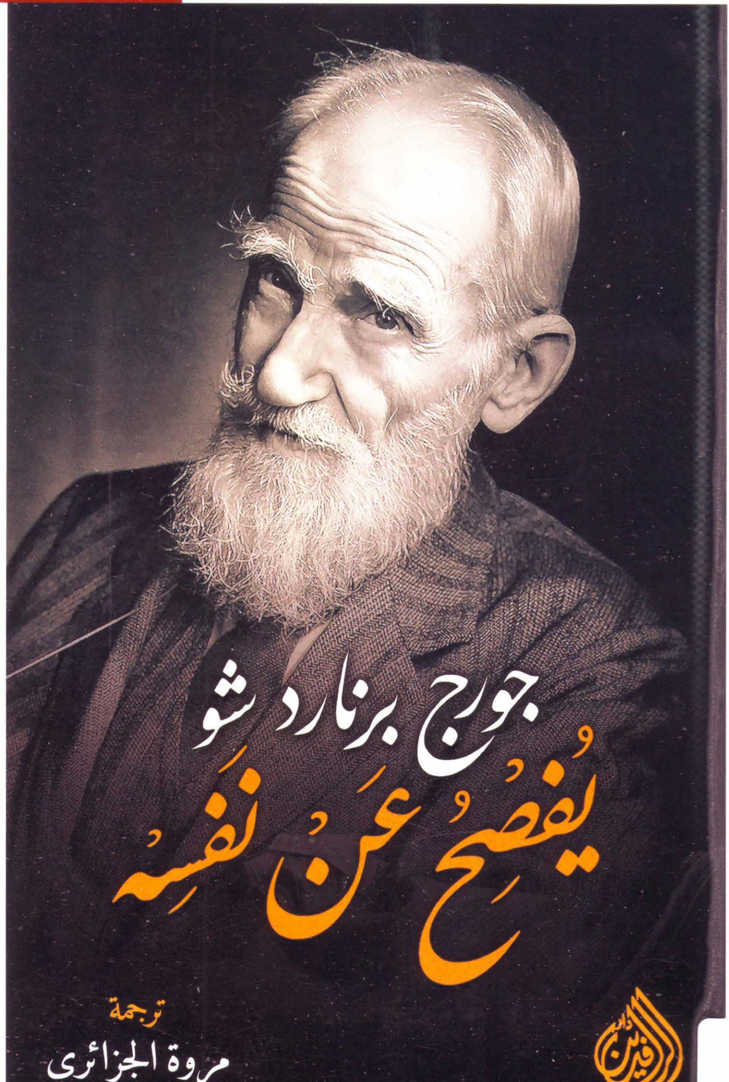

جورج برنارد شو
يُفصِحُ عَن نفسِهِ

ترجمة

مروة الجزائري

جورج برنارد شو يُفصح عن نفسه

ترجمة: مروة الجزائري

العنوان بالأصل:

Sixteen self sketches

By George Bernard Shaw

Translated by Marwa Al-Jazaary

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2021 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2020

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 57- 9

جورج برنارد شو
يُفصِحُ عَنْ نَفسِهِ

ترجمة:

مروة الجزائري

www.daralrafidain.com

الفهرس

المقدمة 7
ـ 1 ـ كاتب سيرتي الأول 17
ـ 2 ـ اعتذاري عن هذا الكتاب 23
ـ 3 ـ أمي وأقاربها 29
ـ 4 ـ العار والتَّنفُجيّة المجروحة سرّ حفظته لثمانين عامًا 45
ـ 5 ـ صباي في المكتب 59
ـ 6 ـ نهاية موظف المكتب في دبلن 67
ـ 7 ـ تسع سنوات من الفشل كروائي تنتهي بنجاح كناقد 71
ـ 8 ـ في أيام شبابي 77
ـ 9 ـ من أنا وماذا أعتقد؟ 85
ـ 10 ـ كيف أصبحتُ خطيبًا 97
ـ 11 ـ صداقات مثمرة 111
ـ 12 ـ هل أنا شخص متعلّم؟ 117
ـ 13 ـ ما هي معتقداتي الدينية؟ 123
ـ 14 ـ تصحيح الأخطاء الفادحة لكُتّاب السيرة الذاتية 133
ـ 15 ـ أصل كورنو دي باسيتو 173
ـ 16 ـ إلى فرانك هاريس عن الجنس في السيرة الذاتية 177
كيف كان على فرانك أن يكتبها 183
مبعوث 207
ملحق الصور 209

المقدمة

«يسألني الناس باستمرار: لمَ لا أكتب سيرتي الذاتية بنفسي. وأجيب بأن سيرتي ليست بذات أهمية؛ لم أقتل أحدًا وليس لدي مغامرات بطولية ولم يحدث لي شيء استثنائي، بل على العكس، أنا الذي حدثت لهم. وقد حوّلت كلّ ما حصل معي إلى كتب ومسرحيات. اقرأوها أو شاهدوها إن أحببتم وستكون لديكم قصتي بالكامل».

هكذا افتتح برنارد شو اعتذاره عن تأليف هذا الكتاب، لكنه ومع ذلك أتمّه قبل وفاته بعامين فقط. نُشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام 1939 بعنوان (شو يُفصح عن نفسه) ونشرت الطبعة الأخيرة المنقّحة بعنوان (ست عشرة صورة شخصية) بعد عشرة أعوام، وعلى الرغم من أن الكتاب المترجم الذي بين يديك هو للطبعة المنقحة، إلا أنني آثرت استخدام العنوان الأول لوقعه الموسيقي وقربه من النصّ أكثر.

تناول كثيرون برنارد شو في كتبهم، وخصّص بعضهم مؤلفات كاملة لسيرته الذاتية، وكما ستقرأ لاحقًا، أخفق أغلبهم في وصف علاقته الحقيقية مع والديه، وأفكاره عن الاشتراكية ورأيه بماركس وشكسبير تحديدًا. نجده هنا يفتتح الكتاب بمراسلات والده التي تكاد تكون غير متناسقة، وبعدها يتحدّث بلغته العالية وبأسلوبه الممتع وخفّة دمه وسخريته التي عُرف بها، ليذكر لنا أشياء ومعلومات عن شو الإنسان وعن عائلته وتعليمه

ومعتقداته الدينية والسياسيّة. وقد خصّص فصولًا ردّ في أحدها على كُتّاب سيرته الذاتية وصحّح المعلومات المغلوطة التي نُشرت عنه، وفي فصل كامل تحدّث عن فرانك هاريس الذي ألّف كتاب سيرة ذاتية لجورج برنارد شو بعنوان (جورج برنارد شو) عام 1931، وكيف أنه ساهم في تصويب الكتاب وإكماله بعد وفاة فرانك هاريس، ليخرج إلى القرّاء بنسخته الحالية.

ولد جورج برنارد شو في مدينة دبلن في السادس والعشرين من تموز عام 1856، كان الطفل الثالث لعائلة يعمل والدها في تجارة القمح. كان جورج كار شو موظّفًا مدنيًا سابقًا في بناية محاكم أيرلندا الرئيسية (المحاكم الأربع)، أُحيل إلى التقاعد بعد إغلاق القسم الذي يعمل فيه وتسريح موظفيه. باع معاشه التقاعدي وبدّده مع ما ورِثه من مالٍ في بعض المشاريع الفاشلة، وكان يأنف من تجارة التجزئة، لأنه يراها دون مستوى آل شو حتى أصبح على حافة الإفلاس، ولكونه سكيرًا؛ فَقَدَ تعاطفَ إخوته الاثني عشر، لكنه كان عطوفًا محبًا (بطريقته)، كان خفيف الروح حاضر النكتة، لا يُقيم كبير وزنٍ للمعتقدات. أما والدته لوسيندا إليزابيث غورلي فقد تبعت أستاذها في الفن فاندلير لي إلى لندن مع ابنتيها أليس وآغنيس، لكنها شعرت بخيبة أمل في لندن، لأنها اكتشفت أنه قد تخلّى عن مبادئه وعن (النظرية)؛ فتركته وراحت تكسب عيشها من تدريس الغناء والموسيقى. وقد شكّل إدمان والده الخمر ردّة فعل لديه بعدم قرب الخمر طوال حياته، كما كان نباتيًا لا يقرب اللحم، ولا يدخّن ولا يشرب القهوة ولا الشاي، وهو الأمر الذي كان له أثرٌ في طول عمره وصحته الدائمة.

كره برنارد شو المدرسة، وما إن سنحت له الفرصة وهو في الثالثة عشرة من عمره حتى تركها غير آسفٍ عليها، وعمل في مكتب للعقارات صبيًّ

مكتب في البداية ثم كاتبًا فيه. وحين أصبح في العشرين من عمره ترك أيرلندا ووالده وتوجّه إلى لندن، ولم يعد إليها إلا بعد ثلاثين عامًا. عمل لتسعة أسابيع في شركة تليفونات أديسون وكان الهاتف اختراعًا جديدًا، لكنه ترك العمل بعد ذلك وعاش عالة على والدته حتى أصبح في قرابة الثلاثين من عمره، كان يرتدي أسماله في كل صباح ويقضي بياض يومه في القراءة والكتابة في المتحف البريطاني ويحضر جلسات النقاشات الاجتماعية ليلًا.

كانت بداية مسيرته الأدبية في كتابة الروايات، وقد ألزم نفسه بكتابة خمس صفحاتٍ كبيرة كل يوم، فإذا أنجزها، وضع القلم، ولو في منتصف الجملة، وإذا فاته العمل في يوم، عوّضه في اليوم التالي. كتب خلال هذهِ الفترة خمس روايات لم يُكتب لها النجاح. لكنه اشتهر في ما بعد كناقد فني ودرامي في صحيفة العالم وكتب باسم مستعار (كومو دي باسيتو) في صحيفة النجم، وبعد ذلك كناقد موسيقي في صحيفة مراجعة السبت، حيث كتب أفضل المقالات في النقد الموسيقي حتى يومنا هذا، وقد جُمعت في كتاب بمجلدين بعنوان (مقالات في النقد الموسيقي لبرنارد شو). ثم انتقل بعد سنوات عدة لنقد الدراما وبدأ يفكر في الكتابة للمسرح، فكانت أولى مسرحياته عام 1892 بيوت الأرامل *Widowers' houses*، وفيها يعرض لمالكي العقارات واستغلالهم المستأجرين الفقراء. في العام التالي كتب مسرحية أخرى بعنوان مهنة السيدة وارن *Mrs. Warren's profession*، وفيها يُهاجم البِغاء وتجارة الرقيق الأبيض بأسلوب جدل فكري معقّد يربط بين البغاء والتفاوت الاجتماعي. ومن مسرحياته الأخرى، السلاح والإنسان *Arms and The Man* التي تحدّث فيها عن

الحرب، كيف تُصنع وكيف تطالب أطرافها بالسلام في نهايتها. واستمدَّ شو عنوان مسرحيته من مستهل «إنيادة فيرجيل»؛ الملحمة الرومانية التي تمجّد الحرب «للسلاح والإنسان أغني *Of arms and the man I sing*»، وقد استخدم شو هذا الاقتباس بسخرية، لافتًا الانتباه إلى كيف لا ينبغي النظرُ إلى الحرب على أنها رومانسية. وكتب شو مسرحيته الشهيرة الإنسان والسوبر مان (أو في ترجمات أخرى الإنسان والإنسان المتفوّق *Man and Superman*) والتي حقق فصلها الثالث «دون جوان في الجحيم» نجاحًا أكبر من المسرحية نفسها، وغالبًا ما كان يقدّم كمسرحيةٍ منفصلةٍ كليًا. ذكر فيها نظريته الأثيرة «قوة الحياة» والتي يصفها بأنها قوة دفّاقة في نفس الإنسان، ليست محددة الاتجاه، وليست قوة خير أو قوة شر، بل هي قوة وحسب، وهي التي تدفعه دفعًا إلى الحياة، وهي التي تشفيه إن مَرِض. ولقوة الحياة جانب مادي محسوس، وجانبٌ روحي أيضًا. ومن المعروف أن برنارد شو كان لا يؤمن بالتطعيم، ويحذّر الآباء بقوله «إياكم والتطعيم»، ولا بالأدوية ولا بالأطباء، وكلما كبر زاد عناده في هذهِ الأشياء وقويت حجته، فالمثال الساطع الذي يضربه دومًا هو نفسه بكل تأكيد، فهو لا يتعاطى الأدوية ولا يُدخن ولا يشرب إلا الماء، وها هو قد بلغ التسعين من عمره. وفي هذا الشأن كتب مسرحية محنة الطبيب *The Doctor's Dilemma* التي تضمنت انتقادًا وهجاءً لمهنة الطب وأخلاقياتها وخطورة ترك حياة الناس وصحتهم وأموالهم بيد الطبيب الذي قد تحرّكه مصلحته الشخصية ليتصرف خلاف ما تقتضيه مصلحة المريض، كما أنها تناقش النزاع الذي ينشب بين متطلّبات مهنة الطب، بكل ما تفرضه من أخلاقيات، ومتطلّبات تجارة الطب كنشاط اقتصادي فردي وشخصي.

وقبل أن تُمثل مسرحية الميجور باربارا *Major Barbara*، التي كتبها وهو في الخمسين من عمره، وهاجم فيها جيش الخلاص، وقال على لسان إحدى شخصياتها: «عالمنا اليوم ناجحٌ في الصناعة، متخلفٌ في المبادئ. إنّه على حافة الإفلاس الأخلاقي»، نشرت صحيفة الديلي تلغراف مقابلةً مطوّلةً مع المؤلف، يسأله الصحافي فيها ويُهاجمه ويُسرف في الانتقاد، واصفًا المسرحية بأنها خالية من الفكر، وخالية من المسرح، وهزيلة، ويدافع المؤلف عن مسرحيته دفاعًا ضعيفًا فيعود الصحافي إلى الاستنتاج بأنه من الأفضل للجمهور ألّا يتكبّد عناء الذهاب إلى مشاهدتها فهي لا تستحق هذا العناء. ولم يعرف القرّاء آنذاك أن الأسئلة والأجوبة كانت بقلم برنارد شو، وهي إحدى طرقه للترويج لأعماله.

وأخيرًا، كانت أشهر أعماله مسرحيته بيجماليون *Pygmalion* التي تُعدّ واحدة من أهم مناظرات برنارد شو «الناس ليسوا فقراء لأنهم لا أخلاقيون، وإنما هم لا أخلاقيون لأنهم فقراء». أو، وفقًا لافتراضات اليوم بشأن الفقر: «المشكلة مع الفقراء ليست ثقافتهم أو حاجتهم إلى السمعة، إنما هي فقط كونهم لا يمتلكون مالًا كافيًا».

ولقد بذل برنارد شو أقصى جهده، ككاتب اشتراكي، لنفي المغالطة القائلة بأن الفقر أساسًا إخفاق أخلاقي، وبعكس ذلك أن الأغنياء برهان على جدارة أخلاقية. وكان انشغاله الأكثر عاطفيةً مع الفقر وأسبابه. وقد سكنه هاجس أحياء دبلن الفقيرة سيئة السمعة في طفولته، وقد حصل على جائزة الأوسكار لأحسن سيناريو عن بيجماليون عام 1938.

شغلته نظرية التطور والوصول إلى السوبرمان، أما فكريًا فقد كان من

اللادينيين المتسامحين مع الأديان، ولأن حياته كانت في بدايتها نضالًا ضد الفقر، فقد جعل من مكافحة الفقر هدفًا رئيسيًا لكل ما يكتب. وكان يرى أن الفقر مصدر لكل الآثام والشرور، كالسرقة والإدمان والانحراف، وأن الفقر معناه الضعف والجهل والمرض والقمع والنفاق.

شو والاشتراكية

عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، استمع إلى محاضرة الداعية الاشتراكي هنري جورج، فغيّرت حياته، وتحول إلى الاشتراكية والاقتصاد، وحين سمع زملاءه يتحدّثون عن كتاب رأس المال لكارل ماركس، ذهب من فوره إلى المتحف البريطاني وانكبّ على رأس المال بنسخة ديفيل الفرنسية، إذ لم يكن الكتاب مُترجمًا إلى الإنجليزية بعد، وقد تمكّن سريعًا من أسس المذهب الماركسي. وفي المتحف التقى بصديق عمره ويليام آرتشر الذي كان يُترجم مسرحيات هنريك إبسن عن النرويجية، فتعرف عن طريقه إلى مسرح إبسن وأخذ يعدّه النموذج المثالي للمسرح المعاصر، ومن إسهاماته في هذا الصدد مقالته جوهر الإبسنية *Quintessence of Ibsnism* عام 1891. وقد تعرّف إلى أهم أصدقائه «سيدني ويب» في هذه الفترة، إذ جمعتهما الاشتراكية والتحقا بالجمعية الفابية الناشئة التي كان هدفها تحقيق الاشتراكية والمساواة بالتدريج ومن دون ثورة، وكان أساس عملها الاختراق، إذ يخترق ناشطوها الأحزاب السياسية ويكوّنون صداقات مع السياسيين البارزين للتأثير في تفكيرهم. وكان برنارد شو الداعية الأكبر للفابية ودماغها الاقتصادي.

التقى شو بالناشطة الأيرلندية شارلوت باين تاونسيند ووقعت في

غرامه، حتى إنها عرضت عليه الزواج في تموز/ يوليو 1897، لكنّه رفض عرضها، متذرّعًا بأن ثراءها قد يجعل الناس يصفونه بمتصّيد الفرص، إلا أنه تزوجها في الأول من حزيران/ يونيو عام 1898، بعد أن وقع له حادث أقعده في الفراش وكتب إليها يشتكي، فعادته ورتّبا للزواج. بقي معها حتى وفاتها عام 1943، وقد أحرق جثمانها ومُزج رمادها مع رماده ونُثر في ركن شو بعد وفاته عام 1950.

لا بدّ من استحضار محطة بارزة في مسيرة شو، إذ إنه رفض تسلّم جائزة نوبل في أول مرة فاز بها عام 1925، ليعود ويقبلها في العام التالي. وفي أوّل مرة، قال شو: «إنني أغفر لنوبل أنه اخترع الديناميت ولكنني لا أغفر له أنه أنشأ جائزة نوبل». ويعتبر شو أول من رفض الجائزة منذ إنشائها سنة 1901، وقد قال حينها: «هذه الجائزة أشبه بطوق نجاة يُلقى به إلى شخص وصل فعلًا إلى برّ الأمان ولم يعد عليه من خطر».

في عام 1926 قبِل شو الجائزة، بعدما أقنعته زوجته بأنها شرف لأيرلندا، لكنه ظل مصرًّا على رفض الحصول على قيمتها المادية، وطلب أن تستخدم في ترجمة أعمال زميله الكاتب المسرحي «أوجست ستريندبرج» من السويدية إلى الإنجليزية.

وبحسب كتاب «التفاحة الذهبية.. نساء نوبل.. الفائزات في الآداب» فإن رفض برنارد شو للجائزة جاء ليؤكد أنها منحت قبله لأدباء مغمورين لا يمتلكون الأهمية الإبداعية التي يتمتع بها، وهو ما يؤكد الخلل الموجود في اختيارات جائزة نوبل على الرغم من أنها اعترفت وقتها وأعلنت عن تعديلات في طريقة اختيار الفائز. وبذا يُصبح الكاتب الوحيد الذي جمع بين جائزتي نوبل والأوسكار.

لم يتخلَّ شو عن الجدل الفكري، إلّا أنّه التفت بشكل أكبر إلى خلق شخصياتٍ حية، ولقد قيل عن شخصيات شو إنها ليست من البشر، فما هي إلا أفكار تتحاور وتتصارع على خشبة المسرح، لكنه يرفض هذا ويؤكد أنّ شخصياته مستمدّة من الواقع ومن أناس رآهم أو يعتقد بوجودهم في حياتنا اليومية.

كان شو طرف مراسلات نشيطًا، بالإضافة إلى غزارة إنتاجه الأدبي الذي تجاوز الخمسين مسرحية وخمس روايات بالإضافة إلى مئات المقالات والرسائل التي جُمعت في مجلدين ضخمين بعنوان (رسائل شو المختارة)، وعُرف عن برنارد شو إسهابه في كتابة المقدّمات الطويلة لمسرحياته التي قد تتجاوز عشرات الصفحات، يناقش فيها كلَّ شيء في العالم كيفما شاء، وفي النتيجة يُقدّم تحليلًا يليق بمكانته الفكرية.

لا أخفي على القرّاء وأنا أضع هذا النص المترجم لسيرة حياة برنارد شو التي كتبَ أجزاءً كثيرة منها وضمّن فيها بعض المقابلات الصحافية والرسائل والمقالات المكتوبة عنه التي أراد توثيقها، أنني عانيتُ كثيرًا في فهم بعض مقاصده الغامضة، وخصوصًا تلك المكتوبة بلغات غير الإنجليزية، كالإيطالية والفرنسية واللاتينية، وسعيتُ جاهدة لإيصال المعنى كما أراده، وإن استغرقني البحث عن مصطلح يومًا أو أكثر، من دون أن تختلّ بنية النص العربي، فذكرت بعضها بالعربية فقط، وأضفتُ ما ورد في النص كما هو مقابلًا للعربية في أماكن أخرى، كأسماء الأوبرات وبعض العبارات وأسماء المؤلفين والأعمال الأدبية، كي تكون مرجعًا لمن أراد الاستزادة في البحث.

ولإيماني بأن على المترجم، فيما هو ينقل النص إلى لغته، أن يُحافظ

على طريقة التعبير، ما أمكنه، لدى المؤلف بكل ما تحتمله من خصوصية وفرادة وتميّز، فقد حرصتُ على الإبقاء على كل ما يكتنف النصَّ من فرادة وأوردت بعض المفردات بلغاتها الأخرى. ومع ذلك، فإنني أحسب أن القارئ سيصيب متعةً حين يدرك مقاصد المؤلف ويقف على طاقته الإبداعية، وقد يُحفّزه (كما آمل)، ليقرأ من أعمال برنارد شو العظيمة، سواء المترجمة أو تلك الجواهر التي تنتظر التفات دور النشر العربية إليها.
وكوني قارئةً وفيّةً لبرنارد شو التهمت مسرحياته الواحدة تلو الأخرى في بواكير شبابي أودّ أن أقدّم شكري الجزيل إلى دار الرافدين، وعلى رأسها الأستاذ محمد هادي، لأنّه تقبّل ترشيحي هذا الكتاب وتبنّاه ليصدر عن دار الرافدين كأول كتاب سيرة ذاتية باللغة العربية لشخصية عظيمة مثل جورج برنارد شو.

المترجمة
مروة الجزائري
25 حزيران/ يوليو 2020

- 1 -

كاتب سيرتي الأول

كاتب سيرتي الأول هو والدي؛ جورج كار شو. كان يكتب من مكتبهِ في 67 شارع جيرفيس في مدينة دبلن؛ مقرّ شركة (كليبورن وشو) لتجارة الذرة، ولم يعملا بكفاءة عالية؛ لأن خبرة كليبورن في تجارة الملابس، وليس لوالدي أيّة خبرة في التجارة على الإطلاق؛ فهو لم يكن سوى موظف مدني سابق في بناية محاكم أيرلندا الرئيسية (المحاكم الأربع)، أُحيل إلى التقاعد بعد إغلاق القسم الذي يعمل فيه وتسريح موظفيه. باع معاشه التقاعدي وشارك كليبورن بالمال الذي حصل عليه في هذا العمل التجاري الذي لا يفهمه أيٌّ منهما، إلا أن مكاتب الشركة ومستودعها في شارع جيرفس وطاحونة المياه في جادة روتلاند، وهي قرية ذات مظهر رومانسي تقع في ضواحي دولفن بارن، التي هي من ضواحي المدينة أيضًا، قد بدت لهما استثمارًا واعدًا. ولهذا السبب، تزوّج والدي في منتصف عمره وأثمر زواجه ثلاثة أطفال؛ الكبيرة لوسيندا فرانسيس (لوسي)، وإلينور آغنيس (آغي أو يبي)، وأخيرًا الابن جورج برنارد (سوني)؛ باختصار، أنا.

في يوليو عام 1857، حين كنت أبلغ من العمر عامًا واحدًا، غادرت

والدتي المنزل في شارع سينج وذهبت لزيارة والدها والتر باغينال غورلي، وهو من نبلاء الريف من عائلة كارلو، لكنه يسكن في أوترارد الواقعة في غالوي على الرغم من أن عنوانه في الوقت الحالي هو كينلو في ليترم. عُمّدَت والدتي باسم لوسيندا إليزابيث غورلي (بيسي)، وقد أخذت لوسي معها إلى كينلو، وتركتني أنا وبيبي في رعاية والدنا.

تبدأ سيرتي بمراسلاتهما. ولا يمكنني التحقق من صحتها؛ إذ لا أذكر شيئًا على الإطلاق في ما يخصّ تعلمي المشي أو أنهم كانوا ينادونني بـ (بوب). ومع ذلك. ها هي:

17 يوليو 1857

عانى صغيرنا المسكين من آلام في معدته حوالي الساعة الواحدة ليلًا، لكنه بخير، وهو نشيط كعادته هذا الصباح. تعزو الممرضة مرضه إلى بعض الزبيب الذي تناوله.

20 يوليو

الفتى الصغير يزداد فظاعة، تركته هذا الصباح يلهث ويخور كالثور. أتوقّع أنه سيكون بمقدوره الركض إلى الشارع لاستقبالك عند عودتك.

22 يوليو

المربّية متأكدة تمامًا من أن الفتى الصغير سيتمكّن من المشي عندما تعودين إلى الديار، ثم إنّي واثق من أنها تعتقد أنها سترتاح كثيرًا حينها.

قام بمحاولة جريئة هذا الصباح. ذهب الجميع إلى عمتكِ هذا اليوم (العمة إيلين وتكروفت).

24 يوليو

مزّق بوب قبعته إلى أشلاء يوم أمس، وقالت المربية إن عليَّ ابتياع واحدة جديدة له، فأخبرتها أن تشتريها وسأدفع لها. لذا، أفترض أني سأكونُ عالقًا... وتقول الممرضة كذلك إن بوب مشى بطريقة رائعة إلى عمتكِ.

27 يوليو

عادت المربية وسارة (الخادمة) والطفلان من الكنيسة ثم أقاموا وليمة ملكية في الحديقة. وقد أحضرت المربية قبعة جديدة لبوب، لا يناسبها أقل من توسكان، لذا كان عليّ أن أسلمها 10/ ـ على كل حال، اليوم هو عيد ميلاده، لذا، لن أقول شيئًا.

... يبي وبوب وقعا من سريرهما صباح يوم أمس على مقدمة رأسيهما ولا يبدو أنهما أُصيبا بأذى، لكن قد يكونان كذلك.

28 يوليو

شرّفني بوبزا برفقته وتبارينا بالمشي معًا. على الرغم من أنّ مآثره في هذا الطريق لم تستمرّ سوى بضع ياردات أدّاها باندفاع سريع من المربية نحوي ثم مني إلى المربية أو إلى كارولاين برابازون (عرّابة جورج برنارد شو)، أو أي شخص آخر يمكنه الوصول إليه حينها. قبعته رائعة، إلا أني أعتقد أن مربيته ستطلب منكِ ريشًا لتزينها حين تعودين إلى المنزل.

(غير مؤرّخة) صباح يوم الأحد في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف كالمعتاد

أمضى بوب بعض الوقت في السرير معي هذا الصباح كما تناول إفطاره

أيضًا وما إلى ذلك... رفع رأسه بحركة مفاجئة وتألّم قبل قليل، لكنه الآن يضحك بعد أن أطلق صرخات ألم عدة.

30 يوليو

أخرجت الصغار صباح يوم أمس وأخذتهم في نزهة في عربة الأطفال، وقد استمتعنا كثيرًا. أصبح بوب صعب المراس كثيرًا، وموسم دِراسة الحبوب يقترب، حريٌّ به أن يحترس وإلا أودعته عند شخص آخر.

3 أغسطس

سأظلّ أشعر بخيبة أمل كل صباح لا يدخل فيه بوب يتهادى وهو يحمل رسالة منكِ، وأخوض معه قتالًا مستميتًا كي أنتزعها منه.

مزّق هذا الطفل الطائش الصحيفة هذا الصباح.

غادرت المربية برفقة الطفلين يوم أمس لقضاء اليوم في كينغستاون، لكن صادف أنها نظرت داخل محل في شارع كينغ وعلمت أن الآنسة مالون كانت في المدينة وخاب أملها، لأن هذا ما وضع نهاية لرحلتهم. وقد حُدد الاثنين المقبل لنزهتهم.

6 أغسطس

كنتُ في المنزل في منتصف النهار وقد حظيتُ بنصف ساعة استمتعتُ فيها مع بيبي وبوب... زارتنا سيسيليا (أخته وعمة جورج برنارد شو) لرؤية الأطفال.

7 أغسطس

قالت لي المربية هذا الصباح إنها على وشك الانهيار بسبب بوب. وهو بالفعل طفل متعب لتعتني به من دون أية مساعدة.

8 أغسطس

أوصلت قُبلاتكِ إلى بيبي وبوب، ولكن، خلافًا لتعليماتك، احتفظتُ بالقليل منها لنفسي؛ أنتِ تعرفين عذوبة القبلات المسروقة!

11 أغسطس

أفلت بوب المسكين بأعجوبة صباح يوم الثلاثاء. كان يجلس على طاولة المطبخ تحت رعاية المربية، التي، كما تقول، لم تكد تنحني لتلتقط شيئًا من الأرض حين وقع فجأة إلى الخلف وارتطم رأسه بلوحٍ زجاجي وضرب القضيب الحديدي الخارجي. معجزةٌ القول إنه لم يُصَب بأي خدش، ولو سقط ووجهه نحو اللوح الزجاجي لحصل ما لا تُحمد عُقباه. كنت في غرفة ملابسي حين حصل كل هذا، وهرعت إلى هناك حالما سمعت صوت التحطّم ورأيتُ المربية وقد شلّها الرعب لدرجة أنها بالكاد تمكّنت من رفع المسكين عن الأرض. لا أعلم كيف نجا هذا الطفل، لكن لا يبدو أن السقوط قد سبّب له ألمًا في الرأس.

15 أغسطس

بوب المسكين مزعوج بسبب أسنانه، ونتيجة لذلك، لا يشعر بارتياح ليلًا ونهارًا.

- 2 -

اعتذاري عن هذا الكتاب

يسألني الناس باستمرار: لمَ لا أكتب سيرتي الذاتية بنفسي.

وأجيب بأن سيرتي الذاتية ليست بذات أهمية؛ لم أقتل أحدًا ولم يحصل لي شيء استثنائي. وحين أمسك قارئ الكف يدي وتمعّن فيها لأول مرة، أدهشني عندما أخبرني قصة حياتي، أو بقدر ما أسعفه الوقت حينها. وبحسب ما يبدو، عرف عني معلومات لم أخبر أحدًا بها. وبعد أيام عدّة، ذكرت في حديث لي مع صديقي ويليام آرتشر أنني هاوٍ في قراءة الكف، فمدَّ يده على الفور وتحدّاني أن أخبره بأي معلومة عن حياته لم أعرفها من خلال معرفتي الشخصية به. فقلتُ له بالضبط ما أخبرني به قارئ الكف. فأصابه الذهول مثلما حصل معي. كنا نعتقد أن تجاربنا فريدة من نوعها، في حين أنها متشابهة بنسبة 99.9 % والواحد في العشرة المتبقية لم يذكرها قارئ الكف.

كُنّا كقردين اعتقدا أن هيكليهما العظميين فريدان، وقد يكونان محقّين إلى درجة عظمة أو اثنتين؛ فوفقًا لعلماء التشريح، لا يوجد هيكلان عظميان متشابهان تمامًا. وبالتالي فإن للقرد الحق الكامل في إظهار عظمته الفريدة أو عظمتيه كتحفة لافته للنظر، لكن عليه أن يرفض

بقية هيكله العظمي كونه مملًا. ويجب أن يحتفظ به لنفسه خشية إضجار الناس بشكل غير مقبول.

وهنا تكمن صعوبة كتابتي لسيرتي الذاتية، كيف سأنتقي وأصف نسبة الـ 0.5 % من نفسي التي تُميزني عن باقي الرجال ممن هم أقل أو أكثر حظًا مني؟ أي اهتمام دنيوي في وصف مفصّل لكيف وُلِد سميث الشهير في بيت رقم 6 على الطريق السريع، وبدأ يكبر ويزداد طولًا حتى أصبح في العشرين من عمره، حين وُلد براون الغامض، وجونز وروبنسون، المولود في البيت رقم سبعة وثمانية وتسعة ومرّوا بنفس طور النمو الروتيني؛ التغذية والإفراز، ولبس الملابس وخلعها، والسكن والانتقال. ولكي يبرر كتابة سيرته الذاتية، على سميث أن يكون قد خاض مغامرات، وحصلت معه أمور استثنائية.

أما أنا فليس لدي مغامرات بطولية، ولم تحدث لي أمور استثنائية، بل على العكس، أنا الذي حدثت لهم. وقد حوّلت كل ما حصل معي إلى كتب ومسرحيات. اقرأوها أو شاهدوها إن أحببتم، وستكون لديكم قصتي بالكامل، وما تبقى، فطور وغداء وعشاء ونوم واستيقاظ وغسل وهكذا فقط. روتيني اليومي مماثل لروتين الجميع. يخبركم فولتير في صفحتين كاملتين كل ما تحتاجون إلى معرفته عن حياة موليير الخاصة، فمائة ألف كلمة عنها ستكون لا تُطاق.

ثم إنّ هناك عقبة أخرى، حين توجد المغامرة بالفعل، غالبًا ما يشترك معك شخص آخر فيها، وحقك في سرد قصتك لا يتضمن الحق بإخبار قصة أي شخص آخر. وفي حال انتهكت هذا الحق، وكان الطرف الآخر لا يزال على قيد الحياة، فإنك بالتأكيد ستُكَذَّب بسخط؛ إذ لا يوجد شخصان

يتذكران نفس الحادث بنفس الطريقة، وقلّةٌ قليلة من الناس يعرفون ما حدث لهم بالفعل، أو يمكنهم وصفه فنيًا. ويجب أن تكون السير الذاتية فنيّة ذات طابع جمالي حتى تكون قابلة للقراءة.

الاعترافات هي أفضل السير الذاتية. ولكن، حين يكون الرجل كاتبًا عميقًا، فكل أعماله اعترافات. كان غوته أحد أعظم الرجال الذين حاولوا كتابة سيرتهم الذاتية. وبعد الجزء المتعلّق بطفولته، وهو الجزء الأكثر مقروئية من أسوأ السير الذاتية، كانت محاولاته لتجنّب الموضوع مثيرة للشفقة. فهو يلجأ إلى الإسهاب في الصور الوصفية لكل من عرفهم في شبابه، أشخاص لا يعلقون في الذاكرة أبدًا، منسيون، حتى يسقط الكتاب من يدك ولا تلتقطه مرة أخرى. وأنا واحد من الأشخاص القلائل الذين قرأوا اعترافات جان جاك روسو حتى النهاية، ويمكنني أن أشهد أنّه منذ اللحظة التي توقف فيها عن كونه مغامرًا شابًا إلى حد ما، وأصبح روسو العظيم، غدا كأي شخص آخر يمكن للجميع فهم حياته اليومية أو تذكّرها.

لدي ذكرى حية عن مدام دي وارنز حين كان روسو في السادسة عشرة من عمره، وليس لدي أدنى انطباع عن مدام دودوتُو حين كان في الخامسة والأربعين من عمره ولا أتذكر سوى اسمها. باختصار، لا تخبرنا الاعترافات أي شيء مهم عن حياة روسو البالغ. أعماله تخبرنا بكل ما نحتاج إلى معرفته. ولو قُدِّر ليوميات شكسبير منذ ولادته وحتى وفاته أن ترى النور، وضاعت معلومات هاملت وماركيشيو في نفس الوقت، فسيكون التأثير هو استبدال رجل عادي تمامًا برجل مدهش. وفي حالة تشارلز ديكنز، يُعرف عنه الكثير مما قد يكون حدث مع ويكنز أو بيكنز

أو ستيكينز، لدرجة أن كُتّاب سيرته قد طمسوا شخصيته لأولئك الذين لا يقرأون كتبه، وأفسدوا صورته بشكل مؤلم لقُرّائه.

ولذلك، لا تقدّمني شذرات سيرتي الذاتية الموجودة بين دفتي هذا الكتاب من وجهة نظري الشخصية التي حتمًا سأكون لا واعي لها كطعم الماء، لأنه دائمًا في فمي.

وقد تُخبرك هذهِ الشذرات في الغالب ما تم تجاهله أو أُسيء فهمه. وأشرت، على سبيل المثال، إلى أن الصبي الذي يعرف روائع الموسيقى الحديثة هو في الواقع أكثر تعليمًا من الشاب الذي لا يعرف سوى روائع الأدب اليوناني واللاتيني القديم.

وقد بيّنتُ القَدَر البائس في مجتمعنا لكرماء المحتدّ المعوزين[1]، وكما اسمي الصبي النبيل الذي ينحدر من سلالة أصغر الأبناء بسبب البلوتوقراطية، ممن تتجاوز كلفة التعليم الجامعي دخل والده، فأصبح بلا موارد ولا تعليم الرجل النبيل، لا شيء سوى متكبر مفلس.

وقد فكرت جيدًا في أن أحذّر الشباب بأن خطورة معرفتك أكثر مما يجب تساوي معرفتك القليل، وأن تكون طيبًا جدًا يماثل كونك في غاية السوء، وكيف تكمن السلامة أولًا في معرفة وتصديق وعمل ما يعرفه ويعمله ويؤمن به الجميع.

ولم تُذكَر هذهِ الأشياء لأني تعرّضت للاضطهاد بشكل لا يحتمل، ولا

(1) The Downstart: هو لقب أيرلندي يُطلق عادة على الأيرلندي حسن الولادة والنشأة لكن تعوزه الثروة، وغالبًا ما يكون الابن الأصغر من العائلة، وقد حاولت إيجاد مكافئ عربي قريب قدر الإمكان بتسميته «كريم المحتدّ المعوز».

لأنهم آذوني، بل لأنها تهمّ طبقة كرماء المحتدّ المعوزين التي أنتمي إليها، وعند ذكرها وفهمها بذكاء قد تساهم في جعلها طبقة واعية لذاتها؛ تتصرّف بشكل أفضل. وبالتالي، وبكوني مواعظيًّا عنيدًا لا سبيل إلى تغييره، أنتهك قوانين السيرة الذاتية وأبدأ الاعتذار بإخبارك القليل عن نفسي الذي ربما لم يحدث لألف شو ومليون سميث. وربما يجد محلّلونا النفسيون أدلةً قد تكون فاتتني في هذهِ الأشياء المملة.

ولتخفيف حدّة الضجر، ثمة حكايات عن أقاربي، عليك قراءتها وكأنها أدب خيالي اعتيادي. عائلة شو الأيرلندية تكون أكثر مرحًا أحيانًا من عائلة روبنسون السويسرية، وربما أقلّ إرشادًا لهؤلاء القادرين على توجيهات كهذه. وعن نفسي، كلّ أفكاري الجيدة (بضاعتي) موجودة في نوافذ المكتبات وعلى خشبات المسارح، وكل ما هو قابل للنقل قد تم إيصاله في حياتي الطويلة التي لا يمكنني القول إنّ يومًا مرّ فيها من دون أن أخطّ فيه سطرًا، ومع هذا ربما أكون قد اقتربت من الرجل المثالي الروماني قدر الإمكان من الناحية الصحية والإنسانية.

آيوت سان لورانس

15 يناير 1939 ـ نُقّحت في 1949

- 3 -

أمي وأقاربـها

كانت والدتي ابنةَ رجل نبيل من الريف، وقد أنشأتها عمّتها الكبرى بصرامة قاسية، لتكون نموذجًا لجميع الفضائل والإنجازات التي تليق بسيّدة، وأتذكّرها في طفولتي المبكرة كسيدة عجوز محدبة ذات وجه جميل، بدت لي إعاقتها هذهِ مناسبة تمامًا لتكون جنيّة رحيمة. ولو عَرفت الانطباع الإيجَابي السحري الذي أحدثتهُ عليّ، لتركت لي ممتلكاتها. وأعتقد الآن أنهم كانوا يرسلونني إليها على أمل أن أجذبها إلى هذا الحدّ لتفعل ذلك، لكنني كنت فاشلًا.

ربّت والدتي لتحصل على زواج مميّز من شأنه أن يمحو أخيرًا وصمة عارٍ، لا يمكن ذكرها، على نسبها. على الرغم من أن نسبها لوالديها لا تشوبه شائبةٌ، إلا أنّ جدّها كان شخصيةً غامضةً. كانت ولادته مبهمة، حتى إن ثمّة بعض الشكوك حول ما إذا كان لديه والدَان قانونيان البتة. صنع ثروته متخفّيًا تحت اسم موظف يُدعى كولين بإدارته محلّ رهونات في إحدى أفقر ضواحي دبلن. وفي هذهِ الأثناء، بعد أن انتحل رتبة رجل نبيل من الريف في مقاعد البرلمان في مقاطعة دبلن، صاهر عائلة أصيلة من عوائل المقاطعة. لكن ومع ذلك استمرّ عمله في محل الرهونات وقيّده

هذا المحل. وعلى هذا الأساس، كانت العمّة الكبرى إيلين عازمةً على تربية ابنة زوجة أخيها الميتة بطريقة لا تشوبها شائبة. لذلك كانت لوالدتي طفولة إسبارطية وحملت ختم التقيد هذا معها إلى قبرها. فالمصائب التي كانت ستسحق عشر نساء غير مدربات، كانت تمرُّ عليها مثل تكسّر الأمواج على الجرانيت.

عادت الطبيعة، التي طُردت بمذراة، مرة أخرى، وحطّمت خطط حياة عمتها الجنية. عندما كبرت والدتي، عرفت صوت الجهير العميق *thoroughbass* كما علّمها أستاذ الموسيقى يوهان برنهارد لوجييه (الذي اشتهر في دبلن كمخترع جهاز الكايروبلاست، وهي آلة ميكانيكية لتدريب الأصابع، والتي تُظلل تلاميذه تمامًا)، وأصبح في إمكانها تكرار خرافتين للافونتين بالفرنسية بنطق مثالي، والمشي بمهابة ووقار، ويمكنها أن تعمل جامعةَ أسمال من دون أن تفقد قناعتها الكاملة بأنّها سيدة، من جنس مختلف تمامًا عن الخدم والناس العاديين، لكنها لم تستطع تدبير منزل بميزانية صغيرة، ولم تكن لديها أيّة فكرة عن قيمة المال.

هجرت عمتها الكبرى واعتبرت كل ما علّمتها من مذهبٍ وانضباطٍ طغيانًا واستعبادًا. ونتيجة لذلك، ولطبيعتها الإنسانية، تخلّت عن أطفالها لفوضى أكثر اكتمالًا. والواقع أن والديّ كليهما لم يكونا قسريين إطلاقًا.

في الوقت المناسب، بدأت تتردّد إلى مجتمع دبلن لتتزوّج. ومن بين الأشخاص الآخرين الذين تواصلت معهم كان جورج كار شو، رجل بريء كما يبدو، في الأربعين من عمره، لديه انحراف في عينه وذو حسّ فكاهة يُسعده في خيباته، ويجعله مُستمعًا ممتنًّا لتشارلز لام. كان عضوًا في عائلة كبيرة تطلق على نفسها «آل شو»، وقد دُعيت إلى بوشي بارك بحكم

القرابة، مقرّ العازب السير روبرت شو، ولمعرفة مَنْ هو بارت، انظر «بورك لعقارات الطبقة العُليا»(1). وقد بدا جورج كار شو رفقة آمنةً جدًا لوالدتي شديدة الحذر؛ لا أحد يمكن أن يتصوّر أن لديه الجرأة وحب المغامرة ولا الموارد المالية ليتزوّج أي امرأة، حتى وإن افترضنا أن تتقبّل أنثى حسنة المنشأ كالآنسة لوسيندا إليزابيث غورلي عمرهُ وحَوَلهُ. وهكذا، فقد تحدّث عنه أقرباؤها بكل خير ووصفوه بأنه شخص مؤهّل تمامًا لتتعرف إليه اجتماعيًا، غافلين عن أنها لم تعلم ما يعنيه الزواج حقًا، ولم تُجرب الإفلاس من قبل، وقد تتزوّج أي رجل مغامر من دون أن تعي ما هي فاعلة.

ثم حدثت مأساتها بسبب ضغط خارجي لم يتنبّأ به أحد.

تزوج والدها الأرمل على حين غرة مرة أخرى، وهذه المرة، ارتبط بالابنة المفلسة لصديق قديم له كان يدعم فواتيره بتبعات هدّامة. لم ترضَ عائلة زوجته الأولى هذا الزواج، وخصوصًا صهره الإقطاعي في مدينة كيلكيني، الذي كان يدين له بالمال وأخفى عنه نيته الزواج مرة أخرى.

لسوء الحظّ، أفشت والدتي ببراءة سرّ زواج أبيها لخالها. وكانت النتيجة أن جدي، الذي خرج صباح يوم زفافه لشراء قفازَين للاحتفال، أُلقي القبض عليه بسبب الدعوة التي رفعها عليه صهره لتخلّفه في دفع ديونه. ولا يمكن للمرء أن يلومه كونه استشاط غضبًا، لكن غضبه تجاوز كل منطق؛ فقد كان يعتقد أن والدتي قد خانته عمدًا لإيقاف الزواج باعتقاله. وكان على والدتي، التي كانت في زيارة إلى بعض أقاربها في دبلن في ذلك الوقت، الاختيار بين

(1) بورك لعقارات الطبقة العُليا: هو عمل مرجعي يسرد أسماء العائلات في بريطانيا العظمى وأيرلندا ممن تمتلك عقارات ريفية. والعمل موجود منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد أسّسه جون بورك.

منزلين لتعود إليه؛ أحدهما كان منزل زوجة الأب والأب الغاضب، والآخر كان منزل عمّتها، ما يعني العودة إلى العبودية القديمة والاستبداد.

في هذهِ اللحظة، دفع شيطان ما، ربما بتكليف من قوة الحياة نفسها لتجلبني إلى هذا العالم، والدي إلى طلب يد الآنسة بيسي غورلي للزواج. وقد أمسكت بقشة النجاة هذهِ. كانت قد سمعت أن معاشه ستون جنيهًا إسترلينيًا في السنة، وبالنسبة إليها، التي لم يُسمح لها مطلقًا بالحصول على أكثر من مصروف الجيب ولم تدبّر منزلًا قط، فقد بدت الستون جنيهًا إسترلينيًا مبلغًا ضخمًا لا ينضب. أعلنت بهدوء عن خطوبتها، وأسقطت القنبلة بلا مبالاة، كما لو أنها كرة زجاجية ملوّنة من لوح لعبة السوليتير. وكان الناس يلعبون السوليتير في تلك الأيام.

عندما عَلِم أصدقاؤها استحالةَ رؤيتها لخطورة وضعه المالي، ولم تنجح محاولات تحفيزها على إلغاء خطوبتها على هذا الأساس، لعبوا بطاقةً أخرى. أخبروها أن جورج كار شو سكّير. رفضت بسخط تصديقهم، مذكّرة إياهم بأنهم لم يعترضوا عليه من قبل. وعندما استمروا، ذهبت إليه مباشرة وسألته إن كان ما يقولون صحيحًا، وقد أكّد لها بكل جدية أنه واثق ومتأكدٌ من امتناعه عن الخمور مدى الحياة. فصدّقته وتزوجته. ولكن ما قالوه كان صحيحًا، فقد كان يُعاقر الخمرَ بالفعل.

من دون أن أحاول الدفاع عن والدي لقوله تلك الكذبة الكبيرة، يجب أن أوضح أنه كان بالفعل واثقًا ومتأكّدًا من امتناعه عن الخمور من حيث المبدأ، وللأسف، إن رعب تجربته الشخصية كمدمن كحول من حين إلى آخر هو ما أعطاه هذهِ القناعة التي فشل في تطبيقها على أرض الواقع فشلًا ذريعًا.

لا أستطيع إلا أن أتخيّل الجحيمَ الذي انحدرت إليه والدتي عندما اكتشفت ما الفقر المدقع مع زوجٍ مخمور. أخبرتني ذات مرة أنها عندما كانت تقضي شهر العسل في ليفربول (من بين جميع الأماكن) فتحت خزانة ملابس العريس ووجدتها مليئةً بالزجاجات الفارغة. وتحت وطأة الصدمة الأولى للاكتشاف، هربت إلى أرصفة السفن للعمل مضيفةً ولكي تُغادر البلاد. ولكن، وهي في طريقها، تحرّش بها بعض عمّال أحواض المرفأ الفطين واضطرت إلى الركضِ عائدةً مرة أخرى.

وقد دونتُ في مكانٍ آخر كيف أن والدي ذات مرة عندما أخذني في نزهة، تظاهر باللعب ليرميني في القناة، وكاد يفعل. وعندما عدتُ إلى المنزل قلت لوالدتي كاكتشاف فظيع لا يكاد يمكن تصديقه: «ماما. أظن أن والدي سكران». وكان الأمر فوق احتمالها فقالت: «متى لم يكن كذلك؟!».

إنه لمن المبالغة الخطابية القول إنني لم أعد أؤمن منذ ذلك الحين بأي شيء أو أي شخص، ولكن تشوّه إيماني الطفولي بوالدي وبأنه شخص مثالي وعالم بكل شيء، واكتشافي أنه منافقٌ ومدمنٌ للكحول كان مفاجئًا وعنيفًا لدرجة أنه لا بد أن يترك بصمته عليّ.

قطعت عمّة والدتي المعونات عنها بلا رحمة على الرغم من سحري الطفولي. وكل ما حصلت عليه والدتي منها هو هدية مسبقة عبارة عن رزمة سندات دين موقّعة باسم جدي. كانت بريئة لدرجة سمحت له برؤية السندات وسألته ماذا ستفعل بها. فرماها على الفور في النار. هذا لا يهمّ، لأنه لم ينوِ تسديدها بأي شكل من الأشكال. لكنه حاول أيضًا استخدام سلطة المنصب تحت إرادة جدها (صاحب الرهن) لحرمانها من أي حصة

من وصاياه لأحفاده، وعلى الرغم من أن محامي عائلة غورلي أمّن لها أربعين جنيهًا إسترلينيًا في السنة برفضه التام السماح له بفعل أسوأ ما لديه، وقد ترسّخت قناعة والدتي بأن أباها كان والدًا انتقاميًا، وليس لديه ضمير حيّ في الأمور المالية.

أما أخوها، خالي والتر، فقد كان ماجنًا وأساء إليها ذات مرة وضربها بقوة ووحشية في إحدى نوباته العصبية تلك. وقد حذا حذو أبيه بتعامله غير الفعّال في ما يتعلّق بالملكية. خذلها الجميع وخيّبوا ظنّها، أو خانوها، أو ظلموها.

لم يتعكّر مزاجها من كل هذا على الإطلاق، ولم تُثِر جلبة، ولم تشتكِ ولم تتذمّر ولم تُعاقب أو تنتقم أو تفقد سيطرتها على نفسها أو تفوّقها على الحقد ونوبات الغضب والانفعالات. لم تكن ضعيفةً ولا خاضعة. ولكن، ولأنها لم تنتقم، فهي لم تسامح أبدًا. لم تكن هناك مشاجرات، وبالتالي لم تكن هناك مصالحات. إن ارتكبتَ ذنبًا، وصَنَّفتكَ شخصًا يرتكب مثل هذه الأخطاء، فستسامحك إلى حدّ ما. ولكن إذا دفعتها إلى الانفصال عنك أخيرًا، فستكون الفجوة بينكم دائمة، ولن تغفر لك مرة أخرى. ومن بين أقوالي المأثورة للثوريين: «حذارِ من الرجل الذي لا يردّ صفعتَك». تعلمت من والدتي أنّ الغضب الذي تغرب عليه الشمس لا يكاد يذكر مقارنة بالرؤية والنقد الواضحين اللذين لم يخلقهما الغضب ولا ينتهي بهما.

في ظلّ كل هذهِ الظروف التي تقول الكثير عن إنسانية والدتي، وإنها لم تكره أطفالها، هي لم تكره أحدًا، ولم تُحب أحدًا في المقابل، وقد تحركت فيها مشاعر الأمومة الخاصة فقط مع أختي الصغرى التي توفيت عن عمر

يُناهز العشرين. لكن هذهِ المشاعر لم تتحرّك إلا بعد أن خسرتها، وحتى في تلك اللحظة، لم تكن واضحةً.

لم تَشغل بالها بنا كثيرًا؛ لأنها لم تُعلَّم أن الأمومة براعة وإدراك، ولم تهتمّ على الإطلاق إذا أكل الطفل أو شرب. تركت كل هذا للخدم الذين يتقاضون ثمانية جنيهات في السنة ولا يمكنهم القراءة والكتابة. ولم يكن لديها حسّ بقيمة تدريبها الخاص، ولم تُعطِ أيّ تقدير لنتائجه التي قد تكون اعتبرتها من هِبات الطبيعة، لكن شعورًا عميقًا بقسوته كان ملازمًا لها.

عندما كبرنا وأصبح لزامًا علينا الاعتناء بأنفسنا من دون رقابة، تعثّرنا بصعوبات الحياة حتى تكسرت سيقاننا، واكتسبنا الحكمةَ المحتومةَ بتصرّفاتنا الحمقاء. وبشكلٍ عام، كان الأمر أسهل لوالدتي من خطّة عمتها، ومن المؤكد أن المقصود كان ألطف، وفي الحقيقة هو كذلك، لكن ليس بقدر ما ظنّت؛ لأن ترك عجل صغير شارد في كل محلّ أوانٍ فخارية ليس الخيار البديل الوحيد لحثّه على الحركة في الشارع. باختصار، لم تكن والدتي أمًّا ولا زوجة، من وجهة النظر العملية لموظف الرعاية الحديثة، ويمكن تصنيفها فقط أنّها أناركية بوهيمية ذات عادات شبيهةٍ بالسيّدة.

كان والدي مُفلسًا وفاشلًا، ولم يستطع أن يفعل شيئًا يُثير اهتمامها، ولم يتخلّص من عادة إدمان الخمر المخزية والبائسة (لكنّه فعل في النهاية) حتى فات الأوان لإحداث أي فرق في علاقتهما. ولو لم يكن هناك خيال، ومثالية، وعذوبة الموسيقى، وسحر البحار الجميلة وغروب الشمس، ولطفنا الطبيعي ودماثتنا، لاستحالت معرفة أيّ همجية ساخرة كنا سنكبر فيها.

حصلت والدتي على خلاصها بالموسيقى. كان لديها صوت ميزو سوبرانو بنقاء استثنائي للنغمة، ولصقله أكثر؛ أخذت دروسًا عند جورج جون فاندالير لي، المعروف في دبلن بأنه قائد أوركسترا، ومنظم حفلات موسيقية ومدرس غِناء مهرطق وغريب أطوار، لدرجة أنه يعتمد في حفلاته على هواة درّبهم بنفسه، وقد مقتهُ منافسوه، الذين استخفّ بهم بوصفهم مدمّري الأصوات، وأغلبهم كذلك بالفعل. وقد وجّه هذا الانتقاد إلى الأطباء كذلك، وأذهلنا بتناوله الخبزَ الأسمر بدلًا من الأبيض، وبالنوم والنوافذ مفتوحةً. وكلتا العادتين اكتسبتها منه وما زلت أمارسها حتى يومنا هذا.

كان تأثير وجوده في منزلنا، وقد أصبح فردًا آخر فيه في نهاية المطاف، هو السبب في اعتيادي التشكيك في ما يخصّ السلطةَ الأكاديمية والذي لا يزال قائمًا في داخلي. ولم يجعل والدتي تغنّي بطريقة حافظت على صوتها على نحوٍ مثالي حتى وفاتها في سن الثمانين فحسب، بل أعطاها قضيةً وعقيدةً لتعيش من أجلهما.

أولئك الذين يعرفون مسرحيتي «زواج غير متكافئ» ***Misalliance***، وفيها يكون للحبيب ثلاثة آباء، سيلاحظون أني أنا كذلك لدي والد طبيعي واثنان إضافيان، ما يجعلهم ثلاثة أصناف لأتأمّلهم، وهذا ما وسّع آفاقي إلى حدٍ كبير. يجب على الوالدين الطبيعيين أن يضعوا في حسبانهم أنه كلما وجد أطفالهم أشخاصًا إضافيين في المدرسة أو في مكان آخر، كان ذلك أفضل كي يعرفوا أن العالم يتكوّن من كل الأصناف.

ثم إن ثمة خطورةً دائمة من أن يُفسد هؤلاء الأطفال بواسطة آبائهم. فقد يكون الآباء الطبيعيون، ربما عشرة في المائة منهم، في الواقع، أسوأ من كثُر.

كذلك خالي والتر، الذي كان يعمل في فترة طفولتي طبيبًا جرّاحًا في السفن على خط إنمان (اسمه الآن الأمريكي) ويزورنا بين الرحلات. تلقّى تعليمه في كلية كيلكيني؛ في عصره كانت بمنزلة إيتون أيرلندا. وعندما كان أصغر فتى هناك، والوحيد الذي كان بإمكانه أن ينزلق من تحت أبواب الكلية المغلقة، كان الأولاد الكبار يرسلونه ليلًا إلى المدينة للقيام بمواعيدهم الغرامية مع سيدات الشارع، وكانت مكافأته هي الويسكي، بما يكفي ليسكر حتى الخدر. (وكان، بالمناسبة، مُندهشًا ومُرتعبًا من المثلية الجنسية في المدارس الحكومية الإنجليزية، وأكّدَ أن المدارس يجب أن تكون دائمًا، مثل كلية كيلكيني، قريبة على النساء). وكان عليه أن ينسحب من كلية ترينيتي في دبلن؛ جامعته، للتعافي من انغماسه المُفرط فيَ الملذات. ولم يتمكن والده، الذي كان دائمًا يفتقر إلى المال لتسديده فواتير أصدقائه ورهنه المتهور، من دعمه فتخرج جرّاحًا وقَبِل بوظيفة إنمان. درس موضوعات الامتحان واجتازه بسهولة، كان، على ما يبدو، ضابطًا طبيًا بارعًا تحت التدريب.

وقد كان شخصًا مُبهجًا جدًا، لأنه كان كوالدتي، لكن من دون وقارها، يضجّ بشباب لا يمكن لأي انغماس في الملذات أن يُبدّده، وكان ممتلئ الجسم نقي الدم. وكلامه البذيء والفحش في حديثه نابعان من الوفرة الرابليّة[1]. أما بالنسبة لإجلالي الكبير له في سنوات حياتي الأولى، فهو أقل مما كان لفولستاف[2] تجاه الأمير هال، إن كان هذا ممكنًا. وقد أضاف

(1) مشتقة من اسم المؤلف الفرنسي فرانسوا رابليه (1490 ـ 1553) الذي تتميز كتاباته بالخيال الخصب إلى جانب تطرف وفظاظة الفكاهة والهجاء.

(2) السير جون فولستاف: شخصية خيالية، تظهر في ثلاث مسرحيات لوليم شكسبير

إلى القصائد الست الطفولية المقفّاة التي علمتني إياها والدتي مخزونًا من القصائد اللمريكية[1] غير المطبوعة التي شكّلت تقريبًا تعليمًا في الجغرافيا. وكانت معنوياته عالية دائمًا، وكله روح دعابة وفكاهة، على الرغم من همجيتها في تجديفها الفاحش، فقد كانت إنجيلية وشكسبيرية في صياغة وخيال تعبيرها الأدبي. وكونه مشبعًا بالكتاب المقدس؛ كان يقتبس الكثير من أقوال يسوع كنموذج لحضور بديهيته الطريف. واعتبر روايات أنتوني ترولوب الوحيدة التي تستحق القراءة (في تلك الأيام كانت هذهِ الروايات تُعتبر تعرّضات جريئة للكنيسة)، وكانت الأوبرا المفضلة لديه هي أوبرا فرا ديافولو *Auber's Fra Diavolo*.

ربما لو ثُقِّفَ من الناحية الفنية في طفولته، لكان رجل ملذات مُحسّنة وربما أسهم في مجال الأدب، إلا أنّه كان متهكمًا وخليعًا لأنه لم يتعرف إلى ملذات أفضل ولم يُحرم منها. وعلى الرغم من انغماسه الذي لم يكن مستمرًا كونه فسوق بحّارة متقطع على الشاطئ، فقد كان رجلًا بصحة ممتازة حتى تزوج أرملة إنجليزية تعيش في أمريكا واستقر كطبيب ممارس عام في ليتون إيسكس ثم في منطقة ريفية على حدود غابة البينج.

وقد حاولت زوجته أن تجعله يتصرف طِبقًا للمظاهر الإنجليزية: كالذهاب إلى الكنيسة ومراعاة مشاعر مرضاه وآرائهم، وأن يمتنع عن اللهو بتشويه سمعة المحترمين منهم أو على الأقل ألا يُقحم نفسه في التجديف

(مسرحية هنري الرابع بجزأيها الأول والثاني ومسرحية هنري الخامس) كمرافق للأمير هال الذي يتوج على عرش إنجلترا باسم الملك هنري الخامس. ويتصف فولستاف بالغرور والاختيال والجُبن، وهو بدين يقضي جل وقته في الشرب. ثم يظهر فولستاف ثانية كخاطب مهذب لامرأتين متزوجتين في مسرحية زوجتان مرحتان من وندسور.

(1) قصائد لمريكية: هي قصائد خماسية فكاهية.

الصاخب. لكن كل هذا كان من دون جدوى؛ زادت احتجاجاتها من تلذذه بالتجديف. ومع ذلك، فقد أبلى بلاءً حسنًا في مجتمع مقاطعة ليتون، لأنه كان مسليًا جدًا، وكان من الواضح أنه رجل نبيل يمتطي حصانًا، وافتتح عيادته الخاصة.

سرعان ما امتدَّ شرق لندن وابتلع ليتون، وهُدّمت منازل مرضاهُ الريفية واستبدلت بصفوف من صناديق الطوب الصغيرة التي يسكنها كَتَبَة يرتدون قبعات طويلة يعيلون عائلاتهم بمرتب قدره خمسة عشر شلنًا في الأسبوع. التغيير دمّر خالي، وتوفّيت زوجته في حالة من الاشمئزاز واليأس، تاركة كل ما تملكه لأقارب زوجها السابق. باع حصانه، ورهن ساعته، وأصبحت ثيابه رثّة مخزية. وعندما مات، ورثتُ ممتلكاته، واكتشفت أن أجر الخادم الذي بقي معه كل هذهِ الفترة لم يُدفع منذ سبعة عشر عامًا. وقد رهن والدهُ العقار حتى آخر قشّة منذ وقت طويل. كان عليَّ أن أرفض إرثي لو علمت بذلك قبل بضع سنوات. وكبداية، تمكّنت من دفع الرهن العقاري، وأعدتُ بناء المنازل المهدمة، وساعدتُ الأقرباء الفقراء، وأعدتُ الملكية إلى سابق عهدها. وأخيرًا، وضعتها تحت تصرّف البلدية، بعد أن حصلت على قانون صادر من مدينة دالي (برلمان آير) ليمكنني من فعل هذا، أو أي شخص يحذو حذوي.

غالبًا ما يكون لأطفال الأناركيين البوهيميين ردّ فعل عنيف ضد تربيتهم، لدرجة أنهم يصبحون أكثر الآباء تقليدية واستبدادية. ومشكلة متى وإلى أي مدى يمكن أن نترك الأطفال بلطف وأمان لرغباتهم الخاصة، وكم يحتاجون إلى التوجيه والأمر، هي أصعب جزء في الحكمة الأبوية. وقد قال الأمير بيتر كروبوتكين عن الأطفال، وهو مفكّر واسع الاطلاع

وذو حكمة وطيبة تفوق المعدل: «يمكنك مراقبتهم فقط»، ولو كانت والدتي قد فكرت في الموضوع، لربما قالت: «يمكنك التصرّف بطريقتك واترك الأطفال يتصرفون كما يحلو لهم». لكن ليست هناك طريقة مجربة. يختلف الخط الفاصل بين الوصاية والتفكير الحر من فرد إلى آخر. حتى ضمن نفس العائلة، قد لا يفعل أحد الأطفالِ شيئًا حتى يؤمر إلى أن يبلغ سن الرشد، حينها يفعل ما يفعله الآخرون. بينما قد يكون لهذا الطفل أخت أو أخ عصيّ لا يمكن السيطرة عليه، وأما تتولى أمره الشرطة كمجرم أو يُسمح له بممارسة التفكير الحر كعبقري.

الدرجات بين هاتين الحالتين من التطرف الشديد مايكرومترية، إذ لا يمكن السيطرة على الطفل بصورة كاملة لدرجة سلبه إرادته، ستكون المهمة عسيرة وفوق طاقة احتمال أي والدين. لكن إذا تُرك الطفل يفعل ما يحلو له متى ما شاء وفي أي عمر، سيبتلع أعواد الثقاب أو يضرم النار في المنزل ومن فيه، وقد يرفض تعلم الأبجدية وجدول الضرب. وبشكل عام، من الأسلم تفويض تعليم الطفل إلى مدرسة تقليدية، كتعليم فولتير بالنسبة إلى اليسوعيين، ونتركها تؤثر بقوتها الخاصة عوضاً عن المخاطرة بأن يتعلم الطفل بصعوبة في عامه السادس عشر ما كان يمكن أن يدرسه بسهولة في عامه السادس. يجب أن تؤخذ الاحتمالات على أيّة حال. لا يمكن تدريب طفل في أوروبا ليحصل على مرتبة أعلى من كرسي البابوية. ولكن قد يُسأل مدربه: «أيُّ بابا؟ غريغوريوس الكبير أم ألكسندر بورجيا؟ بيوس التاسع أم ليو الثالث عشر؟».

وقد يكون الهدف بالأحرى تقديم مواطن عظيم متحضّر. وإذا كان

الأمر كذلك، فستبقى احتماليات النتيجة متعادلة، إما كسيدني ويب[1] وإما باكونين[2].

لم يسأل والداي ولا أساتذتي في المدارس أنفسهم مثل هذه الأسئلة، ولو لم أكن ذا حظ نادر لأكسب المال ككاتب مسرحي بالفطرة، لانتهى بي المطاف متشردًا. كان عليَّ أن أُعلّم نفسي لاحقًا ما كان من المفترض أن أتعلمه في صباي. وكان عليَّ نسيان أفكار كثير مما تعلمته ونبذها جانبًا. لذا لا يسعني إلا أن أكرّر أنه من الصعب العثور على الحد الفاصل بين الوصاية والتفكير الحر، وليس كما يجب أن يكون القانون، هو نفسه بالنسبة إلى الجميع.

ومع ذلك، يجب أن يكون هناك قانون في العائلات الكبيرة وفي جميع المدارس. وهذا يعقّد المشكلة إلى ما هو أبعد من أي حل جاهز يمكنني اقتراحه. فالمدارس في الوقت الحاضر تتسبب في فوضى أسوأ من المنازل. وبينما أكتب الآن، أمامي رسالة من فتاة صغيرة ذكية في مدرسة الدير الأيرلندية، أدرجَت لي بفخر قائمة دروسها التسعة المتزامنة بلغات وفروع تعليم مختلفة، يستلزم اكتسابها جُلَّ وقت الطالب لعدة أشهر بالنسبة

(1) سدني جيمس ويب (1859 ـ 1943): أول بارون لباسفيلد، وقد كان اشتراكيًا واقتصاديًا ومصلحًا بريطانيًا ومؤسسًا مشاركًا لكلية لندن للاقتصاد. وهو أحد أوائل أعضاء جمعية فابيان التي تأسست في عام 1884، الذين انضموا إليها، مثل جورج برنارد شو، بعد ثلاثة أشهر من بدايتها.

(2) ميخائيل باكونين (1814 ـ 1876): فوضوي ثوري روسي، يعتبر مؤسسًا للفوضوية الجماعية (الأناركية). وهو من بين الشخصيات الأكثر تأثيرًا في الأناركية ومؤسس كبير للتقاليد الأناركية الاجتماعية. مكانة باكونين بصفته ناشطًا جعلته أيضًا أحد أشهر الأيديولوجيين في أوروبا، واكتسب نفوذًا كبيرًا بين المتطرفين في جميع أنحاء روسيا وأوروبا.

إلى نيوتن الناشئ. هذا المنهج يتركني عاجزًا عن الكلام. ومع ذلك، لا يجب الاستدلال على أنني أؤيّد الذين يحرّضون ضد ما يسمونه الضغط التعليمي المبكر. فقد علَّمَ جيمس ميل ابنه جون ستيوارت ميل اللغات الكلاسيكية الميتة منذ طفولته. وقد سمعت أنّ وليام موريس ندّد بجيمس باعتباره وحشًا، لكنني لست متأكدًا من ذلك، جون نفسه لم يكن متأكدًا. أنا لا أدافع عن الافتراض الحالي في المدارس العامة البلوتوقراطية بأن الرجل يتعلم عندما يستطيع قراءة اللاتينية وحلّ المعادلات التربيعية. من الواضح أنه قد يكون قادرًا على فعل الأمرين ويظل جاهلًا بشكل خطير كمواطن. وفي الغالب، عندما يكون مكتظًا ومُدربًا للحصول على شهادة جامعية بناءً على هذا الافتراض، قد لا ينظر أبدًا إلى صفحة لاتينية أو يفكر فيها من دون الشعور بالكراهية، ولا يحتفظ بحساباته إلا في أبسط صورها الحسابية. ومع هذا، فأنا أواجه حقيقة ثابتة مفادها بأن معظمنا، بما في ذلك أنا، لا يتذكّرون سوى النماذج التي تعلمناها في طفولتنا، مهما حاولنا فلسفتها بعمق في حياتنا اللاحقة.

لا تزال جداول الضرب والعملات التي تعلّمتها قبل أن أبلغ السادسة، وتصاريف الأسماء والأفعال اللاتينية التي تعلمتها قبل أن أبلغ العاشرة، محفورة في ذاكرتي حتى بعد أن بلغتُ الثانية والتسعين من عمري. في حين أن جهودي كرجل بالغ في حفظ نماذج مماثلة في اللغة الحديثة قد باءت بالفشل، وإني أنصح الذين يدرسونها ألّا يضيعوا وقتهم في محاولة حفظ الأفعال الشاذة (الإسبانية على سبيل المثال) وإنما أن يتحدثوها بشكل منتظم. قد يضحك الإسبان من كلامك، لكنهم سيفهمون قصدك؛ وهذا هو المهم. وحين يقول طفل إنجليزي (أنا فكرت I thinked) و (أنا

ذهبت I goed) فكلامه مفهوم كما يقول (أنا فكرت I thought) و(أنا ذهبت I went).

إن اللغة الإنجليزية المُبسطة مفيدة كلغة ميلتون بل وأكثر إيجازًا منها. وهوسنا الدائم بمعايير الصواب يدفعنا إلى اعتبار أي خروج عنها انحرافًا أخلاقيًا يُعاقب عليه القانون. فتضيع سنواتٌ من أعمارنا. وعلى الرغم من ذلك، تُفتح طرق عديدة أمامنا فنرفض التحرّك حتى يميز هذان الطريقان بالصواب والخطأ، وبكون الصواب أصعب ما يمكننا فعله والخطأ الأسهل والأقصر.

- 4 -

العار والتَّنفُجيّة المجروحة
سرّ حفظته لثمانين عامًا

أعترف الآن بحادثة عرضية وقعت في صباي سابقًا كانت بغيضة لدرجة أني لم أذكرها لمخلوق لثمانين عامًا، ولا حتى لزوجتي. وهي بالنسبة إليّ كمستودعات الدهان الأسود لديكنز. ويمكن أن نحسب خجله الشديد من هذهِ الحادثة العرضية على أنه تنفُجيّة[1] طبقية. ولفترة من الوقت بغضت سرّي المقيت، ولكن في الواقع، كان أكثر توجيهًا ويشرح رفضي المطلق للخطة المقبولة توفير التعليم الثانوي عن طريق إرسال الفائزين البروليتاريين في منَح دراسية إلى المدارس العامة المملوكة (أو هكذا يسمونها) والاستحواذ عليهم لخدمة الطبقة الرأسمالية بعد أن يتشربوا النظرة الرأسمالية للمجتمع بدقة.

غالبًا ما يكون البروليتاري الذي رُفِّع إلى هذهِ الدرجة أكثر رجعية من رابطة المدرسة القديمة[2]. وحكمي أنه يجب إرسال أطفال البروليتاريين

(1) التَّنفُجيّة: هي أسلوب النَفّاج؛ وهو الشخص الذي يتفاخر بما ليس عنده وما ليس فيه، والمتكبّر على من يظنهم أدنى منه.

(2) المدرسة القديمة Old School: جماعة المحافظين أو المتمسكين بالقديم.

إلى مدارس ثانوية بروليتارية عامة حقيقية، وأن تواصلهم مع الشباب الأيتونيين، والهاروفيين، وأولاد وايكام، والرجبيين، يجب أن يقتصر على شجارات الشوارع فيما بينهم. ويجب أن تُعرض رابطة المدرسة القديمة للمدرسة البروليتارية بفخر وأن تكون موضع اعتزاز وحرص مثل أي رابطة رأسمالية، وأن تُمنح درجةً عاليةً من التثقيف. وإنني أستند في هذا الاستنتاج إلى الخبرة التي أُقرُّ بها الآن لأول مرة.

أخذت أول دروسي في اللغة اللاتينية في الفترة بين تعلمي القراءة والكتابة على يد مربيتي (وقد علمتني جيدًا) ودخولي إلى المدرسة، بصورة خاصة في منزل عمي بالمصاهرة الكاهن ويليام جورج كارول، حيث جلست مع ولديه وتعلمتُ تصريف الأسماء وتصريف الأفعالِ والأفعال الشاذة بسهولة، لدرجة أني حين دخلت المدرسة التي تسمّى الآن كلية ويسلي، وكانت تُعرف باسم المدرسة الويسلية الجامعة، أصبحت الأول على صف اللغة اللاتينية للصغار على الفور.

لم أتعلم شيئًا من المناهج الدراسية في المدرسة، وفي النهاية نسيت قدرًا كبيرًا مما علّمني عمي، مع أن المدرسة التي تُعدُ تحضيرية للجامعة بشكل متبجّح، لم تأخذ أيّ مواد على محمل الجدّ، عدا اللغة اللاتينية والإغريقية، بحجة الرياضيات (الإقليدية) والتاريخ الإنجليزي (وأغلبه خاطئ ومُغرض)، والجغرافية الشكلية التي لا أتذكّر منها شيئًا. كانت الصفوف كبيرة والمعلمون غير مدربين على أصول التدريس، أغلبهم يكسبون قوتهم في طريقهم ليُصبحوا قساوسة ويسليين.

لم يقولوا لنا أية كلمة عن معنى الرياضيات وفائدتها، بل طلبوا منّا ببساطة أن نبيّن كيف يمكننا بناء مثلث متساوي الساقين من تقاطع دائرتين، وأن ننفذ

عملية الجمع باستخدام (أ، ح، هـ) بدلًا من البنس والشلن، وتركوني غارقًا في جهلي، لدرجة أني استنتجت أن (أ) و (ب) يعنيان بيضًا وجبنة و (هـ) لا يعني شيئًا. وكانت النتيجة أنني رفضتُ الجبر وكرهته على أنه هراء، ولم أُغيّر هذا الرأي حتى أواخر العشرينات من عمري، حين أقنعني غراهام والاس وكارل بيرسون، بأنهم بدل أن يُدرسوني الرياضيات صيروني أحمق فيها.

لم يُزعجني إقليدس، ولم يُزعجني جسر الحمير[1]، وعلى الرغم من أنني كنتُ كسولًا فإنني توقعت أن أُبلي بلاءً حسنًا في الامتحانات. ولسوء الحظ، جاءت أسئلة الامتحان ولم تُذكر فيها المسائل بل أرقامها في الكتاب المنهجي الذي لم أعرف عنه شيئًا، لأني التقطتُ كل الإجابات من الصف. وهكذا، فشلتُ فشلًا ذريعًا.

في الأدب فقط، أثبتت المدرسة ادعاءها بأنها تنبّأت بشهرتي المستقبلية حين طلبوا منّا كتابة مقالات، وحصلت على المركز الأول لكتابتي مقالة منمقة التفاصيل عن بركة ليفي تحت الجسور، لكن لم يرافق هذا الفوز جائزة ولا أهمية جدية ولا لأي موضوع آخر سوى اللاتينية.

كانت هناك طريقة واحدة للتدريس؛ بدلًا من أن يسأل التلميذ ويجيبه المعلم ويشرح له، كان المعلم يطرح الأسئلة. وإذا لم يتمكّن التلميذ من إعطاء إجابة الكتاب؛ يحصل على علامة سيئة، وفي نهاية الأسبوع يكلفه التكفيرُ عن ذلك تحمّله ما لا يزيد عن ست «ضربات خفيفة» (صفعات على راحة اليد بالعصا) والتي لم تكن مؤذية ولم تزدني إلا قناعة بأن العقوبة البدنية لكي تكون فعّالة يجب أن تكون قاسيةً.

(1) جسر الحمير: القضية الخامسة من هندسة إقليدس القائلة بأنه إذا كان للمثلث ضلعان متساويان فإن الزاويتين المتقابلتين لهذين الضلعين تكونان متساويتين أيضًا.

بعد بضع سنوات من هذا السجن الذي على الرغم من أنّ تعاليمه التربوية باطلة، فقد أنقذني لنصف نهار من بين براثن والديّ في المنزل، امتحنني عمي الكاهن ووجد أني لا أتعلم شيئًا ونسيت ما علمني إياه؛ أخرجوني من المدرسة الويسلية وأودعوني مدرسة خاصة جدًا في غلاسثيول، وهي منطقة تقع بين كينغستاون ودالكي؛ تديرها عائلة تدعى هالبن. ولكن هذا انتهى أيضًا حين عاد والديّ من عطلتهما في دالكي (تُلفظ داوكي) إلى دلبن.

ثم جاءت مأساة تَنفجيّتي. كنت قد وصفت في أماكن أخرى أن منزلنا كان مشتركًا مع جورج جون فاندلير لي؛ قائد الأوركسترا الساحر ومعلم غناء مبتكر بجسارة، كان مدرب والدتي الموسيقي وزميلها، ولم يفكّر والداي في ما إذا كنتُ أتعلم شيئًا أم لا، شريطة أن أذهب إلى المدرسة وفقًا للعُرف السائد. لكن لي، على الرغم من انشغاله الدائم بالموسيقى، فكّر في أنه يجب فعل شيء ما حيال الأمر، إذ من الواضح أني لا أتعلم شيئًا سوى ما كان من الأفضل ألّا أتعلمه.

وقد صادف أنه في نفس هذهِ الفترة كان قد تعرف للتو إلى السيد بيتج؛ أستاذ مادة الرسم في المدرسة المركزية النموذجية للبنين في شارع مارلبورو، وهي مدرسة لا دينية وعادية غير مصنفة من الناحية النظرية، لكنها في الحقيقة مدرسة كاثوليكية رومانية، يجلب فيها الأولاد الذين لوالديهم القدرة على دفع خمسة شلنات للمدرسة بشكل دوري، ويُضربون بالعصا بنفس طريقة المدرسة الويسلية عندما يرسبون. كان المكان ضخمًا يحوطه سياج لا يمكن تسلّقه ولا اختراقه، وبوابات كان من الأفضل أن يكتبوا عليها «يا أيها الداخل هنا، اترك وراءك كل أمل».

لهذا، فأن يجتاز ابن تاجر بروتستانتي وابن إقطاعي هذهِ القضبان أو

أن يرتبطا بأي شكل من الأشكال مع مضيفيهما من أبناء الطبقة المتوسطة الدُنيا الكاثوليكيين، أبناء أصحاب المتاجر الصغيرة والتجار، كان شيئًا لا يمكن تصوّره من وجهة نظر آل شو.

لكن بيتج أثار إعجاب لي بتدريسه، بقدر ما استمرّ، الذي كان ماهرًا وحقيقيًا. ثم إن المدارس الخاصة الأرخص تكلفة كانت أسوأ من عديمة الفائدة. لذا أرسلوني إلى شارع مارلبورو، وفقدت ميزة طبقتي الاجتماعية على الفور وأصبحت صبيًا لا يتكلم أو يلعب معه أي شاب نبيل بروتستانتي. ليس داخل السور، هناك كنت كائنًا متفوّقًا، وفي ساعة اللعب لم ألعب بل كنت أتمشى ذهابًا وإيابًا مع المعلمين في تنزههم المتحفظ.

لكن هذا لم يدم طويلًا، ففي عام 1869، حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، وبعد أن امتدّت معاناتي من فبراير إلى سبتمبر، عارضتُ مصيري للمرة الأولى، ورفضت بشكل قاطع العودة إلى المدرسة النموذجية تحت أي شرط. ووالدي الذي كان يخجل من الموضوع بقدري، وأقل حزمًا مني، سمح لي بالحصول على ما أريد. عدتُ إلى البروتستانتية المميزة كما ينبغي في مدرسة نهارية تابعة للجمعية المتحدة لتعزيز المدارس البروتستانتية في أيرلندا، التي تقع في شارع آنغيُر (وتلفظ آنيَر) وتسمى مدرسة دبلن الإنجليزية العلمية والتجارية النهارية. وقد أُغلقت عام 1878. كان هذا آخر سجن لي في المدرسة. تركتها عام 1871، لأصبح، وأنا في الخامسة عشرة، موظفًا مبتدئًا في مكتب عقاري أنيق رفيع المستوى، يعج بمتدربين لدفع أقساط التأمين، وهم في الغالب من خريجي الجامعات. كانوا مستوفين تمامًا معايير شو في اللباقة الاجتماعية، وكانوا يخاطبونهم بـ (أستاذ)، بينما كنت (شو) ببساطة.

كانت فاتورة مدرستي في شارع آنغيُر ربع جنيه إسترليني بالإضافة إلى أربعة شلنات للرسم، وهو مبلغ إضافي، وكان المبلغ الإضافي الوحيد الذي فكر والداي في دفعه. لم يتظاهر أستاذ الرسم بالتدريس أو حفظ النظام. وكان رجل دين يعقد فصلًا عن الكتاب المقدس مرة واحدة في الأسبوع، ومارسنا عليه كل أنواع الحيل ولم يحلم قط بأن نأخذ الدين على محمل الجد.

لستُ واثقًا من كونهم إنْ وصفوا لي مدرسة شارع مارلبورو على أنها مدرسة نموذجية تجريبية للتلاميذ، لا مدرسة «لعامّة الناس» العاملين، بل لأبناء أصحاب مصدر الدخل البسيط الذين يعملون في تجارة التجزئة بدلًا من تجارة الجملة، كاثوليكيين أو بروتستانتيين، ربما لتجنّبت كل إحساس بالعار شعرتُ به؛ لأني كنتُ ثائرًا بالفعل على تَنفُجيّة آل شو، وكنتُ واعيًا لحقيقة أن خياط والدي كان لديه منزل ريفي في دالكي، ويخت في دالكي ساوند، وبإمكانه تحمّل تكاليف إرسال أبنائه، الذين يرتدون ملابس أفضل وأكثر ترتيبًا مني، إلى المدارس الإعدادية باهظة الثمن وإلى الكلية، وأن يُصنّف على أنه أدنى اجتماعيًا من والدي المفلس، الذي لم يدفع فواتيره أبدًا في الموعد المحدد، كان ذلك سخيفًا بالنسبة إليّ في سن الثالثة كما هو الآن في وأنا في عقدي التاسع.

بعيدًا عن كوني متعصّبًا بروتستانتيًا، فقد كنت صبيًا ملحدًا وفخورًا بذلك، بعد أن تخلّيت عمدًا عن الصلاة باعتبارها ممارسة غير عقلانية. وقد شفتني الأنشطة الموسيقية لوالدتي من التحيّز الاجتماعي ضد الروم الكاثوليك وكذلك من اعتقادي المغروس بأنهم سيذهبون إلى الجحيم

بعد موتهم. كان ميولي السياسي فيني[1] صريح، ولم أكن لا عقلانيًا بل على العكس تمامًا، كنت منفتحًا كثيرًا على العقل والمنطق.

ومع ذلك، فإنّ الحقائق عصّية. لن تتمازج الطبقات. وحدها الزيادة الكافية في الدخل قادرةٌ على دمج الطبقات وكسر التميز الطبقي، وفي صباي لم تُطبق هذهِ بعد. وقد حصل هذا حين أصبحت الإيرادات كبيرة، بعد سنوات عدّة من هجري المدرسة النموذجية. دُعيتُ في أحد الأيام إلى الغداء كضيف شرف في منزل الفيكونت باورسكورت؛ وهو أرستقراطي بين الأرستقراطيين الأيرلنديين، ودُهشتُ حين غادرت ابنته الحفلة مبكرًا للذهاب إلى دبلن، وقد شرحوا لي معتذرين أنّها اضطرت إلى القيام بذلك لأنها كانت مدعوّة في ذلك المساء إلى حفلة راقصة في منزل السير جون أمووت، صاحب متجر ضخم في دبلن؛ ففي زماني، لم يكن بإمكانها التحدث إلى صاحب متجر إلا عبر منضدة الدكان، من دون أن تُنبذ تمامًا كما حصل معي عندما وُضعتُ في المدرسة النموذجية، من دون أن أعرف أنها كانت مدرسة نموذجية، ولخطأي ظننتها عامة «المدرسة الوطنية» للمعوزين وأصحاب الدخل الأدنى. لكن لم يشرح لي أحدٌ هذا أبدًا. لم يُشرح لي شيء! بل اكتشفته بنفسي منذ ذلك الحين.

---

(1) الفيني: عضو في منظمة قومية ثورية في القرن التاسع عشر تسمّى (الحركة الفينية) بين الأيرلنديين في الولايات المتحدةِ وأيرلندا. غرضها تحرير أيرلندا من الحكم الإنجليزي في أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر، حين بدأ الوطنيون الأيرلنديون تحت اسم الفينيين بالتخطيط للثورة من أجل الاستقلال. وقد لُقِّبوا بذلك نسبةً إلى فيانا، وهي فرقة أسطورية من المحاربين الأيرلنديين. وقاموا بتمرّد غير ناجح في أيرلندا عام 1867 وكانوا مسؤولين عن أعمال ثورية منعزلة ضد البريطانيين حتى أوائل القرن العشرين، حتى حُجبوا تدريجيًا من قبل الجيش الجمهوري الأيرلندي.

لماذا تُحيقني المدرسة النموذجية بعارٍ لا يعدو أن يكون ذُهانًا لا أكثر. ذكرتُ في مكان آخر أن كرهي الفقر والبؤس وأنواع الحيوانات البشرية التي يُنتجانها لم أكتسبه في المدرسة النموذجية حيث لم يكن الأولاد أسوأ ملبسًا ولا مأكلًا مني، وإنما في الأحياء الفقيرة التي أخذتني إليها مربّيتي في زياراتها إلى أصدقائها، في حين كان من المفترض أن تأخذني لأتمرن في الحدائق. كرهت هذه التجارب بشدة. فطبيعتي الفنية، التي كان الجمال والتهذيب ضروريين لها، لن تقبل الفقراء كزملاء، ولا المساكن العشوائية كمكان مناسب للسكن البشري. بالنسبة إليّ كانت أماكن لا يمكنني العيش فيها.

هكذا بلغت العملية الذهنية ذروتها بعد مرور خمسين عامًا في مسرحيتي الميجور باربرا *Major Barbara*، حيث يلفظ القديس المليونير آندرو أندرشافت متوعّدًا عقيدته القائلة بأن الفقر ليس العقاب الطبيعي والصحيح للرذيلة، بل جريمة اجتماعية مقارنةً بجرائم القتل المتفرّقة والسرقات التافهة. وفي وقت لاحق، أبدى صديقي عالم الجراثيم السير آلمورث رايت رأيه باستخفاف أنه يعتقد بأنّ تأثير التطهير في القضاء على المرض هو جمالي بحت، وقد اتفقت معه بحماس شديد وأكدتُ له أنه توصّل إلى اكتشاف سيحجُب جميع مساهماته الشهيرة في التاريخ الطبيعي للميكروبات.

وأخيرًا، نقطة ليشطبها محللونا النفسيون، على الرغم من أني ولثمانين عامًا لم أستطع حمل نفسي على ذكر فترة حياتي في شارع مارلبورو، ولكن الآن بعد أن تجاوزت عادة الصمت المخزي، لم أزحه عن صدري فقط بل وعقلي كذلك، فقد شُفيتُ تمامًا، ولم يبقَ أثر لعاري الصبياني، ولم يبقَ كمجموعة معقدة بل كعادة تنقر بخفة من دون عناء.

هذا يوضح فشل العلاج النفسي ونجاحه، فالعادات المحفورة في الذهن نتيجة صدمة عاطفية قابلة للشفاء، على خلاف العقد الوراثية. وإذا قيلت للطفل أيّة قصة، مهما كانت سخيفة أو مستحيلة، بواسطة شخص يعتبره معصومًا (الوالدان في الأغلب) فإنه سيقبلها كحقيقة إنجيلية ويحتفظ بها من دون تفكير حتى يحصل شيءٌ يدفعه إلى التفكير في ذلك، وقد لا يحدث هذا أبدًا. عندما أخبروني بأن السيد هوتون الذي كان يزورنا موحّد، سألتُ والدي ما معنى موحد، فأجابني بفكاهة: إن الموحدين يعتقدون بأن يسوع لم يُصلب بل شوهد يركض هاربًا في الجانب الآخر من تلة الجُلجُلة. وقد صدّقت ما قال لقرابة ثلاثين عامًا.

لازمتني أخطائي الطفولية كنكات والدي. فخطأي في استخدام رموز جبر المدرسة (أ، ب، هـ) للبضائع بدلًا من الكميات كان واحدًا منها. عقول الناس مليئة بهذهِ الأمور الناجية من طفولتهم، وحين يقررون أن يتخلّصوا منها (إن حصل هذا فعلًا) فإنهم يميلون إلى تخيّل أن الحقائق التي يبنون عليها تغيير رأيهم جديدة عليهم، في حين أن أغلب هذه الحقائق تحدّق في وجههم طوال حياتهم. وكذلك عندما تخلّيت لأول مرة في طفولتي عن إيماني المغروس بأن الكتاب المقدس كان كلمات مستوحاة حرفيًا أملاها إله مجسم معصوم عن الخطأ وعالم بكل شيء. تأثرتُ بعلمنة العهد القديم، لا الجديد، وكنتُ أنا من تغيّر لا الدليل. وفي الحاضر، فإن الحقيقة الدامغة هي أن يهوه كان معبودًا قَبَليًا همجيًا يختلف عن يسوع «أبانا في السماء»، ولم يمنع هذا من أن يسمّي المسيحيون يهوه ويسوع بـ الإله القادر على كل شيء بصورة عشوائية.

الآن بعد أن تخرج العديد من الوزراء ووزراء الخارجية من المدارس

البروليتارية غير المحترمة، قد لا يكون من السهل على القرّاء الإنجليز والاسكتلنديين والأمريكان فهم لماذا كان يجب أن أعتبر المدرسة النموذجية ذنبًا سريًا. ولكن حيث يوجد فقر، لا يوجد حتى الآن أي تغيير. يبقى العمال الحرفيون والسادة جنسَيْن مختلفين تمامًا. وكان الوضع أسوأ بكثير حين ولدتُ في أيرلندا. كانت عربات السكك الحديدية مقسمة إلى الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ولا يُسمح للسيدات والسادة بالسفر في الدرجة الثالثة. ولم يكن هناك وسائد ومُتَّكَآت في الدرجة الثالثة، ويُدخّن رجال هذهِ الدرجة لفائف الشعير وينفثونه في جميع الاتجاهات، ويرتدون سراويل قصيرة مقيدة من الركبة، وقمصانًا بلا ياقات لم تُغسل لفترة طويلة، لدرجة أن رائحتها العفنة وصلت إلى أنوف من في الدرجة الثانية وأتلفتها.

لا أحد منهم يقرأ أو يكتب، وبالنسبة إليهم كانت المدرسة النموذجية جامعة أرستقراطية من الطبقة المتوسطة تتجاوز أقصى تطلعاتهم الاجتماعية. في المدينة، كانوا يعيشون في مساكن عشوائية، وفي الريف، يتشاركون مع ماشيتهم السكنَ في مقصورات ذات أرضيات طينية أو يؤجرون بيوت البقر المتداعية. ومدارسهم، حين يكون لديهم أي منها، تسمّى مدارس المُعدمين، أما نساؤهم فيرتدين أحذية وجوارب فقط في المناسبات العظيمة عندما يذهبن إلى سوق خيرية أو قدّاس ديني. ومع ذلك كانوا بشرًا، وأحيانًا بدرجة القداسة، ومقسمين كذلك إلى فئات من النبلاء الطبيعيين وأبناء المدينة الطبيعيين مثل مجلس اللوردات. وكانوا مغرقين بتنفُجتهم الطبقية، كما يعلم أولئك الذين حاولوا إنشاء معاهد نسائية في القرى الإنجليزية ووجدوا أن أيًا من النساء لن تعتبر الأخرى نظيرًا اجتماعيًا لها.

لكن يجب أن أكرّر، أن مثل هذهِ العلوم الإنسانية المشتركة لم تجعل الطبقات قابلة للتعايش. ففي أي منزل كبير بما فيه الكفاية ليحتوي على مطبخ وغرفة رسم وكلب كحيوان أليف يتصرف وكأنه في بيته مثل الخدم مع مستخدميهم، بينما تكون الحيوانات البشرية معزولة تمامًا عنهم. ولدتُ في بيت فيه مطبخ وغرفة رسم وعلى الأقل خادم واحد تُدفع له ثمانية جنيهات نقدًا في السنة، ينام في القبو.

هكذا فإن التمييز الطبقي المتطرف، مهما تغيّر من خلال تقدّم الاشتراكية، لا يزال متفشيًا. ففي البلدان التي تكون فيها الغالبية العظمى للبروليتاريين من أصحاب البشرة السوداء أو البنية أو الصفراء، لا يوجد ادّعاء بالمساواة ولا حتى التشابه بين البشر. وأنا أصرّ على أن إصلاح الأمر لا يتم عن طريق إجبار جميع الشرائح أن تندمج في المؤسسات الاجتماعية القديمة، وإنما مواجهة حقيقة فصلها والتسامح مع المدارس البروليتارية ومدارس الطبقة المتوسطة الدُنيا والمدارس الإيتونية الطبقية وسيارات جيم كرو وما شابه ذلك.

مع اختلاف أنه في حين أن الترويج الاجتماعي يُنظر إليه الآن على أنه مسألة تمكين الفائزين في المنح الدراسية من مجلس المقاطعة والكلية متعددة الفنون من اقتحام المحميات الإيتونية، يجب عليهم «الامتناع عن التواصل مع الآخرين» وتأكيد لا مساواتهم بل تفوقهم كأجناس مُختارة على كل أساس ممكن أو مزعوم. يجب أن يُصِّر الزنجي عليها، بعيدًا عن الاعتراض على سيارة جيم كرو، وعلى استبعاده من «البيض الفقراء»، ويجب على اليهود أن يواجهوا المُعادين للسامية، لا على قدم المساواة، بل كما واجه يشوع الكنعانيين ككائن متفوّق مُختار إلهيًا ليحكمهم.

سيُهذّبون أنفسهم وفق هذهِ الحدود فقط إلى الدرجة التي تُصبح فيها ذرائعهم سخيفة جدًا، وثقافتهم عامة ومتطابقة جداً لدرجة أن المساواة في التمازج ستوطّد نفسها، كما حصل هذا فعلًا حين علمت أن ابنة فيكونت أيرلندي تزور صاحب سلسلة محلات ضخمة أيرلندي.

وعلى الرغم من أنّ مدرسة المجتمع المندمج كانت رخيصة وبروتستانتية ومتكلّفة كالمدرسة الويسلية، إلا أنّها لم تتظاهر قط بأنها تحضيرية للتخرج من الجامعة، واستبعدت بصراحة الكلاسيكيات من مناهجها. كانت للطلاب الذين لم يتمكّن آباؤهم، مثل والدي، من إرسالهم إلى كلية ترينيتي، ولم يطمحوا إلى أكثر من تدريبهم، لا من أجل المنح الدراسية بل لمزاولة الأعمال. جلس ولدان أو ثلاثة أكبر سنًا منّي ممن يتمتّعون بكفاءة خاصة في الرياضيات المتقدمة، كلٌ على حدة، خارج الفصل، وعلّموا أنفسهم بأنفسهم؛ إذ لم يتظاهر أحد بتعليمهم. وكان مدير المدرسة يجلس في مكتبه ولا يحتكّ بالأولاد إلا عندما يُرسلون إلى هناك ليعاقبهم بالعصا. كان يُحضر نفسه بعُجالة لرسامة الكاهن في الكنيسة الأسقفية البروتستانتية في أيرلندا آنذاك، حتى يكون مؤهلًا «للتخفيف» حين فككها جلادستون. وأصبحت طريقة التدريس مشابهة للطريقة الويسلية من جديد.

بيد أني لم أكن نفس الشخص الذي كنته في المدرسة الويسلية، فقد حدث في داخلي النمو الطبيعي الذي وصفته في مسرحيتي (الإنسان والسوبرمان *Man and Superman*) بأنّه ولادة العاطفة الأخلاقية. ففي المدرسة الويسلية، لم أحلم قط بتعلّم دروسي، ولا قول الحقيقة لهذا العدو المعروف والجلاد؛ مدير المدرسة.

بدأ تحرّجي في المدرسة النموذجية في شارع آنغيُر حين أصبح الكذب دون مستوى كرامتي الأخلاقية الجديدة كرئيس طلاب، وهو منصب تشاركته مع زميل لي يُدعى دان، كان طالبًا معي في المدرسة الويسلية كذلك، وقد طوّر نُضجًا عقليًا مبكرًا رائعًا، لدرجة أنّه حين كان في السادسة عشرة من عمره تقريبًا، كان له سلوك ووطأة أخلاقية كما للأسقف. لذا، عليّ أن أحفظ مفخرتي بآدائي واجباتي الدراسية (التافهة للغاية) بما يُمليه عليَّ ضميري.

صادفتُ تصادمًا وحيدًا مع قواعد سلوك المدرسة؛ ارتكب أحدهم جنحة، وحين بدأ المدير يسأل، لمعرفة من يعاقب، كلَّ صبي على التوالي ما إذا كان الجاني، رفضت الإجابة على أساس أنه لا أحد ملزم قانونيًا بتجريم نفسه وأن الاستجواب كان بمثابة إغراء للأولاد بالكذب. مرّ يوم أو يومان وكان من المفترض أن يُحكم عليّ بعقوبة مروّعة مناسبة، لكنني لم أسمع شيئًا عنها. كان الوضع جديدًا على أعضاء الكادر التدريسي، وعندما لا تعرف السلطات ما يجب فعله، عادة ما تلجأ إلى ما تمّ فعله في المرة السابقة. ولأنني قمت بشيء غير مسبوق؛ لم تفعل شيئًا. ولم يكن هناك مزيد من الاستجوابات. كان هذا أول إصلاح لي.

وفي المدرسة النموذجية التي أكدتُ نفسي فيها مسبقًا باتجاه آخر، تجاهلت دروس القراءة في تاريخ أيرلندا ومجّدت إنجلترا. وكنت أستبدل أيرلندا بإنجلترا في مثل هذه القصائد الحماسية دائمًا. تساءل الأولاد عما سيحدث لي، لكن المدرس كان يبتسم دون التفوّه بشيء. في الواقع، كنت شابًا فينيًا في تعاطفاتي السياسية، كما كانوا.

وهناك حادثة أخرى في شارع آنغيُر. بسبب مرض مفاجئ لزوجة مدير

المدرسة؛ تُرك فصلنا الدراسي لأكثر من ساعة من دون رقابة الأستاذ، الذي أمرنا بألّا نُحدث جلبة. بقينا هادئين لقرابة الدقيقة ثم بدأنا نصيح بصخب ووحشية، ونكسّر كل شيء قابل للكسر في الغرفة، وقد فعلتُ ما فعله البقية.

ولم تَغب عن مخيلتي تلك التجربة. وقد رأيتُ بعد سنوات عدّة الشيء ذاته يحصل مرتين بين البالغين. مرة حدث لرفيق من ركاب الدرجة الأولى على متن سفينة رُكّاب، ومرة أخرى في جمعية فابيان (الفابية). ولم تفاجئني رؤيتها مصورة في فيلم تعليمي روسي. علمتني كيف أن قشرة الحضارة البرجوازية رقيقة، ولماذا أنا (لستُ أكثر من شكسبير وديكنز) يمكن إقناعي بأنه من دون قادة وحُكام حقيقيين، يمكن تحقيق الحضارة الديمقراطية تحت ذريعة الحرية من خلال التصويت غير المحدود لنكرات غير مؤهلين تنتخبهم مجموعة من غير المتعلمين سياسيًا، حتى عندما كان أول النكرات المنتخبين هم نابليون، ومن المرجح أنهم لن يكونوا هتلر فقط.

- 5 -

صباي في المكتب

في أوبرا جيلبرت وسوليفان *Gilbert and Sullivan*، يخبرنا فتى مكتب بريطاني كيف نظّفَ النوافذ ومسح الأرض ولَمَع مقبض الباب الأمامي الكبير. لم أفعل شيئًا من هذا القبيل. عملتُ في مكتب شركة عقارية أيرلندية رفيعة المستوى (في ذلك الوقت، صنّفت وكالة العقارات كمهنة في أيرلندا). ولولا رسالة من عمي فريدريك؛ رئيس مكتب تقييم الأراضي، ولو لم يتدخل وكلاء العقارات ذوو النوايا الحسنة لاعترضتني عقبات كثيرة. لم أتمكّن من الانخراط في أي نوعٍ من الأعمال اليدوية، وكنت أُسمّي نفسي موظفًا مكتبيًا مبتدئًا. ومقابل ثمانية عشر جنيهًا، كنت أحفظ الرسائل الواردة في إضبارات وأجدها حين يُطلب مني ذلك. وآخذ نسخًا مطبوعة للرسائل الصادرة في آلة مطبعة النسخ قبل إيداعها في البريد. والحساب الوحيد الذي أحتفظ به هو حساب البريد.

كنتُ فتى المأموريات وتوصيل الطلبيات، كنتُ أنقل عقود الإيجار إلى الجمارك لتُختم، وقد عانيتُ كثيرًا من ممارسات مكتب الموارية[1] اللا

(1) مكتب الموارية Circumlocution Office: هو مكان ابتدعه الكاتب تشارلز ديكنز في روايته دورريت الصغيرة Little Dorrit، ومكتب الموارية هو مكان لارتباك لا نهاية له، حيث يجب ملء النماذج لطلب إذنٍ لملء مزيد من النماذج.

أخلاقية التي قرأتُ عنها في رواية دورييت الصغيرة. كان غدائي بخمسين بنسًا، وحين كنت أذهب لشرائه، كنت أبتاع لباقي زملائي في العمل كذلك. لم تكن وجبة الغداء مهمّة في ذلك الوقت، في معظم الأحيان هي وجبة خفيفة لا أكثر. وفي مراحل لاحقة من حياتي واجهتُ ممثلين كبارًا لم يعرفوا شيئًا عن ذلك، ولم يتمكّنوا من فهم لماذا يجب مقاطعة التمارين بسببه أو لمَ يوقف الممثلون الشباب العمل من أجله.

لم يُشرح لي شيءٌ أكثر مما فعلوا في المدرسة، فحين يحيرني عمل غريب ويربكني يقولون لي: «انظر لما تم عمله في المرة السابقة». وله أُدين بمعرفتي بمدى ضرورة وجود دساتير سياسية في فترات طويلة بين الملوك القادرين أو القادة أو الديكتاتوريين حين لا تستطيع السلطات التفكير في أي شيء سوى استمرار روتين ثابت.

كانت لديّ قابليةٌ استثنائية للتعلّم والاستقراء من خلال التجربة. على الرغم من أني لم أعِ كونها نادرةً في ذلك الحين، ولم أعلّق على الأمر أية أهمية. لم أهتم، ولو قليلًا، بعملي في وكالة العقارات، لكنّي حفظت مجموعةً كبيرةً من الملاحظات التي أصبحت مفيدة عندما شرح لي هنري جورج أهميتها السياسية بالنسبة إليّ. في ذلك الوقت كنت ببساطة لا أحب العمل، ولم أفكر فيه من الناحية السياسية.

بعد نهاية عام تقريبًا، وُجِد مكانٌ شاغرٌ في أكثر منصب فعّال في المكتب؛ منصب أمين الصندوق. وبما أن هذا يشمل التعاملات المصرفية للعملاء، واستلام الشيكات اليومية وجميع أنواع الإيجارات والفوائد والتأمينات والتراخيص الخاصة ودفعها؛ فقد كانت وظيفة صاخبة وموضعًا للثقة أيضًا. حدث الشغور فجأة، لدرجة أنني اضطررت إلى سدّ الفراغ ريثما

يلتحق بالعمل أمين صندوق جديد بالغ وذو شخصية قوية. ولكن بما أنني لم أجد صعوبةً في القيام بالعمل، ونجحت في تحسين خط يدي الصبياني والمائل والمنتشر بغير انتظام أو اتّساق ليُحاكي خط يد الموظف السابق المنتظم، ومن ناحية أخرى، كانت مضاعفة راتبي (من 24 جنيهًا إلى 48 جنيهًا) خطوةً كبيرةً إلى الأمام؛ تأخر توظيف أمين صندوق بالغ في بادئ الأمر ثم أُلغي تمامًا. أثبتُّ كوني أمين صندوق ومحاسبًا مضبوطًا وأمينًا، وعلى الرغم من أني لم أعرف بالضبط مقدار المال الذي وضعته في جيبي لنفقتي الخاصة، لم أُخطئ، ولو بربع بنس، في حسابات المكتب. وهكذا، لم أعد صبي المكتب، أصبحتُ رئيس أمناء الصندوق، وأمين الصندوق الوحيد، مساويًا لأي أحد من الموظفين والعضو الأكثر فعالية ومسؤولية.

لكن قلبي لم يهوَ العملَ، لم أسدّد دينًا من دون أملٍ بألّا أضطرّ إلى فعل ذلك مرة أخرى، غير أنّي كنتُ خجولًا وينقصني حب المغامرة وجاهلًا في الأمور الدنيوية (مع أني أعتقد بأن لديّ شعورًا بكوني على العكس تمامًا من هذا)، وكل ستة أشهر أجدني أسدّد الديون من جديد.

من ناحية أخرى، ضمن لي المكتب مجموعةً من السادة المتدرّبين الذين دفعوا مكافآت ضخمة مقابل تعليمهم مهنة رفيعة المستوى، وقد تعلّموا القليل مقابل الأموال التي دفعوها، ما عدا نبذات عن الأوبرا التي علّمتهم إياها. أتذكر في إحدى المرات، عندما كان أحد المتدربين جاثمًا فوق المغسلة، يطلّ بوجهه من فوق الستارة التي تُغطّيها بحشمة، وقف ليؤدي مشهد أوبرا زنزانة برج مانريكو *Manrico's tower dungeon* وغنى (آه، إنّه الموت Ah, che la Morte) بشغف، لدرجة لم ينتبه إلى دخول زميله الأقدم، تشارلز يونياك تاونسن، الذي وقف يحدق بغباء إلى

الملامح التي تثغي من فوق الستارة، ثم هرع أخيرًا إلى الأعلى مصعوقًا من الموقف تمامًا.

وهكذا، أمضيتُ وقتًا ممتعًا في المكتب وحظيتُ برفقة رجالٍ جامعيين، لكنّي كرهت منصبي ومقتُّ عملي. وفي عام 1876 غادرتُ ورميت نفسي بتهور في لندن، وانضممت إلى والدتي هناك على الفور بعد وفاة أختي آغنيس في جزيرة وايت.

ربما يجب أن أذكر شيئًا أو اثنين: بعد وقت قصير من عملي في المكتب، حصل الاكتشاف المروّع، فبدلًا من أن أكون من روّاد الكنيسة البروتستانتية؛ كوني شابًا قدّمه مسؤول كبير في مكتب التقييم، كنت في الواقع ما كان يطلق عليه في تلك الأيام «كافر». حصلت نقاشات كثيرة، وكنتُ يافعًا وغير مدرّب أو مؤهل للجدال؛ فهُزمتُ هزيمةً نكراء. وقال همفري لويد (متدرب): «ما فائدة الجدال إن كنتَ لا تعرف ما هو القياس المنطقي؟»، ذهبت إلى القاموس وعرفتُ معناه، وتعلّمتُ مثل بطل موليير البرجوازي، واكتشفتُ أنّي كنتُ أقيس كل حياتي منطقيًا من دون أن أعلم!

حين وصل الموضوع إلى مسؤولي تشارلز يونياك تاونسن؛ إحدى دعائم الكنيسة وجمعية دبلن الملكية وكل شيء آخر مدعوم في دبلن، احترم حرية عقيدتي، لدرجة أنه لم يحاول أن يُقنعني بالمنطق ولم يتدخل في إيماني أو عدمه، لكنه طلب مني أن أعده بألّا أناقش هذا الموضوع في مكتبه. أعطيتهُ كلمتي خلافًا لرغبتي، والتزمتُ بوعدي، لا لأن رزقي كان على المحك (لم أتردد أبدًا في إغلاق منافذ الرجعة) بل لعلمي أنّي لا أنوي العيش تحت هذه القيود بشكل دائم.

جعلت هذهِ الحادثة من وكالة العقارات والحياة المكتبية أمرًا مستبعدًا بالنسبة إليّ كوظيفة جادة. بقيتُ خجلان من وعدي له، وحين أعطاني أرباب العمل توصيةً سخيةً بعد مغادرتي بطلب من والدي، شعرتُ بغضب غير معقول من أنه كان ينبغي تقديم مثل هذا الطلب. وأنا الآن في عام 1947 فخورٌ بهذهِ الوثيقة.

مع ذلك، لم أكن واعيًا بوضوح، في أي حال من الأحوال، بقيمتي وقدري. لكن، حدث ذات يوم أن علّق المبتدئ الذي غنى (آه، إنه الموت *Ah, che la morte*) بحماس شديد بأن كل صبي يعتقد أنه سيكون رجلًا عظيمًا. الصدمة التي أعطاني إياها جعلتني أدرك فجأة أن هذهِ حالتي، على الرغم من أنني لم أفعل شيئًا يعطيني أدنى سبب لتصنيف نفسي على أنني ولدت في التسلسل الهرمي لشكسبير، وشيلي، وموزارت، وبراكسيتليس، ومايكل أنجيلو.

بدا تظاهر كهذا من صبي المكتب شنيعًا؛ فقد همست لي قلة ثقتي بنفسي الفتية وجُبني بأني لستُ سوى جاهل أحمق، لكن مكتبي وصندوق النقد أعطياني عادة العمل اليومي، وعلّماني ضرورة تعلم القيام بشيء بدلًا من أحلام اليقظة، وأن لا شيء سوى المهارة التقنية والممارسة والكفاءة، باختصار الإتقان، يمكن أن يكون مفيدًا لي. ويبدو أن أبناء عمومتي قد استمدّوا هذا النوع من رباطة الجأش، التي حُرمتُ منها، من أجداد أجدادي الذين كانوا أجداد أجداد السير روبرت شو من بوشي بارك. ولا يمكنك الاستفادة من رتبة البارونية على هذا النحو إذا كنت تنتمي إلى جمهورية الفن. شعرت بالخجل والتعاسة باستمرار لأنني لم أستطع فعل أي شيء أردت القيام به. يمكنني حفظ أموال يونياك تاونسن ولا أفكر قط بسرقتها

(لقد جعلتني سنوات النُضج أُدرك أن العديد من مآثري الفنية قد تكون أقل تقديرًا في كتب الكرام الكاتبين)، ولكن في ذلك الوقت كان الأمر أقل من لا شيء؛ كان مؤهلًا لما كرِهته.

بدأ نشاطي الأدبي خلال هذه الفترة، على الرغم من أني لم أحسبه على هذا النحو. كان زميلي القديم في المدرسة، ماثيو إدوارد ماكنولتي، الذي أصبح لاحقًا كاتبًا لثلاث روايات عن الحياة الأيرلندية، مسؤولًا في بنك أيرلندا، وقد سحبوه إلى فرع نيوري لتلك المؤسسة. أقمنا صداقة، كون كلينا عبقريين واسعي المخيلة، وعلى الرغم من أنّ الظروف فرّقتنا ولم نرَ بعضنا بعد أيام دراستنا، فإننا واصلنا المراسلات عن طريق إعادة البريد خلال سنوات الصبا تلك. وكتبنا رسائل هائلة بعضنا إلى بعض، موضحة برسومات بدائية مفعمة بالحيوية من الدراما الهزلية. واتفقنا على إتلاف الرسائل بعد الإجابة عنها مباشرة، لعدم رغبتنا في أن يقع بوح أرواحنا الصريحة بين أيدٍ غريبة.

وقد صادف أن كوّنت أكثر تعارف ثمين أثناء إقامتي في نفس المنزل معه، وكان هذا الشخص تشيستر بيل، ابن عم جراهام بيل؛ مخترع الهاتف، وابن أخي ميلفيل بيل؛ مخترع النص الصوتي المعروف باسم الكلام المرئي. ووالده ألكساندر بيل؛ مؤلف كتاب فن الخطابة النموذجي، وهو بلا منازع أكثر الرجال الذين عاشوا على هذا الكوكب أو أي كوكب آخر مهابة وعظمة. كان أستاذ فن الخطابة في مدرستي القديمة، المدرسة الويسلية الجامعة التي تُعرف الآن بكلية ويسلي. وكان تشيستر بيل طبيبًا مؤهلًا ذهب إلى ألمانيا وكرّس نفسه للكيمياء والفيزياء في مدرسةِ هيلمهولتز. وكان تواصلي معه مفيدًا جدًا بالنسبة إليّ. درسنا اللغة

الإيطالية معًا، وعلى الرغم من أنني لم أتعلّمها، فإنني تعلّمت الكثير من الأشياء الأخرى، معظمها عن الفيزياء وعلم الأمراض. وقرأت محاضرات تيندال وتروسو السريرية. وكان بيل هو من جعلني آخذ فاغنر *Wagner* على محمل الجد. لم أسمع له شيئًا سوى مسيرة تانهاوزر *Tannhäuser March* التي عزفتها فرقة الرتبة الثانية العسكرية. وكان تعليقي الوحيد بأن اللحن المحوري «تيما» الثاني كان تقليدًا ضعيفًا للحن الشهير؛ المكوّن من سلسلة منعطفات في تمهيدات ويبر فغايشتز *Weber Freischütz* .

وحين علمتُ أن بيل اعتبر فاغنر مؤلفًا موسيقيًا عظيمًا، اشتريتُ نوتات موسيقية مكتوبة للوهينغرين[1]، وكانت العيّنة الوحيدة المتوفرة في محال موسيقى دبلن. وقد غيّرتني أول فواصل موسيقية بالكامل.

وهذا يذكرني عندما تفكّكت أسرتنا ورحلت والدتي إلى لندن، وجدتُ نفسي فجأة محرومًا من الموسيقى التي كانت غذائي اليومي طيلة حياتي. لكن البيانو بقي، ومع أني لم ألمسه إلا لألتقط نغمة بإصبعٍ واحد، فقد اشتريتُ كُتيبًا موسيقيًا عمليًا، يحتوي على رسم تخطيطي للوحة المفاتيح. ثم أخرجت نوتة والدتي لدون جيوفاني، وحاولت عزف التمهيد الموسيقي. استغرق الأمر بضع دقائق لترتيب أصابعي على نوتات الوتر الأول. وما عانيته وما عاناه كل شخص في المنزل، وأنا أكافح وأعمل بجد لملاءمة سمفونيات بيتهوفن والنوتات الصوتية لكل أوبرا وموشح ديني كنت أعرفه مع البيانو، لا يمكن ذكره أبدًا.

وفي النهاية، تعلّمت ما يكفي لأعزف أي شيء بأصابعي. لم أسيطر على

(1) لوهينغرين Lohengrin: اسم أوبرا ألفها ريتشارد فاغنر، عُرضت لأول مرة عام 1850.

لوحة المفاتيح أبدًا، لكني عزفتُ قدرًا جيدًا من الموسيقى في أيامي الأولى في لندن، حتى إني ذات مرة، ولحاجة مُلحة ويائسة، شغلت مكان نصف الأوركسترا الفارغ لأداء أوبرا التروفاتوري *Il Trovatore* في أمسية الترفيه الشعبية في مسرح فيكتوريا على طريق واترلو (أولد فيك) وانتهى العرض من دون كارثة. وفي الواقع، فرضتُ سرعة إيقاعي في أغلب الأحيان على قائد الأوركسترا الإيطالي الخجول واللطيف.

لكن هذا كان خارج حياتي المكتبية. فقد انتهت هجرتي عام 1876.

- 6 -

نهاية موظف المكتب في دبلن

ماذا يمكن أن يحوّل الرجلَ إلى موظف حسابات في مكتب؟ سواء في دبلن أو أي مكان آخر. لا يمكنك أن تحوّل البدوي إلى موظف، لكنك، وبسهولة، تستطيع تحويل الرجل الإنجليزي إلى موظف مكتبي. كل ما عليك فعله هو أن تجعله ينتمي إلى عائلة من الطبقة الوسطى، مع أب لا يمكنه إعالته ولا إعطاؤه رأس المال الكافي لبدء حياته، ولا يتابع تعليمه بعد القراءة والكتابة وحساب الأرقام، وسيشعر بالخزي إنْ أصبح ابنه ميكانيكيًا. وفي ظل هذهِ الظروف، ما الذي يمكن أن يفعله البائس الفقير سوى أن يكون موظفًا في مكتب؟

وقد أصبحت موظفًا مكتبيًا أنا أيضًا. أمّن لي عمّي، الذي كانت لديه، بصفته مسؤولًا رفيع المستوى في إدارة حكومية، فرص استثنائية على إرغام الناس، فضلًا عن عرقلة هؤلاء الذين يكرههم، بسهولة على مكان في مكتب راقٍ جدًا. ولبقيتُ هناك لو لم أتحرّر بالقوة، في تحدٍّ لكل رجاحة عقل، وأصبح رجلًا عبقريًا محترفًا. فأنا لست من هؤلاء الرجال الناجحين الذين يمكنهم أن يقولوا: «لماذا لا تفعل ما أفعله؟».

يراودني حلمٌ أحيانًا بأني أعود إلى ذلك المكتب مرة أخرى، منزعجًا

من شعوري بأني أهملت أهمّ واجباتي لفترة طويلة. لم أسحب أي أموال من البنك في الصباح، ولم أودع أي أموال في فترة ما بعد الظهيرة. ولم أدفع أي أقساط تأمين، ولا إيجارات، ولا فوائد الرهن العقاري، ومن المحتمل أن العقارات قد بيعت بالكامل، وتُركت الأرامل والأيتام يتضوّرون جوعًا، وحُجِزت الرهون العقارية، وترك النبلاء في أيرلندا إلى الدمار العام والارتباك والفوضى، وكل ذلك بسبب الإهمال غير المحسوب لواجباتي اليومية لسنوات وسنوات، حيث خلال فترة الحلم، وبنفس القدر من المساواة، لم نكبر لا أنا ولا رفاقي يومًا واحدًا. وعادة ما أستفيق وأنا أسألُ مديري، بسلطة سنواتي اللاحقة، ما إذا كانوا يدركون ما حدث؟ وهل كان من المفترض أن يتركوا شخصًا غير جدير بالثقة بشكل مخزٍ في منصب بهذه المسؤولية.

من بعض النواحي، يمكن القول إني كنت أفضل أحوالًا من مُعظم الكَتَبة، فقد كان زملائي في المكتب متدربين ذوي مكانة اجتماعية جيدة، معظمهم أصحاب شهادات جامعية. ولم يكن هناك ما يمنع من أن أعطي نفسي إيحاءً بأني في نفس مستواهم. وكنت أستقلّ الدرجة الأولى حين أسافر في رحلة عمل للشركة، ولم تُجادَل نفقاتي قط. ولكن، كما كان من المفترض أني شاب تحت التدريب لأصبح رجل أعمال؛ لم أحصل على أي معاش أبدًا، على الرغم من أنني خلال هذه السنوات الأربع والنصف بمعظمها، شغلت منصبًا ذا مسؤولية كبيرة شَغَر في ظرف طارئ حين كنتُ موظفًا مبتدئًا. ونظرًا إلى طبيعة هذا المنصب الذي لا يمكن تركه معلقًا ولو لنصف يوم، فقد وضعوني فيه كبديل مؤقت، وكحال كثير من البدلاء المؤقتين، بقيتُ حيث علقت. وبطبيعة الحال، بما أني كنتُ سأُقيد بمكتب

طوال اليوم؛ فضّلتُ المنصب الأعلى، والعمل الأكثر تنوّعًا، والمسؤولية الأكبر. ولم تكن مسألة راتب، إذ كنت على استعداد تامّ لأخذ راتب كبير بقدر ما سيعطيني أي أحد. لكن حتى لو كنت لا أزال أتقاضى راتب بداية الخدمة (18 جنيهًا إسترلينيًا في السنة) وسألوني إن كنت سأعمل مقابل هذا الراتب موظفًا مبتدئًا أم إداريًا أقدم لاخترتُ من دون تردد أن أكون إداريًا أقدم.

وفي وقت لاحق من حياتي، وبعد أن أصبحتُ نشطًا في الحركة الاشتراكية، طُرحت عليَّ قضية الافتراض المعتاد بأن عدم المساواة في العمل يتطلّب عدم مساواة في الأجور، ويمكنني أن أجيب من تجربتي بأنّه، إذا كانت بقية المعطيات متساويةً، كلما كان العمل أعلى رتبة قلّ عدد الأشخاص الذين قد يفعلونه. ولو كان أصحاب العمل قد طلبوا مني أن أقوم بعمل خادمة المكتب، لكان عليهم كبح نفوري وغضبي بإعطائي راتبًا لا يقل عن عشرين ضعف ما دفعوه لي بالفعل بعد ترقيتي.

ولما كان على والدي أن يعوّض الفرق بين ما دفعه لي صاحب العمل وبين تكلفة معيشتي، كان صاحب العمل يسلب والدي ماله حقًا. كان يدير عقارات الملاك الأيرلنديين، وهو نشاط تجاري يُطلق فيه النار على الوكلاء في بعض الأحيان. وهكذا استُغلّت الصناعةُ التي كانت تغذّي البلاد من قبل الصناعة التي كانت تستنزفها حتى الموت. وأتكلّم من دون خبث، لأنني مع مرور الوقت، ورثت عقارًا بنفسي، وأصبحت مالكًا أيرلنديًا غائبًا، وكيلًا وكل شيء. وبناءً على ذلك، فإنني الآن أصرّ على أن المالك ليس سيئًا بالضرورة دائمًا. كان هناك ملاك عقارات، حتى في أيرلندا، ممن قدموا لمقاطعاتهم أكثر مما قدمته مقاطعاتهم لهم.

كانت ملكية زوجتي الأيرلندية تكلفها 600 جنيه إسترليني سنويًا حتى حثثتها على بيعها.

غادرت أيرلندا وهربت من وظيفة المكتب عام 1876 عندما كنت في العشرين من عمري. ومرت أكثر من ثلاثين سنة قبل أن تطأ قدماي بلدتي مرة أخرى. قادتني نزوة إلى المشي أمام المكتب القديم من دون أن أضطر إلى الدخول إليه. وصادف أن في جيبي وثيقة كان عليَّ أن أُصدّقها من مفوض القسم. وعندما مررت بالباب القديم، رأيت أنه يوجد في الطابق الأول مكتب لمفوض من هذا القبيل. فدخلت وتوجهتُ إلى الطابق الأول. وهناك استقبلني كاتب المفوض بحفاوة وتقدير، وهو سيد حسن الهندام يرتدي معطفًا بأقصى درجات الاحترام والكرامة. وأعرب عن أسفه لكون مديره غير موجود في الوقت الحالي، ثم أجرينا محادثة وديّة، قلت خلالها: «منذ ثلاثين عامًا كنت كاتبًا في مكتب العقارات في الطابق السفلي». تغيّر أسلوبه على الفور، وقال بازدراء علني ومتشكك: «أنا لا أتذكرك».

شهقت! كان هذا الرجل يأتي إلى المكتب كل يوم خلال الثلاثين عامًا التي تجوّلت فيها في جميع أنحاء العالم وتغيرت من نكرة إلى شريك في مكتب وإلى شخص مشهور له سمعته. وبدا أنه أسعد رجل في العالم، لكنه وبلا شك تركني من دون أن تبقى لديه ذرة من احترام الذات.

- 7 -

تسع سنوات من الفشل كروائي تنتهي بنجاح كناقد

حينذاك كنت في لندن، في وضع مستحيل. أيرلنديًا أجنبيًا، أكثر من كل الأجانب، لم يمرّ بتجارب الجامعة البريطانية الصعبة. ولم أكن، كما سأوضح الآن، غير متعلم، ولكن ما كنت أعرفه هو ما لا يعرفه خريّجو الجامعات الإنجليزية، وما عرفوه لم أعرفه أو لم أصدقه. كنتُ ضيّق أفق التفكير وعنيدًا، وكان عليَّ أن أغيّر تفكير لندن لأحصل على القبول والاستحسان.

رفضت لندن التساهل معي تحت أي ظرف. وقُبل مقال واحد لي كسبت مقابله خمسة عشر شلنًا. أطلعني ناشر على مجموعة طوابع قديمة وطلب مني كتابة أبيات شعرية تلائمها من أجل كتب جائزة المدرسة، فكتبت محاكاة ساخرة للنوع الذي يريده وأرسلته إليه كمزحة ودية، ولدهشتي، شكرني ودفع لي خمسة شلنات. تأثرت بهذا؛ فكتبت له أشعارًا بليغة لصورة أخرى. أخذ الموضوع على أنه مزحة سمجة وانتهى بذلك عملي ناظمَ شعرٍ. وحصلت ذات مرة على خمسة جنيهات إسترلينية، لكنها لم تكن من ناشر ولا محرر بل من محامٍ ودود أراد مقالًا طبيًا، من الواضح أنه أراد استخدامه كتحريض في ما يخصّ براءة اختراع طبية. إلا أني لم أتمكن

من أن أتابع هذا النجاح وكان مجموع ما كسبته خلال التسع سنوات: ستة جنيهات إسترلينية، ومع هذا كانوا يدعونني مُحدَث النعمة.

في عام 1885 وجدني ويليام آرتشر في غرفة قراءة المتحف البريطاني، منكبًا على نسخة ديفيل الفرنسية من رأس المال لكارل ماركس، والنوتات الموسيقية لأوركسترا فاغنر[1] تريستان وإيزولده *Tristan and Isolde* إلى جانبي. وتولّى شؤوني بنجاح، لدرجة أن صحيفة بول مول الرسمية *The Pall Mall Gazette*، كانت لا تزال موجودة في وقتها، أرسلت إليّ كتبًا لمراجعتها، وعُينتُ ناقدًا فنيًا لـصحيفة العالم *The World*، وهو المنصب الذي نقله إليّ آرتشر بعد أن كان يشغله بالإضافة إلى وظيفته المعتادة ناقدًا دراميًا. وبدأتُ فجأة أجني المال؛ مئة وسبعة عشر جنيهًا إسترلينيًا في سنتي الأولى!

آرتشر كان اسكتلنديًا ولديه روابط عائلية أكسبته معرفة باللغة النرويجية، وكان واقعًا تحت سحر إبسن[2]، وقد نقل إليّ هذا السحر شفهيًا. هذا ووجهة نظرنا المعادية لرجال الدين كوّنت علاقة قوية بيننا. وحين اقترح أن نتعاون في كتابة مسرحية كان من المفترض أن يقدم فيها الحبكة وأنا أكتب الحوار، نسج حبكته بدقة على الخطوط التقليدية آنذاك.

---

(1) ريتشارد فاغنر Richard Wagner (1813 - 1883): مؤلّف موسيقي ومخرج مسرحي وقائد أوركسترا ألماني معروف بأوبراه (أو كما عُرفت بعض أعماله الناضجة في ما بعد بالدراما الموسيقية)، وعلى عكس مؤلّفي الأوبرا بمعظمهم، كتب فاغنر النصّ الكلامي والموسيقي للأوبرا في كل أعماله. وإن كان بيتهوفن قد سيطر على النصف الأول من العصر الرومانسي، فقد سيطر فاغنر على النصف الثاني.

(2) هنريك يوهان إبسن Henrik Johan Ibsen (1828 - 1906): كاتب مسرحي ومخرج نرويجي؛ أحد مؤسّسي الحداثة في المسرح، وغالبًا ما يُشار إلى إبسن باسم «أبو الواقعية»، وهو واحد من أكثر الكتاب المسرحيين تأثيرًا في عصره، وله 26 مسرحية.

اقترح آرتشر أيضًا تعاوننا في دراما كان قد خطط لها بأكثر الأساليب حصافة على الخطوط التقنية لمسرحيات سكريب[1] والمدرسة الفرنسية (المكتوبة بإتقان). تولّيتُ زمام الأمور وكتبتُ مشهدين يتحديان هذه الخطوط، وبخلاف ما توقعه آرتشر، حتى إنه ألغى الفكرة بالكامل. وأُهمل هذان المشهدان لست أو سبع سنوات، وحين قرأت العمل لهنري آرثر جونز، كان في أوج شعبيته ككاتب مسرحي، وكان تعليقه: «أين جريمتك؟».

أخيرًا، بدأ متحمّسٌ لأبسن يُدعى غرين، من أصول هولندية إنجليزية، مسرحًا صغيرًا سمّاه المسرح المستقل، وبعد نجاح «فضيحة مع أبسن» تعهّد بالقول إن في إنجلترا كثيرًا من روائع الأعمال الدرامية التي لم تُمثل بواسطة المسارح التجارية.

من أجل هذا التخمين الذي لا أساس له، صنعتُ قصاصة دليل باستخراج المشهدين، وأضفت إليهما ثالثًا وعهدت بالمسرحية إلى غرين لكي يؤديها. عرضان كان كل ما يستطيع تحمله. أثار الأول مزيجًا مثيرًا من التصفيق والصخب، وهو ما واجهته بنجاح في خطاب أمام الستارة. وأعقبت استقبالًا ملائمًا من الجميع للثاني مناقشة صحافية للمسرحية التي استمرت أسبوعين. وقد أُدنت بصفتي مؤلفًا لكراريس خالية من المَلَكة الدرامية، لكن كل تأثيرات خشبة المسرح التي خططت لها ظهرت بشكل مثالي، وهذا ما أقنعني بأنني ولدتُ لأكون سيد المسرح.

---

(1) أوغسطين يوجين سكريب (Augustin Eugène Scribe (1791 _ 1861: هو كاتب مسرحي فرنسي ومؤلف كلمات الأوبرا liberetto، عُرف عنه الكمال في ما يُسمّى «المسرحية المُتقنة»، ويعتبر دعامة أساسية للمسرح الشعبي لأكثر من 100 عام.

في عام 1888 تأسست صحيفة النجم *The Star*. وبتوصية من هـ. ج. ماشينغهام، دُعيت للانضمام إلى طاقمها السياسي. ولكن لم تُعتبر أي من مقالاتي مادةً قابلةً للطباعة. فاقترحت كحلٍّ وسط أن يخصص لي عمود من الصحيفة كل أسبوع أكتب فيه بعض الأمور غير السياسية: مثل الموسيقى. هذا العمود، الذي يُوّقع بـاسم كومو دي باسيتو *Como di Bassetto* (الاسم الإيطالي للتُّوبة، وهي نوع من الأبواق) كان مزيجًا من السخرية والنقد الصريح. وقد حقق نجاحًا ساحقًا.

في عام 1890، تورط الراحل لويس إينجل، أفضل ناقد موسيقي مكروه وزميل آرتشر في صحيفة العالم *The World*، في شجار وكان عليه أن يترك البلاد. طمأن آرتشر رئيس تحرير إدموند ياتس على الفور بأن كومو دي باسيتو هو الخليفة الوحيد المحتمل لإنجل. وهكذا، غادرت صحيفة النجم *The Star*، وبدأتُ أكتب بصفتي ج. ب. ش *G.B.S*. صفحة كاملة في صحيفة العالم عن الموسيقى كل أسبوع حتى وفاة ياتس في عام 1894، عندما شعرت بأن عليّ إيجاد محررٍ آخر له صفات ياتس، لا يخاف من كل شيء مختلف وغير عادي، ويدرك إلى أي مدى يمكن أن يغامر بأمان في الحداثة والهرطقة التي تجعل النقد قابلًا للقراءة. لذلك استقلت، وقبلت عام 1895 منصب الناقد المسرحي من فرانك هاريس، الذي كان قد أصبح للتوّ محررًا لمجلة ساتردي ريفيو *The Saturday Review*.

هاجر هاريس إلى أمريكا، حيث قام بمغامرات كراعي بقر، وكعامل يعمل في بناء جسر بروكلين، وكمدير فندق، وكمحامٍ، وعاد إلى إنجلترا بأخلاق وعادات وطريقة كلام قرصان إسباني، مقترنة بصوت وطريقة إلقاء أعطياه تميزًا شخصيًا مهيبًا وحصل على قبول من النظرة الأولى في

المجتمع المهني والسياسي الإنجليزي. لكن حبه كان للأدب. وكان يعرف الكتابة الجيدة من السيئة ويفضل الجيدة على السيئة، ولم يخشَ الهرطقة، من دون أن يعرف بالفعل أنها خطرة، لأنه كان يعدُ نفسه قديسًا كالمسيح، ولم يكن لديه أدنى شك في أن الناس سيعتبرونه كابتن كِدّ[1] آخر.

باختصار، كان الرجل المناسب لي كما كنتُ الرجل المناسب له. ولعلمي بأنه سيتنمّر عليّ إن لم أستأسد عليه أولًا بطريقتي الأيرلندية الخاصة؛ اتبعت معه نفس السياسة التي اتخذتها مع ياتس. واتفقنا على أن يدفع لي ستة جنيهات إسترلينية في الأسبوع. دفعَ لي ياتس خمسة جنيهات إسترلينية، لكنها لم تكن سيئة في تلك الأيام.

ولكون الدراما ذات معجبين أقل انعزالًا بكثير من الموسيقى؛ زادت شهرتي في الحال وبسرعة كبيرة. ومن ذلك الحين فصاعدًا، ولسنوات، نادرًا ما ظهر اسمي مطبوعًا من دون أن ترافقه صفة (البارع) التي كنت أنفر منها لأنها توحي بالسطحية المتألقة التي كنتُ أمقتها. ولكن لم أستطع التخلص منها.

(1) الكابتن ويليام كِدّ Captain Kidd: بحار اسكتلندي حوكم وأُعدم بتهمة القرصنة بعد عودته من رحلة إلى المحيط الهندي. يرى بعض المؤرخين المعاصرين، على سبيل المثال السير كورنيليوس نيل دالتون، أنّ سمعة القرصنة التي طالته غير عادلة.

- 8 -

في أيام شبابي

من مجلة الراحل ت. ب. أوكونور[1] بعنوان (أساسًا عن الناس)

تاريخ مساهمتي: 17 سبتمبر 1898

عزيزي ت. ب.

جميع السير الذاتية هي عبارة عن أكاذيب. لا أقصد أكاذيب غير واعية أو غير مقصودة، ما أعنيه أنها أكاذيب مقصودة. ليس هناك رجل سيئ بما فيه الكفاية ليقول الحقيقة عن نفسه خلال حياته، بما في ذلك، كما يجب، الحقيقة حول عائلته وأصدقائه وزملائه. وليس هناك رجل جيد بما فيه الكفاية، ليقول الحقيقة للأجيال المقبلة في وثيقة يخفيها حتى لا يبقى أحد على قيد الحياة ليعارضه.

وإني أتحدّث بثقة كبيرة حول هذا الموضوع لأنني خاولت بنفسي، ضمن حدود خجولة معينة، تجربةَ كتابة سيرة ذاتية صريحة، لكني لم أترك

---

(1) توماس باور أوكونور المعروف باسم تي بي أوكونور وأحيانًا تاي باي: صحافي وشخصية سياسية قومية أيرلندية وعضو في مجلس العموم في المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا لما يقارب الخمسين عامًا. وقد أسّس مجلة قومية بعنوان أساسًا عن الناس Mainly About People M.A.P.

أي انطباع دائم لأنه لم يصدقني أحد. أخبرت مرة زميلي الناقد (أ. ب. ووكلي) بعض الحقائق عن عائلتي.

كان لجدتي والدة أبي خمسة عشر طفلًا في أول اثنتين وعشرين سنة من زواجها، وربما كانت ستُرزق بخمسة عشر طفلًا آخرين لو نجا زوجها من تلك التجربة. من بين الخمسة عشر نجحت في تربية أحد عشر، وبالتالي، حصلتُ على دزينة أعمام وعمات وأبناء عمومة لا حصر لهم من جانب والدي فقط. تزوج جدي والد أمي مرتين وأنجب ثمانية أطفال، مات واحد منهم فقط قبل أن يتزوج وينجب أطفالًا.

مثل هذه العائلات نادرة في الوقت الحاضر. ولكن في أيرلندا في منتصف القرن التاسع عشر لم نفكر فيهم بسوء ما دمنا نستطيع تدبير معيشتهم. وكحال القبائل خصبة الإنجاب بمعظمها، لم تتكوّن عائلتنا من أشخاصٍ يمتنعون عن شرب الخمر، كما لم يبقَ جميع أعضائها حتى الموت في أعلى مستوى معتدل من التعقّل القانوني. اكتشف أحدهم طريقة انتحار مبتكرة جدًا. كان الأمر بسيطًا، على شفا السذاجة، ومع ذلك لم يخطر في بال أحد من قبل. كان الأمر مسليًا أيضًا. ولكن أثناء تنفيذه خطته تلك، ضغطت قريبتي على آلية قلبه وتوفي قبل أن ينجح في قتل نفسه بثوانٍ معدودة. وجدت هيئة المحققين في أسباب الوفاة أنه مات «لأسباب طبيعية»، وهكذا كُتِم سر الانتحار، لا عن الناس فقط بل حتى عن العائلة بمعظمها.

كشفت هذا السر في محادثة خاصة مع ووكلي، فانفجر ضاحكًا، وطبع القصة بالكامل في مقالته التالية. لم يخطر له، ولو للحظة، أن تكونَ هذهِ القصة حقيقية. في حين يمكنكم تخيّل موقفي الذليل أمام أرملة قريبي والإخوان والأخوات.

مرتين في حياتي أعطيت تعليمات صادقة بركاكة لمحامين، وفوجئت عندما وجدت أنها لم تنفذ. ظنّوا أنني أُغالي أو أمزح على الأرجح.

لو حاولت كتابة سيرة ذاتية صادقة فستظهر نفس المشكلة، وأوجه إهانة شديدة إلى الأقارب القلائل الذين يعرفون أنني أكتب الحقيقة، ولن يصدّقني أحد آخر، ثم إني أواجه صعوبة أخرى، وهي أني لم أتأكد بعد من حقيقة نفسي. على سبيل المثال، إلى أي مدى أنا مجنون، وإلى أي مدى أنا عاقل؟ لا أعرف. لقد مكنتني موهبتي المحددة من أن أظهر وأقدم نفسي بطريقة معينة في مهنتي في لندن. لكن الرجل، مثل دون كيشوت، قد يكون ذكيًا بما يكفي ليقدم نفسه بطريقة معينة، ومع ذلك يكون مجنونًا تمامًا.

وصفني أحد النقّاد مؤخرًا بأن لدي «نفورًا لطيفًا من بني جنسي». وربما الفزع هي الكلمة الأقرب للحقيقة من النفور. لأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي أخشاه تمامًا وبجبْنٍ. لم أفكر قط في مدى شجاعة مروّض الأسود، فهو على الأقل في مأمن من الرجال الآخرين داخل القفص. والأسد الشبعان أقل ضررًا منهم؛ ليست لديه غايات ولا طائفة ولا حزب ولا أمة ولا طبقة. باختصار، ليس لديه سبب لتدمير أي شيء لا يريد أكله. في الحرب المكسيكية، أحرق الأمريكيون الأسطول الإسباني، واضطروا في النهاية إلى سحب الجرحى من الهياكل التي أصبحت كأفران. وكان تأثير ذلك على أحد القادة الأمريكيين أنه جمع رجاله وأخبرهم برغبته في إعلان إيمانه بالله تعالى أمامهم. لن يفعل أي أسد ذلك! وعند قراءتها، وملاحظة أن الصحف التي تمثل الرأي العام العادي تعتبرها واقعة موثوقة وطبيعية ورائعة بشكل مثير للإعجاب بحسب ما يبدو، توصلت إلى استنتاج مفاده بأنني لا بد من أن أكون مجنونًا. في جميع الأحوال، إذا كنت

عاقلًا، فيجب ألا يكون بقية العالم طليقًا. لا يمكننا نحن الاثنين أن نرى الأشياء كما هي.

كان والدي سيدًا بروتستانتيًا أيرلنديًا ينحدر من سلالة نبيلة معوزة من أصغر الأبناء. ليس لديه ميراث، ولا مهنة، ولا مهارة يدوية، ولا مؤهل من أي نوع لأي وظيفة اجتماعية محددة. لا بد من أنه قد حصل على بعض التعليم الابتدائي، لأنه قادرٌ على القراءة والكتابة وتقييد الحسابات بصورة غير دقيقة تقريبًا، وهو يتحدّث ويرتدي ملابس كسيد مثقف أيرلندي وليس كحمال للسكك الحديدية. لكن من المؤكد أنه لم يحصل على شهادة جامعية، ولم أسمعه قط يذكر أي مدرسة أو كلية يمكن أن يدّعي أنه أحد خريجيها. مع ذلك، فقد نشأ ليعتقد بأن هناك فضيلة فطرية من النبالة في جميع آل شو، باعتبارهم أنصار وليام الفاتح (وليام الهولندي المجيد الورع والذكرى الخالدة، وليس المغامر النورماني) وأصحاب العقارات المملوكة في أيرلندا أو أقاربهم.

ولسلالة أصغر الأبناء إمكانات هائلة خُصصت لدبلن، حيث أسس أحدهم البنك المَلَكي، والذي أطلق عليه كبار السن في طفولتي اسم «بنك شو»، وأصبح بارونًا، وأسس دبلن شو في أراضي العائلة المعروفة باسم بوشي بارك خارج طريق راثفارنهام. كان والدي ابن العم الثاني للبارون وقد نال امتياز استئجار عربة وحضور جنازات بوشي بارك، بالإضافة إلى حقه في حضور حفلات عائلية معينة هناك. وحتمًا كان كل آل شو من البروتستانتيين النفاجين.

تمكن والدي، وبفضل تكبّره، بعدما تملق لكاتب أو اثنين في محكمة، من تأكيد حق عائلته في الريف بنجاح كافٍ في الحصول على وظيفة في

المحاكم الأربع (قصر العدالة الأيرلندي)، ثم أُلغي المنصب، وأُحيل والدي على المعاش. ثم باع معاشه وباشر مشروعًا بالمبالغ التي حصل عليها في تجارة الذرة التي لم يكن لديه أدنى معرفة بها، ولم يكسب الكثير منها، على حد علمي، حتى يوم وفاته.

كانت هناك طاحونة صغيرة غريبة نوعًا ما في الريف، والتي قد تجني ما يكفي لدفع إيجارها، ما دامت الآلة تدور، لكن فائدتها الرئيسية في اعتقادي هي لمتعتنا أنا ورفيقي المقربيَن أبناء شريك والدي.

أعتقد أن أيرلندا، في ما يتعلق بالطبقة العُليا البروتستانتية، هي أكثر دولة غير دينية في العالم. عمّدني عمي، وبما أن عرّابي كان مخمورًا ولم يتمكن من الحضور؛ أُمر القَنْدَلفت بأن يتعهد ويقسم في مكانه، تحديدًا كما لو أن عمي قد أمره بأن يضع المزيد من الفحم في موقد مجلس الكنيسة. ولم أُعط سرَّ التثبيت أبدًا، وأعتقد أن والدي لم يحصلا عليه أيضًا. لم يكن لدي أي تصور عن الجدية التي أخذت بها الأسر الإنجليزية هذا الطقس؛ لأن البروتستانتية الأيرلندية لم تكن دينًا في ذلك الوقت، بل كانت جانبًا في النزاع الحزبي السياسي، والتحيز الطبقي، وقناعة بأن الروم الكاثوليك هم أشخاص أدنى من الناحية الاجتماعية وسيذهبون إلى الجحيم عندما يموتون ويتركون الجنة حصريًا للسيدات والسادة البروتستانتيين.

أرسلوني في طفولتي إلى مدرسة يوم الأحد في كل يوم أحد، حيث يكرر أطفال أنيقون نصوصًا ويُكافؤون بقصاصات منقوشة على هذا. وبعد ساعة نذهب إلى الكنيسة المجاورة (المولينيو في شارع أبر ليسون) لنجلس حول قضبان المذبح ونتململ بعصبية حتى يرغب جيراننا في انتهاء خدمة القداس بقدر رغبتنا. عانيت كل هذا، لا من أجل خلاصي، بل

لأن محترمية والدي تطلبت ذلك. وحين ذهبنا للعيش في دالكي، انقطعنا عن ممارسة الشعائر ولم نستأنفها أبدًا.

ما ساعد على جعل «الكنيسة» مرتعًا لجميع الرذائل الاجتماعية هو أن الطبقة العاملة لم تأتِ إلى هناك أبدًا. ففي إنجلترا، يذهب رجال الدين (الإكليروس) بين الفقراء وأحيانًا يحاولون يائسين حملهم على القدوم إلى الكنيسة. وفي أيرلندا، الفقراء هم من الروم الكاثوليك (أو بابويين كما يسميهم جدي)، ولا علاقة للكنيسة البروتستانتية بهم. لا يمكنني القول إنه في أيرلندا خلال فترة وجودي كان البروتستانت جميعهم يسيئون إلى ما أطلقوا عليه دينهم؛ إذ لا يسعني إلا الكلام عمّن عرفتهم.

تخيّل أن يُعلموك أن تحتقر العامل وتُبجل الرجل النبيل، في بلد خلع الفقر فيه كل مِزقة عذرٍ بالية للتشبه بالأثرياء! تخيّل أن يعلموك بأن هناك إلهًا واحدًا، بروتستانتيًا وسيدًا مثاليًا، وأن الجنة قد خُصّت للطبقة العليا ضد الوثني المحتال المدعوّ البابا! تخيل ادعاءات طبقة النبلاء الإنجليزية على إيرادات الطبقة الوسطى الإنجليزية! أتذكّر في أحد الأيام أن ستوبفورد بروك[1] أخبرني بأنه يميّز في كتبي كراهية شديدة واحتقارًا للمجتمع. لا عجب في ذلك!

ولو لم أُعانِ من هذهِ الأشياء في طفولتي، لتمكنتُ ربما من كبح جماح انفعالي بشأنها. فبالنسبة إلى شخص خارجي، لن يرى سوى الكوميديا في مشهد مجموعة بائسة من التجار البروتستانتيين في دولة كاثوليكية، يقودهم

(1) ستوبفورد بروك (1832 ـ 1916) Stopford Brooke: قسيس ملكي ورجل الكنيسة الأيرلندية وكاتب.

توافه البلوتوقراطية من سماسرة الأسهم والأطباء ووكلاء العقارات، مموهة من قبل هذا القسم من مُلّاك العقارات الغارقين في القروض العقارية إلى هامتهم للهروب إلى لندن. تمثل كونها محكمة وحكومة نبلاء يحكمها نائب ملكي منفي أقنعوه بقبول منصب قائم مقام لورد[1] براتب عشرين ألف جنيه إسترليني في السنة، ويدفع من نفقته الخاصة، لكنه جعل زوجته نائبة للملكة. ومثل هذا التظاهر الذي ينطوي على الكذب المستمر في ما يتعلق بالإيرادات والمكانة الاجتماعية قد ضحّى بكل واقعية الحياة.

والآن، ما القوة التي وجدتها في الديانة الأيرلندية بما يكفي لتخلصني من شناعة العزلة؟ بكل بساطة، قوة الفن. كان لوالدتي موهبة موسيقية كبيرة. وكي تمارسها بجدية؛ كان عليها أن تتواصل مع أشخاص آخرين لديهم موهبة موسيقية. وإن أول شك لي حول ما إذا كان الرب بروتستانتيًا صالحًا بالفعل أوحت به حقيقة كون أفضل الأصوات المتاحة للاندماج مع صوت والدتي في أعمال الملحنين العظماء قد مُنحت لأسباب مجهولة إلى الروم الكاثوليك. حتى الرقة الإلهية كانت موضع تساؤل في هذا الوقت، لأن بعض هؤلاء المطربين كانوا أصحاب متاجر بلا شك. فإذا كان المغني الصادح، كاثوليكي بلا ريب، مُحاسبًا على أقل تقدير، فإن مهرج الأوبرا سيكون بائع أدوات مكتبية.

لم يكن هناك خيار آخر، إذا كان على والدتي أن تفعل أي شي ما عدا غناء القصائد الشعبية الرومانسية السخيفة في غرف الرسم، فإن عليها أن

---

(1) قائم مقام لورد: هو الممثل الشخصي للملك/ الملكة البريطاني في كل منطقة توجد فيها وظيفة الملازم في المملكة المتحدة. على مر التاريخ، كان كل قائم مقام لورد مسؤولًا عن تنظيم جيش مؤقت في المقاطعة حتى عام 1871.

تقرن نفسها، على أساس غير طائفي تمامًا، بأشخاص لديهم مواهب فنية مماثلة من دون أدنى إشارة إلى عقيدتهم أو طائفتهم. ويجب عليها بالفعل أن تسمح لنفسها بأن يقترب منها كهنة الروم الكاثوليك، وأن تدخل بدعوة منهم إلى منزل الشيطان؛ كنيسة الروم الكاثوليك، وتغني موسيقى قداس موزارت هناك. إذا كان الدين هو الذي يربط الرجال ببعضهم، واللادين يُفرقهم، فيجب أن أشهد بأنني وجدت دين بلدي في عبقريته الموسيقية ولادينته في كنائسه وغرفه.

واسمح لي أن أُوجه كلمة شكر إلى ملاذ طفولتي العزيز؛ المتحف الوطني الأيرلندي. أعتقد بأني الشخص الوحيد الذي دخل إليه باستثناء الموظفين الحكوميين، لكني أعلم أنه فعل لي أكثر بكثير من الكاتدرائيات المُصادرة في العصور الوسطى والتي تمت «استعادتها» بشكل رائع من أرباح تجارة المشروبات.

من الطبيعة أيضًا، يتعلم المرء في كل مكان. إنها تزيد الأيرلنديين كآبة وحزنًا، وتجعلهم يتباكون على «الأيام التي مضت». قبل أيام عدة، طُلب مني أن أساعد في رفع مظلومية بلدي عن طريق التجمع مع أيرلنديين آخرين لنُغالي في ذكر ثورة 1798. ليس لدي أدنى اهتمام في ما حصل عام 1798. وحتى يعمل الأيرلنديون بجد وصدق لما سيكون عليه حال أيرلندا في 1998، سينالون القليل من الوطنية.

المخلص
ج. برنارد شو
لندن 1898

- 9 -

من أنا وماذا أعتقد؟

ظهرت سلسلة الأسئلة هذهِ في مجلة قصيرة الأجل تسمّى الصديق المخلص The Candid Friend على مرحلتين، في الحادي عشر والثامن عشر من مايو 1901

- سألتني: أخبرني شيئًا عن والديك وتأثيرهما في حياتك.

من المستحيل أن أعطيك نسخة من روجون ماكار[1] عني في أقل من عشرين مجلدًا. دعني أخبرك قصة عن والدي، حين كنتُ طفلًا، أعطاني أول غطس في البحر في خليج كيليني. وقد استهله بعِظة جادة جدًا حول أهمية تعلم السباحة، بلغت ذروتها بهذه الكلمات: «عندما كنت صبيًا في الرابعة عشرة من عمري، مكّنتني معرفتي بالسباحة من إنقاذ حياة عمك روبرت». ثم بعد ذلك، عندما رأى انبهاري الشديد، انحنى وأضاف بسرية في أذني: «ولأصدقك القول، لم أشعر أبدًا بالأسف على أي شيء في حياتي بعد ذلك». ثم غطس في المحيط، واستمتع بالسباحة المنعشة جدًا، وضحك طوال الطريق إلى المنزل.

---

(1) روجون ماكار Rougon _ Macquart: رواية طويلة تسجِّل تاريخ أسرة فرنسية متعاقبة الشخصيات هي أسرة «روجون ماكار» في عشرين رواية طويلة من تأليف إيميل زولا؛ أحد أبرز الكتّاب الطبيعيين.

ثم إني لم أسعَ بإدراك الى خيبة الأمل، وإنما حدثت بصورة طبيعية في عملي. لكن ليس هناك شك في وجود صلة بين ضحكات والدي والاستمتاع الذي أنتجته في المسرح بطرقي الكوميدية.

ـ متى راودتك رغبة في الكتابة لأول مرة؟

لم أشعر قط برغبتي في الكتابة أكثر مما رغبت في التنفّس. لم يخطر في بالي أبدًا أن إحساسي الأدبي كان استثنائيًا، أقرُّ بالفضل للجميع على هذا الإحساس، لأنه لا شيء خارقًا في المَلَكة الطبيعية لمن يملكها. في الفن، الهاوي والجامع والمتحمس هو الشخص الذي يفتقر إلى المَلَكة اللازمة لإنتاجه. يريد الفينيسي أن يُصبح فارسًا، ويريد الغاوتشو أن يصبح بحّارًا، والسمك يريد أن يطير والطير يريد أن يسبح. لم أرغب أبدًا في الكتابة. وأنا أعلم الآن بالطبع ندرة القابلية الأدبية، ومع ذلك ما زلتُ لا أرغب فيها. لا يمكنك أن ترغب في شيء وتحصل عليه أيضًا.

ـ ما الشكل الذي اتّخذه أول عمل الأدبي لك؟

لا أتذكّر حين كنت صبيًا، كتبتُ قصةً قصيرةً وأرسلتها إلى جريدة فتيان. تدور أحداثها حول رجل ومعه مسدس يهاجم رجلًا آخر في وادي بمنحدرَين، وكان المسدس هو محور اهتمامي. وخلصتني مراسلاتي مع إدوارد ماكنولتي من طاقتي الأدبية الأولية.

أجريتُ مراسلات طويلة أخرى، وهذهِ المرة مع سيدة إنجليزية اسمها إلينور هودارت، التي ربما أكسبتها رواياتها متّقدة الخيال شهرة لو تمكنتُ من إقناعها بأن تُفصح عن هويتها أو على الأقل أن تثبت على اسم قلميّ واحد بدل أن تغيره لكل كتاب.

عمليًا، كانت أول أعمالي الأدبية هي خمس روايات كتبتها من عام 1879 إلى عام 1883، ولم يقبل أحدٌ بنشرها. ثم بدأتُ بكتابة مسرحية تجديف عاطفية، حيث صوّرت أم البطل كامرأة سليطة، لكني لم أُنهيها أبدًا. فقد كنتُ، ولحسن حظي، فاشلًا كعابث؛ كل محاولاتي في كتابة الفن من أجل الفن قد باءت بالفشل، وكانت كدقّ مسامير في دفتر ملاحظات.

ـ متى بدأ اهتمامك بالمسائل السياسية وبأي شكّل أثرت في أعمالك؟

سمعتُ في بداية الثمانينيات خطابًا لهنري جورج، فتح عيني على أهمية الاقتصاد. وقرأت لماركس، والسرّ الحقيقي لسحر ماركس هو احتكامه إلى العاطفة المجهولة وغير المعترف بها، الكراهية في أكثر الأرواح كرمًا بين الأقسام المحترمة والمتعلمة لمؤسسات الطبقة الوسطى التي جوعتها وأحبطتها وخدعتها وأفسدتها روحيًا منذ ولادتها.

كتاب رأس المال لكارل ماركس ليس دراسة عن الاشتراكية، إنه نواح متطاول ضد البرجوازية، مدعومًا بجملة من الأدلة الرسمية وعبقرية يهودية لا هوادة فيها للتنديد. كان موجهًا إلى الطبقات العاملة، لكن الرجل العامل يحترم البرجوازية ويريد أن يكون برجوازيًا. كان الأبناء الثائرون للبرجوازية نفسها: لاسال، وماركس، وليبكنخت، وموريس، وهايندمان (أضف إلى ذلك: لينين وتروتسكي وستالين) جميعهم مثلي، برجوازيين صبغوا العلم أحمر. وكان باكونين وكروبوتكين من الطبقة العسكرية والنبيلة المنغلقة؛ يسارنا الأناركي المتطرف. إن طبقات النبلاء المعوزين المفلسين منهم والمحترفين هي العنصر الثوري في المجتمع: البروليتاريا هي العنصر المحافظ، مثل دزرائيلي، حزب المحافظين الديمقراطي المعروف جيدًا. جعلني ماركس اشتراكيًا وأنقذني من أن أصبح رجلًا أدبيًا.

ـ ما هو أول نجاح حقيقي لك؟ أخبرني كيف شعرتَ حيال ذلك. وهل يَئِست يومًا من النجاح؟

لم يكن لدي أي شيء من هذا القبيل. فالنجاح، بهذا المعنى، هو شيء يأتي إليك ويسلبك أنفاسك، كما حصل مع بايرون وديكنز وكيبلينغ. وما وصل إليّ سوى الفشل المتكرر. وفي الوقت الذي نلته، كنت أعلم الكثير لأهتم بالنجاح أو بالفشل.

ـ هل يقف الفقر في طريق النجاح أم يعمل حافزًا له؟

الفقر ونقص أوقات الفراغ يمكن للاشتراكية وحدها أن تقضي عليهما تمامًا، وإن نسبة ضئيلة من السكان حباهم الإله بعنايته ووهبهم القدرة على التفكير والإدارة التي من دونها تكون الاشتراكية مستحيلة.

ولكن إن كنت تقصد الفقر المدقع النبيل، فكل ما يمكنني قوله هو إن نظامنا الاجتماعي منظم بلا تفكير، لدرجة أنه من المستحيل الجزم ما العائق الأكبر لتطور الكاتب: المال أم الحاجة إليه؟ لم أتمكن من المباشرة في إعادة كتابة كتاب رحلة الحاج[1] *The Pilgrim's Progress* وكتاب رسائل إلى العمال والحرفيين في بريطانيا العُظمى[2] *Fors Clavigera* كما لو أن راسكين كان سفّاحًا وبانيان كان سيدًا بوسائل

(1) رحلة الحاج: هو كتاب رمزي ديني من تأليف جون بنيان، وهو كاتب وواعظ إنجليزي عاش في القرن السابع عشر.

(2) Fors Clavigera: الاسم الذي أطلقه الكاتب جون راسكين على مجموعة رسائل نُشرت على شكل كتيبات موجّهة إلى العمال والحرفيين في بريطانيا العظمى خلال سبعينيات القرن التاسع عشر. شكّلت الرسائل جزءًا من اهتمام راسكين بالتدخل الأخلاقي في القضايا الاجتماعية المعاصرة. وجون راسكين هو ناقد فني بارز في العصر الفيكتوري ورسام ومفكّر اجتماعي لامِع.

مستقلة. ولكن في حين أنّي لستُ متأكدًا من أن الرغبة في المال تُضعف الفقير أكثر مما تُضعف الغني حيازته، أنا متأكد تمامًا من أن الطبقة التي لديها ذرائع وتحيزات وعادات الأثرياء بدون أموالهم، وفقر الفقراء من دون صراحة الاعتراف بالفقر، الذين لا يذهبون إلى المسرح لأنهم لا يستطيعون دفع تكلفة المقاعد الأمامية ويخجلون من أن يراهم أحد في الشرفات الخارجية، هم الأسوأ حالًا.

أن تنحدر من ذروة البرجوازية الراقية وملّاك العقارات إلى الحضيض، لدرجة يتخلى فيها حفيد حفيدك عن مقاومته للحفاظ على المظاهر، إذ لم يعد بإمكانه أن يجعل الثلاثمئة جنيه إسترليني في السنة تبدو كأنها ثمانمئة جنيه إسترليني في أيرلندا واسكتلندا، ولا الخمسمئة جنيه إسترليني تبدو كأنها خمسة آلاف جنيه إسترليني في لندن. أن لا يدرس في المدرسة البروليتارية والكلية متعددة الفنون ولا في الجامعة، بل في أكاديمية مغامرات خاصة رخيصة لأبناء السادة. وأن تستبعد الفقراء من قائمة زياراتك، ثم تكتشف في ما بعد أن العالم بأسره قد استبعدك. هذا هو الفقر في أسوأ حالاته. ومع ذلك، فقد انبثق منه كثير من أدبنا وصحافتنا. فكر في الذل الذي طال الصبي ديكنز في مستودع الدهان الأسود، واستياءه الشديد من رغبة والدته في أن يبقى هناك. فكر في ترولوب، في مدرسة من الطبقة العليا وبنطاله مليء بالثقوب، لأن والده لم يستطع الاستغناء عن خادم.

قرف! كن متشردًا أو مليونيرًا، لا يهم. ما يهم هو كونك فقيرًا وتربطك صلة قرابة بالأغنياء، هذا أصعب شيء!

جاءت الشيوعية لإنقاذي. على الرغم من أني كنتُ معدمًا تقريبًا، كانت لدي مكتبة رائعة في بلومزبري، ومعرض صور لا يقدّر بثمن في ساحة

ترافالغار، وآخر في هامبتون كورت، من دون أي خدم لأصرف عليهم أو إيجار لأدفعه. حبتني الطبيعة بعقلٍ لأستخدمه. أما بالنسبة إلى الموسيقى الاحترافية، فقد حصلت على أموال في وقت لاحق لإشباع نفسي بأفضل ما فيها من لندن إلى بايرويت. أما أصحابي، فقد كانت قائمة زيارتي دائمًا لا تُقدر بثمن.

بالنتيجة، ما الذي يمكنني شراؤه بأكثر من المال الكافي للطعام والملابس والسكن؟ سيجار؟ أنا لا أدخن. شامبانيا؟ أنا لا أشرب. ثلاثون بذلة من ملابس عصرية؟ أكثر الناس الذين أتجنّبهم سيطلبون مني تناول العشاء معهم لو أمكن إقناعي بارتداء مثل هذه الأشياء. وفي الوقت الذي أصبحتُ فيه قادرًا على تحمل كل هذهِ التكاليف، لم أشترِ شيئًا لم أشتره من قبل.

إلى جانب ذلك، لديّ مخيلة. منذ الصِغر، ما عليّ سوى أن أغمض عيني لأكون أينما أريد وأقوم بما يحلو لي. ما هي كماليتكم التافهة باهظة الثمن في بوند ستريت بالنسبة إلي أنا جورج برنارد آشور بانيبال؟! استنفدتُ أحلام اليقظة الرومانسية قبل أن أبلغ العاشرة من عمري. يكتب الروائيون المشهورون الآن القصص التي أخبرتها لنفسي (وأحيانًا للآخرين) قبل أن أستبدل مجموعة أسناني الأولى..

يومًا ما سأحاول إيجاد سيكولوجية حقيقية للخيال من خلال تدوين تاريخ حياتي المتخيلة: مبارزات ومعارك وعلاقات غرامية مع الملكات وغيرها. تكمن الصعوبة في أن أغلبها شَهواني بفجاجة لدرجة تتعذر معها أن يطبعها أي كاتب يتحلى بالكياسة. (حين كتبتُ هذا الكلام في 1901، لم أعتقد في حينها أن مؤلفًا خاليًا من الكياسة تمامًا كسيغموند فرويد لا يأتي إلى هذهِ الدنيا فحسب بل ويصبح مشهورًا ومثقفًا بواسطة عيبه كما قد

يكتبُ رجل أعمى مقالات عن الرسم، ولا أن يُرفع الحظر عن المقالات الجنسية المملة لهافلوك إليس).

ـ ما رأيك في الصحافة كمهنة؟

تُدرب الصحافة اليومية، كونها تتجاوز قدرة التحمل البشرية وطاقتها، الرجال الأدبيين على لَهْوَجة عملهم. ومن الممكن كتابة صفحة التسلية[1] أسبوعيًا على الأقل، وقد قمت بهذا لعشر سنوات، مع الأخذ بعين الاعتبار كلّ المشاق التي كابدتها لأصل إلى حقيقة كل كلمة كتبتها.

هناك خفة لا توصف، وأشدّد على أنها ليست تفاهة بل خفة، شيئًا روحانيًا في ما يتعلق باستنتاجات الكاتب الذي سيواجه معاناة التنقيب عنها بعمق. أنصاف الحقائق متطابقة وثقيلة وخطيرة توحي بفيلسوف كهلٍ أو مسنّ. وغالبًا ما يكون الاستنتاج المنطقي الكامل هو أول ما يخطر في رأس الأحمق أو الطفل. وعندما يشق المنطق طريقه من خلال الطبقات المتعددة لتعقيده، فإنه ليس مفاجئًا فحسب بل مسليًا كذلك.

كانت العشر سنوات من هذا العمل بمثابة التدريب المهني الذي مكنني من إتقان صنعتي. لكنها لم تكن صحافة يومية. لأني لو أدرت أكثر من صفحة تسلية لما تمكنت من تحقيق هذهِ الجودة. وحتى هذهِ الصفحة، ما كنتُ لأقوم بها على هذا الوجه لو لم أُشغل نفسي كثيرًا باقي الأسبوع في فعاليات أخرى لأكتسب كفاءات أخرى وأتخم نفسي بتجارب الحياة كذلك. كسبتُ في بداياتي كصحافي عام 1885 مئة وسبعة عشر جنيهًا إسترلينيًا، حتى وصل في النهاية إلى 500 جنيه إسترليني. وفي ذلك الوقت

(1) صفحة التسلية: صفحة في صحيفة أو مجلة مخصصة للأدب الخفيف كالرواية أو النقد.

كنت قد بلغت السن التي اكتشفت فيها أن الصحافة هي احتياطي للشاب، وليست مصدر رزق للرجل العجوز.

لذا، أختم كلامي بقولي: حتى الصحافة الأسبوعية هي عمل فوق بشري إلا على الشباب. يجب على كبار السن أن يُلَهوجوها، ولا بد أن يعيش الشباب ببساطة وبتكلفة زهيدة إذا أرادوا أن يصلوا بسلطتهم إلى الذروة حيث يُسمح لهم بأن يقولوا ما يفكرون فيه. وبالطبع، لا يفعلون شيئًا من هذا القبيل؛ إذا فعلوا ذلك، فإن الصحافة ستدربهم على الأدب كما لا يمكن لأي شيء آخر أن يفعل، أو يرغب في فعله، لكنه لا يفعل. فهي تُفسدهم عوضًا عن ذلك. فإذا أردت أن تعلن عن مشكلة، سيقوم بها صحافي متمرّس كما لو أنه على وشك حلها، لكنه لا يفعل ذلك أبدًا، لأنه لا يملك الوقت الكافي، ولن يُدفع له أي مبلغ إضافي مقابل الحل، حتى وإن كان لديه الوقت لذلك، وفي النهاية، يدوّنها في تقرير ويهرب بعيدًا عن الحل.

ـ هل كنتَ نباتيًا دائمًا؟ وكيف أصبحت واحدًا منهم؟

كلا. كنتُ من آكلي اللحوم لخمسة وعشرين عامًا. وبالنسبة للبقية، كنت نباتيًا. شيللي هي من فتحت عيني لأول مرة على وحشية نظامي الغذائي، ولكن إنشاء المطاعم النباتية عام 1880 أو بعد ذلك في لندن جعل تغيير نظامي الغذائي قابلًا للتنفيذ.

وقد كان لنباتيتي تأثير غريب على منتقدي أعمالي؛ أنت تقرأ مقالًا يزعم أنه مراجعة لكتابي الأخير وتكتشف أن ما يفعله الناقد حقًا هو الدفاع عن حياته الخاصة مقابل حياتي وأن ما تقرأه حقًا هو ***apologia pro sua vit***

دفاع رجل مجروح بعمق عن حياته[1]. يحاول الناقد متابعة ما يخطه قلمه المحترم، لكن دم ساحة ديبتفورد للمؤن يخنقه، وذبيحة بساتين سوق فارينغتون الفظيعة تنهض أمامه. وما كل هذا العار السيئ إلا تأنيب ضمير شخص آكل للحوم بوجود الرجل الذي يعتبر الدليل الحي على أن السمك واللحم والطيور غير أساسية لتنجح في حياتك وفي الأدب. وجميع بدعي الأخرى مألوفة لهم وغالبًا ما يشاركونها. لكنها مسألة سفك دماء، والدم عصير مميز جدًا[2].

- **هل تؤثر الحياة الزوجية في وجهات نظرك؟**

ماذا تسمي الحياة الزوجية؟ الحياة الزوجية الحقيقية هي حياة الشاب والعذراء اللذين ينتفان الزهرة ويُسقطان التهيور على أكتافهما. ثم يعملان لثلاثين عامًا كأطلس الجبّار[3] ليقضيا ما تبقى من حياتهما كأب وربة بيت. ماذا يمكن لأناس بلا أطفال بدخولٍ مستقلة، تزوجوا في عقدهم الرابع،

(1) apologia pro sua vita: تعني دفاع المرء عن حياته، وهو دفاع القديس جون هنري نيومان (عالم لاهوتي وشاعر إنجليزي. كان أولًا كاهنًا أنجليكانيًا وبعد ذلك كاهنًا كاثوليكيًا رومانيًا وكاردينالًا، وكان شخصية مهمّة ومثيرة للجدل في التاريخ الديني لإنجلترا في القرن التاسع عشر. كان معروفًا على الصعيد الوطني بحلول منتصف 1830، وتم تطويبه قديسًا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في عام 2019) عن آرائه الدينية، نُشر في عام 1864 ردًا على تشارلز كينغسلي من كنيسة إنجلترا.

(2) الدم عصير مميز جدًا Blut ist ein ganz besondrer Saft: عنوان محاضرة لرودلف شتاينر (1861 - 1926)؛ فيلسوف واجتماعي ومفكر ومهندس معماري نمساوي، عُرف كناقد أدبي وفيلسوف ثقافي أيضًا. في بداية القرن العشرين، أسس حركة روحية؛ الأنثروبوسوفيا، بوصفها فلسفة باطنية نشأت من الفلسفة المتعالية الأوروبية ومع صلات بفكر التصوف، ودعا شتاينر إلى شكل من أشكال الفردية الأخلاقية.

(3) أطلس الجبّار: أحد الجبابرة الذي عاقبه زيوس على دوره في تمرده بأن يحمل السماء على كتفيه.

مثلما فعلت أنا، أن يُخبروكم عن الحياة الزوجية؟ لا أعرف أنا شيئًا عنه إلا كمُشاهد.

ـ ما هو رأيك الصريح بـ(ج. ب. ش.)؟

أوه، إنه أحد أنجح خيالاتي، لكنه بدأ يُتعبني قليلًا على ما أظن. ج. ب. ش. يُضجرني إلا حين يقول شيئًا يحتاج إلى قوله بطريقته الخاصة ج. ب. ش. دجّال.

ـ ما تعريفك للفكاهة؟

أي شيء يجعلك تضحك. لكن أفضل أنواع الفكاهة، تلك التي تنزع منك دمعة مع الضحكة.

ـ صِف لي الكوميديا العالمية، من وجهة نظرك، بكلمة واحدة؟

هذا المطلب الطائش للمعنى هو الذي ينتج الكوميديا. أنت تطلب مني أن أصفه لك بكلمة واحدة على الرغم من أننا، ولا بعد مليون سنة، لم نتمكن من رؤية العالم كما هو. نحن ما زلنا أطفالًا فكريًا، وربما هذا هو السبب الذي يجعل تعابير وجه الطفل توحي بشدة إلى فيلسوف محنك. كل طاقة الطفل الذهنية تُمتصّ من خلال صراعه لتحقيق الوعي الجسدي. يتعلم تفسير أحاسيس عينيه وأذنيه وأنفه ولسانه وأطراف أصابعه. ويفرح جدًا بلعبة سخيفة، ويخاف بحماقة من بعبع غير مؤذٍ.

ما زلنا جميعًا أطفالًا في عالم الفكر كما كنا في سنتنا الثانية في عالم الإدراك. والرجال ليسوا رجالًا حقيقيين بالنسبة إلينا، إنهم أبطال وأشرار، أشخاص محترمون ومجرمون. صفاتهم فضائل ورذائل، والقوانين الطبيعية التي تحكمهم هي الآلهة والشياطين. ومصائرهم هي مكافآت

وكفّارات، ومنطقهم صيغة السبب والنتيجة. الحصان خلف العربة في الغالب. يأتون إليّ ورؤوسهم محشوة بتلك الخيالات التي يسمونها «العالم» ويسألونني عن معناها، كما لو كنتُ أنا أو أي أحد آخر إله عالمًا بكل شيء. إنه أمرٌ مضحك أليس كذلك؟ لكن عندما ينبذون، ويعاقبون، ويقتلون، ويشنّون الحرب لفرض دياناتهم البشعة وقوانينهم الإجرامية البشعة بالقوة، تصبح الكوميديا مأساة. ويضطر الجيش والبحرية والكنيسة والبار والمسارح وصالات العرض والمكتبات والنقابات العمالية إلى تعزيز هلوساتهم الظريفة.

هذا يكفي. هل تتوقع مني أن أتحدث عن المطلق، عن الواقع، عن السبب الأول، وأن أجيب عن السبب العالمي. عندما أرى هذه الكلمات مطبوعة، يذهب الكتاب إلى سلة المهملات مباشرة.

عمت صباحًا.

لندن 1901

- 10 -

كيف أصبحتُ خطيبًا

في شتاء 1879، جرّني جيمس ليكي؛ كاتب خزانة الدولة، أيرلندي ومولع شخصيًا بالصوتيات وتعديل لوحة المفاتيح واللغة الغيلية وكل المواضيع الأخرى التي فرضها عليّ، إلى جلسة نقاشية في جمعية تدعى الزيتيكالية، وهي نسخة مُصغرة عن المجتمع الديالكتيكي المعروف سابقًا والتي تأسست لمناقشة مقال جون ستيوارت ميل حول الحرية عندما كان جديدًا. وكان كلا المجتمعين ميّالًا إلى ستيوارت ميل. وفي كليهما كانت هناك حرية كاملة في النقاش السياسي والديني والجنسي. وأدّت النساء دورًا مهمًا في المناقشات، ومن السمات الخاصة أنه في ختام كل خطبة، يمكن للحضور مناقشة الخطيب في ما قاله بدقة.

كانت نبرة الخطاب فردانية شديدة، وإلحادية، وماثوسية، وغنوصية، وداروِنية، وهربرت سبنسرية. وكان كل من هكسلي تاندال وجورج إليوت على رفوف مكتبات كل الأعضاء. وبالكاد أمكن إسكات الدفاع عن قانون الملكية الخاصة للنساء المتزوجات بالقانون نفسه! وكان السخط في محاكمات التشهير بالتجديف أمرًا صارمًا، ولم تكن هناك كلمات أقوى لطعن قضايا مهمة كهذه، كقضية آني بيسانت وشيللي، اللتين حُرمتا من

أطفالهما من قبل رئيس مجلس اللوردات لأنهما وبسبب إلحادهما المزعوم غير مؤهلتين للأمومة. واعتبرت الاشتراكية كمغالطة منسوفة في ما يتعلق بروبرت أوين. ولم يحلم أحدٌ قط بأنه في غضون خمس سنوات ستختطف الاشتراكية الماركسية كل جيل الشباب وتدفع بالديالكتيكية والزيتيكالية إلى كهف الأبدية المظلم. وكانت الفردانية الكوبدنية في الصناعة أساسية.

حين ذهبتُ مع ليكي إلى الاجتماع الزيتيكالي لم أتحدث أبدًا على الملأ، ولم أعرف شيئًا عن الاجتماعات العامة أو نظامها. قد تُوحي تصرّفاتي بالوقاحة، لكنني في الحقيقة كنتُ جبانًا بكل ما في الكلمة من معنى، ومتوترًا وخجولًا بصورة مخزية. ومع هذا، لم أُمسك لساني. بدأت وقلتُ شيئًا في المناقشة، ثم شعرت بأنني تصرّفتُ بسذاجة، وفي الواقع كنت كذلك. شعرت بالحرج الشديد لدرجة أقسمت بأن أنضمَّ إلى الجمعية، وأذهب كل أسبوع، وأتحدّث في كل نقاش وأصبح خطيبًا أو أموت وأنا أحاول. ونفذت هذا القرار.

عانيتُ من عذاب لا يتخيّله أحد. وخلال الخطاب الذي كان المُناقش يُلقيه وأنا أتابعه، كان قلبي يخفق بشدة كجندي تحت نيران العدو لأول مرة. لم أتمكّن من استخدام الملاحظات، وحين أنظر إلى الورقة في يدي لا يمكنني أن أستجمع أفكاري بما يكفي لأفكّ شيفرة الكلمات، ومن بين حججي الأربع أو الخمس لهذه الممارسة المروعة، كنت أنسى معظمها.

لا شكّ في أن الجمعية كرهتني، لأني بدوت بالنسبة إليها شديد الاعتداد بنفسي ومتزنًا لدرجة أنها طلبت مني في الاجتماع الثالث أن

أترأس الجلسة. ووافقت من دون سابق إعداد، كما لو أني كنت الخطيب الرسمي لمجلس العموم. وربما ساورت السكرتير شكوك بشأن خوفي الخفي حين رأى ارتعاشة يدي، وأني بالكاد تمكنت من توقيع المحضر الرسمي لوقائع جلسة الاجتماع السابق.

لا أعتقد أن خطاباتي أرهبت الجمعية بقدر ما فعلت لي، لكني لاحظت أنهم لم يكادوا يهملوها؛ لأن رد خطيب الأمسية، الذي كان يوجهه حصرًا إلى تعليقاتي، نادرًا ما يكون بمسحة تقديرية. وعلاوة على ذلك، على الرغم من جهلي في الاقتصاد، فإني قرأتُ في صباي مقالة «عن الحرية» لجون ستيوارت ميل عن الحكومة النيابية وعن قضية الأراضي الأيرلندية، وكنت متشبعًا بأفكار دارون وتاندال وجورج إليوت كحال جمهوري بمعظمه. ومع ذلك، كان كل موضوع يخطر على بالي فجأة بزاوية معينة ينتج تأملات جديدة لجمهوري.

أول نجاح لي كان حين أشادت الجمعية بالفن، الذي كانت تجهله تمامًا، وخصصت أمسية «بحث في الفن» ألقته سيدة ترتدي ثوبًا أنيقًا يُحاكي صيحات الموضة الحديثة في مجاميع موريسون للأزياء إذ ذاك. وهزمتهم في هذا الاجتماع بسهولة، حتى إن كثيرًا من الأعضاء اعترفوا لي لاحقًا بأن هذا الأداء هو الذي جعلهم يعيدون النظر في انطباعهم الأول عني كأحمق متعالٍ شَكِس. لكني ثابرت بعناد، وأكثرت التردّد على كل الاجتماعات في لندن حيث تلت المناقشات المحاضرات. وتحدثت في الشوارع وفي الحدائق العامة، وفي المظاهرات، وفي أي مكان وكل مكان ممكن. باختصار، غزوتُ الاجتماعات العامة مثل ضابط مُبتلى بالجبن، ينتهز كل فرصة ليكون تحت نيران العدو كي يتغلب على خوفه ويتعلّم مهنته.

أقمتُ أمسيات أدبية هادئة وأقل رسمية في جامعة الكلية في اجتماعات جمعية شكسبير الجديد التابعة لـ ف. ج. فيرنفال[1]، من تلك التي تُقام في جمعية براوننغ، وهي تجمّع معروفٌ لمحبّي الجمال وأصحاب الشعر الطويل، لكنه في الواقع عبارة عن تجمع ناقشت فيه النساء المسنات الإنجيليات دينهن مع فورنيفال، يُدعى المسيحي نامي العضلات (مصطلح عامي لكاهن بروتستانتي رياضي) والذي لم يستطع أن يغفر ليسوع لأنه لم يقاتل في الجثمانية[2]. وعندما أسس جمعية شيللي انضممت إليها، وفي أول اجتماع عام أعلنتُ نفسي، مثل شيللي، اشتراكيًا ومُلحدًا ونباتيًا؛ فانسحبت سيدتان من البراوننغ على الفور. وانضممت إلى مجتمع نقاش آخر ممتع جدًا يسمى بيدفورد، أسسه ستوبفورد برووك، الذي لم يتخلَّ بعد عن رعيته في أبرشية بيدفورد ليكرّس نفسه للأدب. وشاركتُ في نقاشات كل هذهِ الاجتماعات. وسرعان ما تلاشى توتري المفرط. وكان أحد الاجتماعات العامة التي أُطاردها في قاعة نصب المنشقّ التذكاري في شارع فارينغدون عام 1884. وكان متحدث الأمسية وسيمًا وبليغًا جدًا، هنري جورج، الحواري الأمريكي لتأميم الأراضي والضريبة الواحدة.

ألقمني حجرًا وأبعدني عن جدل اللاأدري العقيم إلى الاقتصاد. قرأت

---

(1) فريدريك جيمس فورنيفال (1825 ـ 1910): أحد مؤلّفي قاموس اللغة الإنجليزية الجديد وعالم لغة إنجليزي. أسس عددًا من الجمعيات العلمية في الأدب الإنجليزي المبكر، من ضمنها جمعية شكسبير الجديد وجمعية براوننغ وجمعية شيللي، وقدّم مساهمات تحريرية رائدة وضخمة لهذا الموضوع، كان أبرزها نسخته المتوازية من حكايات كانتربري. وكان أحد مؤسسي ومدرسي كلية لندن لرجال العمل وناشطًا مدى الحياة ضد الظلم.

(2) الجثمانية: بستان شرقي بيت المقدس، صلّى فيه السيد المسيح ليلة اعتقاله.

كتابه «التقدم والفقر» وذهبت إلى اجتماع الاتحاد الديمقراطي الماركسي لهيندمان، حيث نهضتُ واعترضت على رسمهم الرنجة الحمراء عبر النهج الذي اتبعه جورج. صُرفتُ يومها بازدراء كراهب مبتدئ لم يقرأ المجلد العظيم الأول لكتاب ماركس «رأس المال». فقرأته على الفور، وعدت لأعلن تحويلي الكامل به. تغير الازدراء مباشرة إلى رهبة. لأن تلاميذ هيندمان نفسهم لم يقرؤوا الكتاب؛ لعدم توفره إلا بنسخته الفرنسية لديفيل في غرفة قراءة المتحف البريطاني، ملاذي اليومي. ومنذ تلك الساعة أصبحتُ المتحدث الرسمي باسم كتاب العقيدة، ولم أعد مجرد متدرّب يحاول إتقان فن التحدث أمام الجمهور.

تقدمت على الفور بطلب الانضمام إلى الاتحاد الديمقراطي، ولكني سحبت طلبي عند اكتشافي المجتمع الفابي الذي تأسس حديثًا، والذي لاحظت أنه وسط اجتماعي ملائم أكثر بوصفه مجموعة متعلّمة تابعة للنخبة المثقفة من الطبقة الوسطى، طبقتي في الواقع. ويمكن أن يكون تجمع هايندمان للحرفيين الماركسيين المزيفين مجرد عقبة بالنسبة إلي.

وبعد تحولي، سرعان ما أصبحتُ معروفًا بما يكفي كخطيب اشتراكي، وانتفت حاجتي إلى البحث عن مزيد من المناظرات العامة. بل إنهم أصبحوا يسعون لمناظرتي. وقد بدأ هذا عندما قبلت دعوة من نادٍ راديكالي في وولويتش لإلقاء محاضرة. في البداية، فكرت في قراءة محاضرة مكتوبة، لأنه بدا من الصعب التحدث لساعة بدون نص وأنا لم أتحدث، حتى يومها، إلا لقرابة العشر دقائق وفي المناقشات فقط. ولكن إذا كنتُ سأُلقي محاضرة عن الاشتراكية مدتها ساعة، فستكون الكتابة خيارًا مستحيلًا لضيق الوقت. لذا تحتّم عليّ أن أرتجل. كان عنوان

المحاضرة: (اللصوص)، وكانت برهنة على أن صاحب الملك ذا الدخل غير المكتسب يُلحق ضررًا بالمجتمع بنفس القدر الذي يفعله اللص. وتحدثت لساعة بسهولة ويسر، ومنذ ذلك الحين وأنا أرتجل على الدوام.

استمر هذا الحال لاثنتي عشرة سنة، ألقيتُ فيها مواعظي عن الاشتراكية ست مرات في الشهر. وكنت أُلقي خطبي أينما ومتى ما طُلب مني ذلك. وكنت أعتمد نظام الأولوية بحسب الأسبقية: عندما أتلقّى طلبًا لألقي محاضرة، أعطي مقدم الطلب أول موعد أكون فيه شاغرًا، سواء كان ذلك لركن شارع، أو صالونًا عامًا، أو سوقًا، أو القسم الاقتصادي للرابطة البريطانية، أو معبد المدينة، أو قبوًا أو غرفة رسم. وتنوّع جمهوري من العشرات إلى الآلاف. وكنت أتوقع أن أواجه معارضة، لكني لم أكد أحصل على أي منها. لمرتين فقط، في الصعوبات التي أثارتها محاولات الشرطة لوقف اجتماعات الشوارع الاشتراكية (كانوا دائمًا ما يفشلون في النهاية، لأن الطوائف الدينية، النشطة بنفس القدر في الهواء الطلق، ساعدت الاشتراكيين على مقاومتهم)، وكنت قاب قوسين أو أدنى من أن أُزج في السجن، لأول مرة في شارع دود في دوكلاند، حيث أذعنت الشرطة في صباح اليوم الذي تطوعت فيه لتحديهم. وفي المرة الثانية، بعد سنوات عدة في جادة نهاية العالم في تشيلسي. جادلني أحد أعضاء جمعية اشتراكية منافسة بشأن نخلة الشهيد، وعند التصويت، غلبني بصوتين، ما أراحني بشكل كبير. واستغرقت أطول خطبي الرسمية أربع ساعات في الهواء الطلق صباح يوم الأحد أمام الحشود في ترافورد بريدج في مانشستر. وألقيت واحدة من أفضل خطبي في هايد بارك في السيول المطيرة لستة من رجال الشرطة الذين أرسلوا لمراقبتي، بالإضافة إلى سكرتير الجمعية

الذي طلب مني التحدث، وهو يحمل مظلة فوق رأسي. قررت أن أثير اهتمام رجال الشرطة هؤلاء. مع أن واجبهم كان الإصغاء إليّ؛ عملهم المعتاد، وبعدما تأكدوا من أني غير مؤذٍ، لم يعيروني أي اهتمام إضافي. سليتهم لأكثر من ساعة، ويمكنني رؤية قبعاتهم المقاومة للماء وهي تلمع تحت المطر حين أُغلق عيني.

لم أتقاضَ أية أتعاب مقابل كلامي. يحدث أحيانًا أن تعرض عليّ جمعيات الأحد الريفية العشرة جنيهات المعتادة مقابل إلقاء النوع المعتاد من المحاضرات، وتجنب الخوض في مواضيع السياسة والدين المثيرة للجدل. وكنت أجيبهم على الدوام بأني لا ألقي إلا تلك المحاضرات التي تتعلق بمسائل السياسة والدين المثيرة للجدل، وبأن أتعابي لا تتجاوز تذكرة قطار من الدرجة الثالثة في حالة كان المكان أبعد مما أستطيع دفع تكاليفه على نفقتي الخاصة.

بعد ذلك، ستؤكد لي جمعية الأحد أنه بموجب هذه الشروط يمكنني أن أحاضر عن أي شيء أحب وكيفما أشاء. ومن حين لآخر، لتجنب إحراج المحاضرين الآخرين الذين يعيشون على إلقاء المحاضرات، تمت تسوية الحساب عن طريق إدخال قرض مؤجل وائتمان: أي، يُقيد لي حساب بالرسوم والنفقات المعتادة، وأعيده كتبرع للجمعية. وبهذه الطريقة، أمّنتُ حرية الكلام المثالية، وتسلحتُ ضد الاتّهام بكوني داعية محترفًا يُثير الاضطرابات السياسية.

على سبيل المثال، في انتخابات عام 1892، كنت ألقي خطابًا في دار بلدية دوفر عندما صعد رجل وهتف للجمهور يطلب منهم عدم الاستماع لمحرض محترف مأجور من لندن. عرضت عليه على الفور شراء

أتعابي مقابل خمسة جنيهات إسترلينية فتردد، ونزلت إلى أربعة جنيهات إسترلينية، ثم عرضت عليه خمسة شلنات، ونصف كراون (شلنان وستة بنسات)، وشلنًا، وستة بنسات. وحين رفض شراءها، ولو ببنس واحد، صرّحتُ أنه يعرف جيدًا أنني هنا على نفقتي الخاصة. ولو لم أفعل هذا، لكان من المحتمل أن ينهار الاجتماع، وقد كان اجتماعًا صعبًا وعدائيًا (كانت دوفر دائرة فساد سيئة السمعة).

تعلّمت ضرورة هذا الموقف التطوعي بأكمله من متحدث محترف عينته رابطة دوق أرغيل للحرية والدفاع عن الممتلكات كي يتبعني في كل اجتماعاتي ويفند آرائي مقابل ثلاثة جنيهات في الأسبوع. وبعد سفرنا معًا، سرعان ما أصبحت معرفتنا لطيفة. كان يلقي نفس الخطاب ودائماً ما كنت أرد عليه بنفس الرد المحطم. وعندما حُلّت رابطته، عرض خدماته على جمعية فابيان، وكان مندهشًا عندما علم أن المتحدثين فيها لا يُدفع لهم، وأنني كنت في الواقع أُحاضر «دون مقابل».

ذات مرة، في قاعة القديس جيمس في لندن، في اجتماع لصالح حق المرأة في التصويت، تكللت مغامرتي بحيلة طريفة بالنجاح. قبل أن أتحدث مباشرة، دخلت فرقة معادية إلى الغرفة، ورأيت أن عددهم يفوقنا وأنهم سيجرون بعض التعديلات ضدنا. كان كل المتطفلين اشتراكيين بميل مناهض للفابية، بقيادة رجل كنت أعرفه جيدًا، وكان في ذلك الوقت على حافة الجنون تقريبًا، منهكًا من التحريض العام ومخاوفه الشخصية. خطر لي أنه بدلًا من إجراء تعديل، يمكننا حثهم على تفريق الاجتماع، وسيجلب هذا العار لهم، وتبقى السمعة الحسنة لنا.

ألقيتُ خطابًا كان من شأنه أن يجعل الأسقف يشتم والأغنام تقاتل.

أسرع القائد الذي استشاط غضبًا لأقصى حد يفوق احتماله، بجنون، نحو المنصة ليجيبني. فاقتحم أتباعه، الذين ظنوا أن زعيمهم يقود هجمة، المنصة بعنف وفضّوا الاجتماع وأعادوا تشكيله ونصّبوا زعيمهم رئيسًا له. ثم طالبت بالاستماع، وحصلتُ عليه بحسب الأصول كمسألة عادلة، وبذا حصلت على أشواط أخرى بتعويض كبير عن خسارتي. لم يحصل مكروه ولم يُضرب أحد، لكن صحف صباح اليوم التالي وصفته بأنه مشهد من العنف والتدمير الذي لم يترك شيئًا يرغب فيه طالب متعطش للدم.

لم أتحدَّ أيّ أحد لمناظرة عامة معي مطلقًا، إذ بدا لي أنه تصرف غير منصف أن يتحدى خطيب مخضرم متحدثًا مبتدئًا مقارنة به ليخوضا معركة كلامية، لا قيمة لها أكثر من أي نوع آخر من المبارزات. لكني الآن نادم، حين كنتُ أنا المبتدئ، على المناظرة بيني وبين تشارلز برادلاف، التي حاولت الرابطة الاشتراكية (مجموعة موريس) تنظيمها لكنها لم تؤتِ ثمارها. كان برادلاف مقاتلًا بطوليًا راعدًا، وما كنتُ أنا سوى ملاكم بوزن خفيف يحاول هزيمة خصمه الثقيل الذي فاز في كل نزالاته السابقة. ولكن على الأقل يمكنني أن أقول ما في جعبتي: تحدّته الرابطة الاشتراكية للمناظرة، واختاروني ممثلًا لهم على الرغم من أني لست عضوًا فيها. كنتُ خائفًا، لكني لم أتراجع. غير أن برادلاف وافق بشرط أن ألتزم بكتيبات وكلام الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي، وهو هيئة معادية بشدة لجمعية فابيان. وبالطبع، كان عليّ أن أتركه يحدد الشروط التي تحلو له من دون أن أعيرها أية أهمية، لكني كنتُ يافعًا لأدرك ذلك؛ سألته ببساطة: «هل ستخدم الاشتراكية الشعب الإنجليزي؟»، وسيقبل هذا بشرط أن تعني الاشتراكية ما يعنيه اتحاد هايندمان، ورفضت أن ألتزم بذلك. وبذا لن تنجح المناظرة،

كما أعتقد أنه كان يقصدها، وهو أمرٌ لصالحي، لأنني كنت متشككًا جدًا في قدرتي على تقديم أي عرض أمامه.

لم أسامح نفسي على هذهِ الفرصة الضائعة، لكنها كانت أقل جبنًا من قلة الثقة بالنفس التي كنت لا أزال أعاني منها في بواكير حياتي. لأني كنتُ متحدثًا أفضل وخصمًا أصعب مما كنت أعلم. وقد واجهتُ برادلاف على أرضه في قاعة العلوم في ستي رود. كان مقعدي بعيدًا، وما إن نهضت ونطقت جملتين حتى انتبه لي برادلاف وقال: «هذا السيد متحدث. تعال واصعد إلى المنصة». وفعلت ذلك، مُشَيّعًا بنظرات فضولية. وقد خصص برادلاف معظم ردوده في هذهِ الأمسية لخطابي. من الواضح أنه كان يؤمن بقدراتي أكثر مما آمنتُ بها. وقد سرّني تخيل أنه رفض تحديد مناظرة معي كما رفض إدموند كيين التمثيل مع ماكريدي.

ناقش لاحقًا حركة «ثماني ساعات في اليوم»[1] مع هايندمان الذي كان واثقًا من قدرته على تحطيم خصمه. ولم يتمسك أي منهما بالموضوع، والخلاصة: لم يتمسك أي منهما بالموضوع؛ وكانت النتيجة غير حاسمة لدرجة أن كلا الطرفين كان غير راضٍ، وتم ترتيب أن أُعيد مناقشة السؤال مع الراحل ج. ف. فوت؛ خليفة برادلاف في رئاسة الجمعية العلمانية الوطنية، وهو متحدث من الدرجة الأولى، في قاعة العلوم، وقد تحدثنا بحماس لليلتين. وكنّا متعادلين بسمعتنا الخطابية الطيبة. لكني كنت أكثر أُلفة في الاقتصاد من فوت، وأعتقد أني كنت

(1) Eight Hour Day: حركة 8 ساعات في اليوم، أو 40 ساعة في الأسبوع، وتعرف أحيانًا بحركة الوقت القصير: هي حركة اجتماعية تهدف إلى تقليل ساعات العمل اليومية ومنع التجاوزات والانتهاكات. تعود أصولها إلى الثورة الصناعية في بريطانيا.

سأفوز بالحكم لو أن تصويتًا جرى ليلتها. وقد ذُكرت هذهِ المناظرة في كُتيب نشره جورج ستاندرنغ.

قدّم لي التحدث إلى العامّة مؤهَلات ضرورية جدًا في العمل السياسي: سِمَة اللجنة. أيًا كان المجتمع الذي أنضمّ إليه، كانوا يضعوني على الفور في اللجنة التنفيذية. في البداية، فعلت ما يفعله المؤلفون عادة في الأناركية البوهيمية والفردية، عندما يُهزمون في أي قضية ينسحبون. فعلت ذلك عندما رفضت رابطة استعادة الأراضي إضافة الاشتراكية إلى برنامجها بناء على اقتراحي. ولم أفعل ذلك مرة أخرى. تعلمتُ سريعًا قاعدة ألّا أنسحب أبدًا، وتعلمت أيضًا أن لجنة المحرضين دائمًا ما تقرر بالإجماع اقتناعها بأن شيئًا ما يجب فعله، ولكنهم غامضون جدًا في ما يخصّ (يجب فعله بشأن ماذا؟)، كانوا يسهبون في الحديث من دون أن يصلوا إلى استنتاج، والعضو الذي لديه شيء قاطع ليقترحه، يحتفظ به حتى يعجز الآخرون الآخرين ويكون سيد الموقف حتى عندما لا يتفق معه أحد تمامًا. أما هذا أو لا شيء، ويجب القيام بشيء حيال ذلك. وهذهِ هي الطريقة التي يصبح فيها رجل من الأقلية قائدًا. وأنا كنتُ من الأقلية.

توضح قلة تدريب اللجان وتقنيات المنصة كيف يشل ويضعف حتى أكثر المفكرين موهبة، كما هو الحال مع هـ. ج. ويلز، الذي كانت لي معه مناظرة شهيرة حين حاول الاستيلاء على مجتمع فابيان بضربة واحدة. وكمتحدث وعضو لجنة، كانت لي الأفضلية عليه بعشر سنوات، في حين كان لا يزال مبتدئًا تمامًا. وأن أقول إني دمرته هو تواضع من جانبي، فقد جنّبني عناء ذلك وحطّم نفسه بنفسه. كل ما استطاع فعله هو إساءة التصرف، ولحسن حظه أنه فعلها بشناعة بحيث استشف المجتمع الموقف بعقلانية،

وبينما كان صرفه مستحيلًا من الناحية التكتيكية، لم يقل احترامهم له كأسوأ ريادي اشتراكي ولا اعتبروني أفضل لتفوقني كفنان منصة.

يجب ألّا أدع الخُطباء المبتدئين أو من في بداية تطورهم يفترضون أن تقنياتي كمتحدث اكتسبتها من الممارسة وحدها. صحيح أن الممارسة والتدريب خلّصاني من التوتر والعصبية وعوّداني على التحدث إلى الجموع كما أخاطب أشخاص محدودين، وقد ذكرت في مكان آخر كيف تعرفت إلى العجوز ريتشارد ديك، مغني الأوبرا وعازف الكمان الأجهر المتقاعد من الألزاس الفرنسية، الذي اعتقد بأنه اكتشف طريقة جديدة للغناء الجميل *bel canto*، وقد تخيل أنه لن يجدد مهنته كمغنٍّ بعد أن أتقنها تمامًا فحسب، وإنما سيبعث الحضارة معها من جديد، ومات فقيرًا معدمًا في مستشفى كلية الجامعة. في حين، في هذهِ الأثناء، كوني طالبًا لدى ديلسارتي، تعلمتُ منه: لكي يكون الخطيب واضحًا ومفهومًا بين الملأ، عليه أن يتعلم حروف الأبجدية من جديد ويفصل الحروف الساكنة عن الملفوظة بوضوح، ويميز حروف العلة الأجنبية عن حروف الإدغام البريطانية. وبناءً على ذلك، تدربتُ على الحروف الأبجدية كما يتمرن المغني على المقاييس الموسيقية حتى أصبحت في مأمن من قول «عجبًا!هاأناأقرضكسيفيالحاد» بدلًا من «عجبًا! ها أنا أقرضك سيفي الحاد»، ولا أتخيّل أني حين أقلد نطق اللهجات المحلية الأوسع انتشارًا أن تكون مدروسة أقل من الخطبة الكلاسيكية. على الخطباء أن يأخذوا دروسًا في فن الخطابة على الدوام عند توفر أستاذ صوتيات كفوء، لكن الفن يجب أن يُخفي تكلُّفَه، وحين يمتهن ممثل كبير تدريس التمثيل، وهو لا يعرف شيئًا عن تدريب صوتيات الكلام، يجب تجنبه مثل الطاعون.

في النهاية، لم أعد أستطيع التعامل مع كل الدعوات التي تصل إليّ، وأصبح تكرار نفس الشخصيات والنقاشات مرهقًا. كنتُ معرضًا لخطر تكرار نفسي بأن أُصبح ثرثارًا وفي جعبتي خطاب واحد. رأيتُ مصير كثيرٍ من منظمي اتحاد التجارة الذين يبدأون ممتنعين عن معاقرة الخمر، وبعد أن تدفعهم رغبتهم في إثارة عواطف جمهورهم الجديد بنفس الخطاب القديم، يضطرون إلى إثارة أنفسهم بالشراب.

بحلول عام 1895، لم أعد بكامل تألقي وقوتي، وتدهورت صحتي، وتبعها زواجي عام 1898 الذي أنهى مسيرتي كنجم منصة الأحد. ومنذ ذلك الحين حتى الآن، لم ألقِ خطبة إلا في مناسبات خاصة، أو في اجتماعات الجمعية الفابية العامة وفي مجمع القديس بانكرس بورو الكنسي، الذي انتخبوني فيه عندما كان غرفة كنيسة فقط. لكنني لم أنسَ تقنيتي المكتسبة كفنان منصة بل استمرت حتى تقاعدي الأخير من العروض الشخصية عام 1941، في سنتي الخامسة والثمانين.

- 11 -

صداقات مثمرة

بعد أسابيع عدة من انضمامي إلى الجمعية الزيتيكالية، أذهلني المتحدّث الذي ظهر مرة وشارك في النقاش. كان في الحادية والعشرين من عمره، طوله أقل من المتوسط، يداه وقدماه صغيرة، ومظهره العام يوحي بأنه أحد تحسينات نابليون الثالث بأنفه وشاربه إمبراطوري الشكل. كان جبينه ناعمًا، ورأسه طويلًا، وعيناه مبنيتين فوق جهازي كلام متطورين جدًا (وفقًا لعلماء علم الأصوات)، وشعره سميكًا وقويًا بشكل ملحوظ. كان يعرف كل شيء عن موضوع النقاش، بل يعرف أكثر من المحاضر وأكثر من أي شخص موجود. يبدو أنه قرأ كل ما كتب على الإطلاق، ويتذكر كل الحقائق التي دارت حول هذا الموضوع. كان يستخدم الملاحظات ويقرأها، ثم يشطبها واحدة تلو الأخرى ثم يرميها. وينتهي برباطة جأش ووضوح بدا لي وكأنه معجزة.

كان سيدني ويب هو الرجل الأكثر ذكاءً في إنجلترا. وأحكم شيء فعلته في حياتي هو إجباره على صداقتي والمحافظة عليها. وبالنسبة إليه في ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين، لم أكن مجرد شو الذي لا طائل منه وإنما لجنة ويب وشو.

لقد أثبت ويب، الذي أصبح فيما بعد بارون باسفيلد في باسفيلد كورنر، المدفون الآن في وستمنستر آبي بناءً على طلبي العاجل، أنه أحد أكثر رجال الإدارة والمؤرخين تحسينًا للعالم. وقد تكهّنت بهذا بطريقة أو بأخرى حين كنّا لا نزال نكرات. وبصفته تلميذًا لجون ستيوارت ميل، فقد أدرك اليقين الاقتصادي بأن الملكية الخاصة في مصادر الإنتاج بالإضافة إلى حرية التعاقد يجب أن تنتج بلوتوقراطية وجهًا لوجه مع البروليتاريا، واستبدال حرب الطبقات بديمقراطية حقيقية.

كان آدم سميث ومالثوس وريكاردو وأوستن وماكولاي يعرفون ذلك، لكنهم لم يروا بديلًا. بينما كان ويب، بصفته موظفًا حديثًا في الخدمة المدنية من القسم العلوي، يعرف أن هناك بديلًا إصلاحيًا ملائمًا تمامًا في تأميم مصادر الإنتاج، والإدارة المباشرة للصناعات الحيوية بواسطة الدولة، وكانت في متناول يده قائمة أمثلة نجاح لا تنتهي. وعلى هذا الأساس، كان اشتراكيًا مقتنعًا.

وكان الفرق هائلًا بين شو مع ذكاء ويب ومعرفته وخبرته الرسمية وشو بمفردة. ولكن بما أني كنتُ، وما زلتُ، مسرحيًا عنيدًا محتالًا وويب كان أبسط العباقرة، غالبًا ما أكون وسط خشبة المسرح ويكون هو خفيًا في صندوق التلقين.

وساعد تحوّلي إلى الاقتصاد عن طريق هنري جورج على تواصلي مع هيئة جورجيت التي تسمّى اتحاد إصلاح الأراضي، والتي بقيت لسنوات عدة باسم الرابطة الإنجليزية لاستعادة الأراضي. التقيت هناك بجيمس لي جوينز، أستاذ في جامعة إيتون، وسيدني أوليفييه، وهنري هايد تشامبيان، بالإضافة إلى بعض رجال الدين الاشتراكيين المسيحيين، بما في ذلك

ستيوارت هيدلام، وسايمز من نوتنغهام، مع سارسون وشاتلوورث، الذين تنظموا بصفتهم نقابة القديس ماثيو. وقد جادل سايمز، كما أتذكّر، بأن تأميم الأراضي سوف يحسم كل شيء، وأجبته، لو استمر الاستيلاء على رأس المال سرًا، سيظل سايمز «قسيس سفينة القراصنة»، وقد اعتبر سارسون، بناءً على البند الأول من تعاليم كنيسة إنجلترا، أن الأنجليكانية كانت ملحدة. وأصبح معروفًا باسم زميل (سيسيل شارب) في مجموعتهما من أغاني سومرست الشعبية.

وجوينز الآن نباتي وإنساني وشيلياني[1]. وقد حُرم من منصبه في إيتون لأنه قام بجولة في أيرلندا مع هنري جورج، وقبضت عليهما الشرطة، التي افترضت أن الاثنين مبعوثان لعشيرة ناغايل[2]. وكانت أخت جوينز متزوجة من الأستاذ المسؤول عن السكن في أقسام إيتون الداخلية، هنري سولت، كان نباتيًا أيضًا وإنسانيًا، وشيليانيًا ودي كوينسيًا، يمقت العمل في إيتون، وما إن جمع المال الكافي ليعيش في كوخ بسيط في الريف (لم يكن لديه أطفال) حتى ترك وظيفته وغادر إيتون بازدراء وبلا رجعة وأسسَ رابطة إنسانية.

أصبحنا أنا وهو وزوجته، كايت سولت التي اعتدت أن أعزف معها لحنًا ثنائيًا على البيانو الكبير الصاخب الذي انحدر من إيتون إلى كوخ في سوري، أصدقاء مقربين جدًا. وقد وصف مقالي الموسوم «يوم أحد في

(1) تسمية أو صفة تعود لبيرسي بيش شيلي (1792-1822)، وهو شاعر رومانسي إنجليزي.
(2) Clan na Gael: منظمة جمهورية أيرلندية وجدت في الولايات المتحدة في أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين، خلفًا لجماعة الأخوية الفينية ومنظمة شقيقة لجماعة الأخوية الجمهورية الأيرلندية.

تلال سوري» في جريدة بال مال الرسمية، زيارتي الأولى لهم في الريف، وقد كتبت العديد من مشاهد مسرحياتي (السعيدة وغير السعيدة Pleasant and Unpleasant)[1] في الخَلَنْج أثناء زياراتي لهم. وها قد عرفتم ما يربطني بالإنسانيين. كان إدوارد كاربنتر صديقًا حميمًا لمنزل سولت، وكُنا نسميه البربري النبيل. وهو أيضًا عزف مع كايت، وأقنعني بارتداء الصندل الذي تخلصت منه بعد أن انتهت أول مشية طويلة فيها بأقدام تنزف.

ضمن هذهِ الحلقة، لم يكن هنالك شك حول هنري جورج أو كارل ماركس، وكثير منه في ما يخص والت ويتمان وثورو. وأسوأ ما حصل هو وفاة جوينز الذي كان يعاني من اضطرابات قلبية، وقتله التثبيت الطبي والتحفيز الكحولي، وهو علاج فظيع ومميت بشكل واضح لدرجة أني لن أغفر لمهنة الطب هذا، على الرغم من رواجه حتى يومنا هذا، وقد ترك سولت مجلدًا فيه ترجمات ممتازة لأغاني الثورة الألمانية عام 1848، ونشر العديد من الدراسات حول شيللي وجيمس ثومبسون وجيفريز ودي كوينسي. وانتهى بذكريات حياته في إيتون وترجمة فيرجيل. وقد عنون سيرته الذاتية «سبعون عامًا بين المتوحشين».

بالعودة للحظة إلى اتحاد إصلاح الأراضي، حيث التقيتُ بسيدني أوليفيير هناك؛ كان موظفًا من القسم الأعلى في المكتب الكولونيالي، وكذلك الحال بالنسبة لسيدني ويب. كانا هو وسيدني ويب كاتبين مقيمين وصديقين حميمين. وحين تأسست جمعية الفابية عام 1884،

---

(1) إصدار ضمّ أول مسرحيات برنارد شو، المسرحيات غير السعيدة: بيوت الأرامل، وزير النساء، ومهنة السيدة وارن. والمسرحيات السعيدة: الإنسان والسلاح، وكانديدا، ورجل الأقدار، ولا يمكنك الجزم أبدًا (وبترجمة أخرى عائلة من ماديرا).

جذبني اسمها وكراستها الدعائية الموسومة (لمَ هناك الكثير من الفقراء؟) وأقنعتُ ويب بالانضمام بعد أن أقنعني ماركس بأن ما تحتاج إليه الحركة لم يكن التنظير الهيغلي بل كشف النقاب عن الحقائق الرسمية للمَدَنية الرأسمالية، وكان ويب بارعًا فيها. وأولى مساهمته كرّاسة دعائية بعنوان «حقائق للاشتراكيين» كانت البداية الفعلية للفابية.

وقد جمع أوليفيير، الذي مات كرجل نبيل في 1943، بين قدرة إدارية من الدرجة الأولى ونوايا حسنة ثابتة وغياب استبدادي تام لأي شكل من أشكال الضمير. هكذا وصفته في مساهمتي في كتابة سيرته الذاتية. وقد كوّن صداقات في أكسفورد مع غراهام والاس، الذي انضم إلينا فيما بعد. ولعدة سنوات، كان قادة المكتب السياسي أو مجلس التفكير في سياسة فابيان هم ويب وأولفيير ووالاس وشو وعضو حزب الديمقراطيين المحافظين هوبير بلاند.

وبما أن زملائي كانوا رجالًا يتمتعون بشخصية استثنائية، سرعان ما تمكنت من الكتابة ضمن صلاحيات الجمعية الفابية ومعرفتها، والتي أثرت صفحتي الهزلية وأي نتاج أدبي آخر لي وجعلته مختلفًا تمامًا عن أي شيء يمكن أن ينتجه الناسك الأدبي العادي. وهكذا، فإن شو الاستثنائي اللامع والمشهور كان في الواقع رائعًا واستثنائيًا لأنه كان يملك في مكتب فابيان السياسي دَرّاسَة نقدية لا تضاهى لأفكاره. وحين بدوت أكثرهم عظمة وإبداعًا، كنتُ في كثير من الأحيان مجرد ناسخ وناطق بلسان حالهم بموهبة أدبية ودرامية استثنائية إلى حدٍ ما، هُذبت بالممارسة الشاقة والعنيدة، وقد غربلني أصدقائي من الهراء والجهل والبذاءة الريفية، لأننا اتفقنا على انتقاد بعضنا بلا هوادة.

ومع ذلك، كانت هناك اضطرابات مزاجية بالغة لا بأس بها في كابينة جمعية فابيان، وفي الجمعيات الاشتراكية الأخرى كانت الانفصالات والشقاقات تحدث بشكل متكرر؛ لأن الإنجليز ميّالون للشجار ومشاكسون جدًا. وأظن أنّي كنت مفيدًا في تهدئة هذه الصراعات بلباقتي الأيرلندية التي بدت في إنجلترا لا تُطاق لافتقارهم إليها.

وكنت أخون ثقة الجميع كلما حصل شجار، بتحليلي المشكلة والتصريح بوضوح مستخدمًا أكثر الكلمات مغالاةً وتضخيمًا. والنتيجة: أن كلا الطرفين يوافق على أنه كان خطأي، ويتهمونني بالإجماع بأني مؤذٍ ومتهور، لكنهم يسامحونني لكوني معتوهًا أيرلنديًا.

وأنا أطري على نفسي حين أقول إن البقاء الفريد لجمعية فابيان بين حطام منافسيها المنسيين، راشحين جميعًا بازدراء بالغ، لم يرجع إلى سياستها فحسب، ولكن إلى ذلك العنصر الأيرلندي الوحيد في إدارتها في بواكير مسيرتها.

وقد ساهمت صداقات جمعية فابيان كثيرًا في صنع ج. ب. ش. الرائع والمتألق.

ـ 12 ـ

هل أنا شخص متعلّم؟

لا يسعني التكرار أكثر من اللازم أني على الرغم من كوني لا أمتلك مؤهلًا أكاديميًا فإني في الواقع أكثر علمية من معظم الباحثين الجامعيين. فقد نشأتُ في منزل موسيقي، والموسيقى كانت «الموسيقى المكتسبة» التي بدأت بالنسبة إلي مع هاندل، و«الموسيقى المسرحية» التي بدأت مع غلوك وموزارت، وهما يشكلان هيكل فنون الثقافة الحديثة. وهو شيء لا يمكن لأدب اللغات الميتة أن يطمح إليه أو يتظاهر به إلا في الترجمات العظيمة لجيلبرت موري، المكتوبة بلغة إنجليزية حديثة لا تختلف عن أي أعمال أصلية مكتوبة بلغتنا. وتذكرنا بأن شكسبير كان أيضًا مترجمًا ومُغيرًا لشكل القصص القديمة وليس مخترعها الأول. وعلى الرغم من أن عائلتي، التي قد نقول من باب الأدب إنها لم تكن من النوع المُحب، إلا أن هذا لا يهم بالنسبة إلى طفل يمكنه غناء «لكِ يا عزيزتي *A te, O cara*» و«أصوات البوق الجريئة *Suone la tromba intrepida*» قبل أن يُتقن تعاليم الكنيسة الشفهية. وكان فيها من العاطفة والشجاعة ما يكفي لأي طفل.

لم يتوقف هذا التعليم أبدًا. انتقلت من روسيني ومايربير وفيردي إلى

فاغنر، ومن بيتهوفن إلى سيبيليوس، ومن التخفيفات البريطانية لهاندل ومندلسون إلى الموسيقى الإنجليزية الأصلية لإيلغار وفوغان ويليامز، ومن نمط النغمة الكاملة لديبوسي وأسلوب السُّلَّم اللّوني[1] لشونبرغ إلى تجارب سيريل سكوت في الفوضى التقنية التي نشأت بوصفها نتيجة حين تصبح التتابعات المحظورة والخلافات المعلقة وغير المهيأة و«العلاقات الزائفة» للكتب القديمة هي الموضة الرائجة. وقد أثبت كثير منها صحة مبدأ أوسكار وايلد «تجنّب أحدث صيحات الموضة وإلا أصبحت عتيق الطراز خلال ستة أشهر»، وحين عزف فاغنر البعد الموسيقي الكبير التاسع علينا على حين غرة في تانهاوزر ومن دون تحضير. صممنا آذاننا. وتابع بالمثل مع البعد الثالث عشر. ولا تفاجئ هذهِ النغمات أحدًا هذهِ الأيام لكنها أجفلتني بكل تأكيد، أنا الذي لا أنسى حين يدهشني شيء استثنائي، كما حصل عندما سمعت مقطوعة بيتهوفن الفتية ـ استهلال برميثيوس *Prometheus Overture* ـ الذي افتتحه بتضاؤل غير مهيأ للبعد السابع مع النغمة السابعة في الكمان.

ما مقارنة هذا برطانة الكتب الدراسية؟ هل يستطيع أي خريج جامعي ممن أُقحم هومر وهوراس وجوفنيل في رأسه عنوة وبلا رحمة في إيتون وهارو ووينشيستر أو الركبي أن يتغلب على هذا؟

هل للتغيرات الارتدادية لنمط قصيدة جون غيلبن وأنشودة النوتّي العجوز *The Ancient Mariner* لساموئيل كولريدج في التلوِّ غير المُقاس أن تُكتب الآن لتبدو شعرًا تعليميًا أكثر من كونها موسيقى راقصة زخرفية

(1) السُّلَّم اللّوني: سُلَّم موسيقي مكوّن من أنصاف النغمات.

لموسيقى بيتهوفن المعبرة عن المزاج وتُوصَل بموهبة موزارت الخارقة للجمع بين الاثنين؟

يجب ألّا أنسى أن هناك أكاديميين موسيقيين: من لديهم دكتوراه في الموسيقى، مثل ستانفورد وباري، ولكن تأثير شهادات جامعية كهذه هو لجعل حامليها يعتقدون بأنهم مؤلفون، بينما في الواقع هم يملأون أوراق الموسيقى بمحاكاة لمؤلفين عفى عليهم الدهر، وفي الوقت نفسه يستخفّون بأساتذة مثل باخ وإيلغار، ولم يأخذ أي منهما دروسًا في الباص المستمر *thoroughbass*. صحيح أن مربّيتي علمتني حروف الأبجدية، لكن لم يعلمني أحد كيف أكتب مسرحياتي التي لم يعتبرها أحد مسرحيات حتى كسبتُ من خلالها الكثير من المال وتغيرت الموضة، ثم أصبح يُشار إليَّ بأني خليفة شكسبير.

الخبرة الشخصية للتطوّرات المعاصرة في الفن أكثر إفادة بكثير من أي دراسة للوثائق القديمة. لا يمكن لأي طالب حفظ أن يشعر بالتطور من أسكلاس *Aeschylus* إلى يوربديز *Euripides* وعبثيته إلى ميناندر *Menander* كما شعرت بالتطور من دونزيتي *Donizetti* إلى فاغنر، ومن بوغارو *Bouguereau* إلى غوغان *Gaugun*، ومن ليدر إلى ويلسون ستير ومونييه *Monet* ومن جانوفا Ganova إلى رودن، ومن سكرايب إلى ساردو Sardou ومنه إلى إبسن، ومن باري سوليفان إلى أيرفنك، ومن كولينسو إلى إنج ومن تينيسون إلى براوننغ، ومن ماكولي إلى ماركس ومن ماكس ويزمان إلى هيربيرت دنغل، ومن تاندال إلى كليرك ماكسويل وبلانك وآينشتاين، ومن كنغدون كليفورد إلى هاردي. باختصار، من عشقي لإعادة الاستماع لروائع أعمال الموتى إلى الضغط على نفسي بسماع التغييرات المدهشة التي كانت جديدة بالنسبة إليّ.

الاختبارات التربوية الأكاديمية أفضل من لا شيء. فمن درس الخطوات من أرسطو إلى لوكريتوس، ومن أفلاطون مع سقراط إلى بلوتينوس، ومن ثوسيديدس إلى جيبون، ومن بطليموس إلى كوبرنيكوس، ومن القديس بطرس إلى روبرت أوين، ومن الأكويني إلى هوس ولوثر، ومن إراسموس إلى فولتير، يمكنه على الأقل معرفة ما فعلوه سابقًا ويمنح الشهادات لأولئك الذين يمكنهم القيام بذلك مرة أخرى. ولكن بدون تجارب معيشية، لا يوجد شخص متعلم. حين لا يكون بحوزته سوى الدرجات الأكاديمية، وحتى عندما تكون مكتظّة باللغات الميتة وضعفها من الجبر، من المحتمل أن يكون أكثر الخريجين فطنة أغبياء وجهلة.

إن الفرق الحيوي بين القراءة والخبرة لا يمكن قياسه بدرجات الامتحان. وعلى أساس هذا الاختلاف، أدّعي بغرور أنني واحد من أفضل الرجال تعليمًا في العالم، وفي بعض الأحيان صنّفت خمسةً وتسعين في المائة من المشاهير الأكاديميين، مع فائق الاحترام الواجب للمواهب المحددة التي يتمتع بها عددٌ قليل منهم، مغفّلين وحمقى.

وقد أنقذتني مؤهلاتي العقلية هذهِ من حرماني من الأدب. وحين فوّض إلي ويليام آرتشر وظيفة ناقد فني للرسم، وهي وظيفة فُرضت عليه ولم يكن مؤهلًا لها تمامًا، انطلقت كصاروخ. وصفحة التسلية الأسبوعية التي أكتبها عن كل الفنون الجميلة لا تزال تُقرأ حتى بعد ستين عامًا، وكل ما قدمتهُ لندن من معارض وعروض كان متاحًا لي بحرية طوال العقد الذي تلا رفضي بالإجماع كروائي. وكلما كانت رواياتي أفضل، أثارت حفيظة قرّاء الناشرين المحترفين. لكن بصفتي ناقدًا، وصلت إلى القمة من دون مقاومة، في حين لم يترك المبتدئون الأدبيون المعاصرين ذوو

التحصيل الدراسي العالي وممن نشأوا في بيوت بريطانية تخلو من الفن أيَّ أثرٍ يُذكر.

كل سنوات النقد هذهِ طوّرت من تعليمي العقلي، من خلال إجباري على إصدار أحكام مدروسة بعناية، والتمييز بين المواهب الرائعة والإنجازات الفنية للمشاهير المعروفين الذين انتهى مشوارهم ورواجهم بوفاتهم أو قبل ذلك، والعبقرية التي لا تختص بسن معين بل بكل الأعمار. سمعت عن مبتدئين قدموا عروضًا واعدة بعد تخرجهم مباشرة بعد تدريب معلميهم، لكن، ولجهلهم بقيمة ما تعلموه، سرعان ما يسقطون في هاوية المألوف بعد هروبهم من وصاية أساتذتهم وإرشادهم. ومن التجارب فقط يمكن للناقد أن يكون محترفًا في تحليله، وليكن في معلومك أن الناقد الذي لا يستطيع التحليل يُخدع بسهولة. وما زلت أتعلّم في سنتي الثانية والتسعين.

بالنسبة إلى اللغات والرياضيات، فإن مؤهّلاتي لا تكاد تُذكر. يمكنني قراءة الفرنسية كالإنجليزية، ويمكنني قراءة الأخبار من الصحف المحلية الإيطالية والإسبانية. وأعرف من الألمانية ما يكفي لأفكّ رموز معظم الرسائل التي تصل إليّ بهذهِ اللغة. أما كلغوي في المحادثات، فليس لدي المؤهلات الكافية. أما بالنسبة إلى الرياضيات، فلدي مقدرة حساب صرّاف سابق (والتي أصبحت الآن عرضة للخطأ كثيرًا) لكن كمستوى الرياضيات أعلى، يمكنني فقط تخيله وفهمه من دون أدني خبرة فيه. عمليًا أنا أحمق، ولكن في أيامي ووفقًا لمقاييسها، كنت كأنني كرايتون المحترم.

إني مدين للكتب المعروفة، واللوحات العظيمة والموسيقى النبيلة بشكل كبير لتعليمي، ولولاها لكنتُ أشدَّ جهلًا مما أنا عليه الآن، وكذلك

لأنها أزالتني وأنا في عمر العاشرة من الشارع الذي ولدتُ فيه؛ نصفه يواجه حقلًا قبيحًا، سرعان ما أخفته لوحة إعلانات ضخمة مليئة بالإعلانات التجارية، إلى كوخ توركا، في أعالي تلة دالكي، يطلّ على خليج دبلن من جزيرة دالكي إلى هاوث هيد وخليج كلايني من جزيرة بري هيد، ومساحات شاسعة من البحر والسماء المتغيرة البعيدة فوقها وتحتها.

لم تكن السعادة هدفي يومًا. فأنا مثل أينشتاين، لست سعيدًا ولا أريد أن أكون سعيدًا. ليس لدي وقت ولا ذوق لمثل هذه الغيبوبة التي يمكن الوصول إليها بمِلء غليون من التبغ والأفيون أو كوب من الويسكي، على الرغم من أنني جرّبت جودة فائقة جدًا من السعادة لمرتين أو ثلاث مرات في الأحلام. ولكن كانت لدي لحظة واحدة من الاستغراق بنشوة السعادة في طفولتي عندما أخبرتني والدتي أننا سنعيش في دالكي. كان عليّ فقط أن أفتح عيني هناك لأرى صورًا لا يمكن لأي رسامٍ أن يرسمها. ولم أستطع أن أصدّق أن هذهِ السماء كانت موجودة في أي مكان آخر في العالم حتى قرأت قبة شكسبير العظيمة حين قال: «هذهِ القبة الجليلة المزدانة بأشعة الشمس الذهبية»[1]، وتساءلت أين كان بإمكانه رؤيتها إن لم يكن من كوخ توركا الذي دامت معي بهجته طوال حياتي.

أيوت سانت لورانس
3 أغسطس 1947

(1) انظر: هاملت، الجزء الثاني، المشهد الثاني.

- 13 -

ما هي معتقداتي الدينية؟

أنا بمعمودية الأطفال عضو في الكنيسة الأسقفية البروتستانتية في أيرلندا، إلا أني لا أستطيع تصديق أكثر من معتقدين من مذهبها، ومن (القربان المقدس للقديسين والحياة الأبدية) إلا بمعنى غير تقليدي تمامًا، وبنودها التسعة والثلاثين، التي جُمعت من أجل السلام والهدوء السياسي لمواجهة كلا الاتجاهين بين الكاثوليكية الرومانية والبيوريتانية، لأنها متناقضة جدًا بحيث لا يمكن لأي شخص قادر على التفكير المترابط منطقيًا أن يقبلها.

ومذهبها الآخر، الأثناسي، الذي اعترض عليه كثير من رجال الكنيسة في عصرنا لأنهم اعتقدوا أن بنده اللعين ينطوي على الإيمان بجحيم كبريتي، وتمردوا عليه وثاروا بالكامل، وأنا أؤيدها لأنني أفسرها على أنها تعني: أن الفهم وليس الإيمان هو أكثر ما يحتاج إليه العالم، وأن الأشخاص الذين لا يمتلكون ما يكفي من الدقة لقبول مفارقاته الظاهرة على أنها بيانات صحيحة عن الحقيقة البيولوجية قد يُوصَفونَ بلاغيًا بأنهم ملعونون فكريًا.

ومثل هذا التشكيك والارتياب يمكن أن يجعلني عرضة للاتهام بالردّة

تحت ما يسمّى بقانون التجديف إذا جرى تأكيد إداناتي، ولكن بما أنني لم أكن مرتدًا، فسأدافع عن نفسي في حال اتهموني بأن المسؤولية تقع على عاتق عرّابي وعرّابتي (جميعهم ماتوا) لا عليّ.

وهذا يجعلني عرضة للسؤال: «إذا لم تكن من رجال الكنيسة البروتستانتية، فماذا تكون؟».

في البداية، اعتدت الإجابة بأنني ملحد. لكن هذا ليس جوابًا، لأن ما يحتاج إليه أصحاب العقول الراجحة هو معرفة ما يعتقده الناس، وليس ما لا يؤمنون به. غير أن الملحدين المزعومين، ما لم يكونوا بلوتقراطيين، كانوا يتعرضون لاضطهاد وحشي في تلك الأيام. وقد طُرد برادلو من مجلس العموم بوحشية، لدرجة أن جون برايت، الذي وصل في الوقت المناسب ليرى ستة رجال شرطة يجرونه أسفل الدرج، ذُعر من الموقف. وقد سُجن خليفته كرئيس للجمعية العلمانية الوطنية، ج. فووت، لعام لأنه نشر صورة صموئيل يمسح شاوول بزيت وهو يرتدي الملابس العصرية. كانت مسألة شرف لزملائهم المرتدين ليقدموا لهم دعمًا قاطعًا وغير مشروط من خلال إعلان أنفسهم إما ملحدين أو لا أدريين.

فضّلت أن أسمي نفسي ملحدًا لأن الإيمان بالله يعني بعد ذلك الإيمان بالوهم القبلي القديم الذي يسمى يهوه. ولن أتظاهر، من خلال وصف نفسي بأنني لا أدري، بأنني لا أعرف ما إذا كان موجودًا أم لا. وما زلت، عندما أتعامل مع الأصوليين القدامى، أخبرهم بما أنني لا أؤمن بما يعتقدونه، ويمكنهم أن يسمّوني، لأسبابهم الخاصة، بالملحد.

إذن، ماذا كنتُ أنا؟ وحين أصبح ج. و. فووت معسرًا وأثار التماسه

بالإفلاس سؤال من الذي سيخلفه إذا اضطر إلى الاستقالة من رئاسته للجمعية العلمانية الوطنية؟ وضعني بعض الأعضاء، برئاسة جورج ستاندرينغ، على قائمة المرشحين المحتملين ودعاني لمخاطبة الجمعية للحكم على أهليتي. أثبتت مسيرتي اللاحقة أني لم أكن أسوأ خيار لهم، ولكن بعد مخاطبتي لهم بشأن التقدم بإرادتي الحرة، استشاط المتعصّبون منهم غضبًا (هناك نسبة عالية من هؤلاء المتعصبين في المجتمع العلماني الوطني كما هو الحال في جيش الخلاص) وأحاطوا ستاندرينغ علمًا بأن فرصة فوزي بالانتخابات أقل من كبير أساقفة كانتربري.

وأن إيضاحي بأن الثالوث ليس استحالة حسابية، بل اتحاد مشترك بين الأب والابن والروح في شخص واحد، وأن عقيدة الحَبَل بلا دنس هي جزء من الحقيقة المقدسة بأن كل المفاهيم طاهرة، وأن تقديس الكاثوليك الرومان للسيدة العذراء هو في الواقع إضافة مطلوبة للأم إلى الأب في اللاهوت، وبأن أي مسيحي ذكي يمكنه أن يحول العلماني العادي إلى كاثوليكي روماني بسهولة، جمّد الدم في عروقهم. ولم يصدمهم أو يهزهم تحول السيدة بيسانت إلى التصوف بعد.

وادّعى تشارلز واتس، وهو أحد أكثر القادة العلمانيين براعة، أنه ليس ملحدًا وليس لا أدريًا، وإنما عقلاني. وكان هذا موقفًا أقوى، كونه إيجابيًا، من إلحاد برادلو، على الرغم من أن شخصية برادلو البطولية أبقته وسط مسرح الأحداث حتى أُخمد انتصاره على مجلس العموم وقُتل أخيرًا. لكن مهنة العقلانية تعني الاعتقاد بأن العقل ليس نظرية فحسب، بل دافع. وكنت ناقدًا جدًا، عقلانيًا لارتكاب هذا الخطأ.

وعلمتُ أن روبز بيير، حين نصّب آلهة المنطق، سرعان ما وجد أن

العقل هو آلية فكرٍ لا أكثر، وكان عليه أن يتفق مع فولتير، إذا لم يكن الإله موجودًا، فمن الضروري اختراعه. ولممارسة السلطة على الرجال، يجب على الحُكّام العمليين الحكم بالشرف والضمير والروح العامة والتواطؤ الاجتماعي والوطنية والتضحية بالنفس سعيًا وراء العلم والسلطة على الرغم من الظروف. باختصار، فإن فضائل الأسبقي بالإضافة إلى رذائله كلها حتمية، لكنها غير عقلانية. وكما أطرحها عادة بصورة مبسطة ومبتذلة: العقل يمكن أن يختار لك أيهما أفضل، الباص أم الترام، قطار الأنفاق أم سيارة أجرة، للذهاب من سيرك بيكاديلي إلى بيتني، لكنه لن يفسّر لك لماذا عليك الذهاب إلى بيتني عوضًا عن البقاء في بيكاديلي. وقد ارتبطت العقلانية بالمادية، وكنت وما زلتُ معتنقًا مذهب الحيوية، والحيوية بالنسبة إليّ على الرغم من كونها حقيقة من أصعب الحقائق، لا تزال لغزًا كاملًا.

وعليَّ أن أتعامل باستمرار مع العقل والمادة، لكنني لست عقلانيًا ولا ماديًا.

ربما يقال على الأقل إنني قد أطلقت على نفسي اسم التطوري، ولكن في ذلك الوقت كان من المفترض عمومًا أن داروين هو من اخترع التطور، وقد فعل العكس تمامًا. لقد أظهر أن العديد من النماء التطوري المنسوب إلى الخالق العظيم يمكن أن يُنتج عن طريق الخطأ من دون غرض أو حتى وعي. وتُدعى هذه العملية بالانتخاب الطبيعي. وكان رد الفعل المعادي للكهنوت وللكتاب المقدس بين المثقفين المتشككين قويًا جدًا، لدرجة أنهم ابتلعوا طعم الانتخاب الطبيعي مع خيط الصنارة والثقالة. وقد أصرَّ وايزمان، الذي كان آنذاك من أبرز أنصار الداروينية الجديدة، على أنّ جميع إيماءاتنا وأفعالنا ما هي إلا انعكاسات خالصة.

جرى كل شيء على ما يرام، لكن ساموويل بتلر بعيد النظر، أدرك فجأة، بعد أن أخذه حماس رد الفعل لستة أسابيع، بأن داروين، كما قال بتلر حرفيًا، بنفيه غاية الخلق قد نفى العقل من الكون. وسرعان ما بدأ يظهر أنه نفى الأخلاق أيضًا؛ وقد طالب العلم، وهو البديل الجديد للدين، باستثنائه من جميع الاعتبارات اللائقة والإنسانية. وهو يقدّس أحاديي الهوس البُلهاء مثل ليستر وبافلوف، ويُقرُّ بأن التشريح هو السبيل الوحيد للعلوم البيولوجية، ويتباهى بالإحصاءات الطفولية غير الناضجة بتهور كما يتباهى الأصوليون بما يسمّونه الدليل المسيحي، ويعلن أنه طالما لم يكن هناك أي فرق كيميائي بين الجسد الحي والميت، إذن، فليس ثمة اختلاف علمي على الإطلاق. ويرفض الطقوس الشعرية المسالمة للمعمودية باعتبارها خرافة بربرية، ويستبدلها بخمسين تطعيمًا سامًا كلها مكفولة لتحصننا من المرض، ويتنبأ بانقراض الحياة على الكرة الأرضية بعد أن تبرد الشمس، وينغمس بشكل عام في طقوس عربدة من التعصب الساذج والأعمى، حتى أثار في النهاية صرخة من أجل العودة إلى المسيحية أو إلى أي ديانة فيها مكان لفرضية ميخا عن العدل والرحمة والتواضع أمام ضخامة جهلنا وخشونة عملياتنا العقلية. والدارونيون الذين سيواجهون العذاب العظيم في وقت أقرب من إنكار إيمانهم بداروين أو تأكيد الإيمان بالله، كانوا في بعض الأحيان، عندما يتعلق الأمر بالنساء أو المال، أوغادًا لا ضمير لهم.

إذن، ماذا أكون أنا، فنان بايولوجي، ماذا أسمّي نفسي عندما يُطلب مني تحديد ديني؟ أنا كاثوليكي لأنني شيوعي (الكلمتان تعنيان نفس الشيء)، ذكي بما فيه الكفاية لإدراك أن حضارتنا كما هي، لا يمكن أن توجد لأسبوع من دون أساسها الشيوعي الواسع من الطرق المعبّدة

والجسور المبنية وإمدادات المياه ومصابيح الشوارع ومحاكم العدل والمدارس والكنائس والمجالس التشريعية والإدارات والقانون العام والتشريعي والجيوش والبحرية والقوات الجوية وما إلى ذلك. كلها تحملق في وجه الغالبية الجاهلة من الأشخاص الذين لا يمثل الشيوعيون بالنسبة إليهم سوى مصطلح إساءة بذيء، والشيوعية مثال على كل شيء شرير وسيئ السمعة.

ولكن إذا سمّيت نفسي كاثوليكيًا، فسأكون عضوًا في إحدى الكنائس المسيحية الراسخة، وكلها كاثوليكية، سواء كانت رومانية أو أنجليكانية أو يونانية، أو غير ذلك، وكلها على حدٍ سواء مشبعة بخيالات الأفيون، مثل التكفير، العزيز على العُصاة المخادعين الذين يرهبهم التفكير في الجحيم، ولا يجرؤون على ارتكاب المعاصي لستة أيام من دون أن تُغسل ذنوبهم في اليوم السابع بدم الحَمَل، ويتشبّثون بخيالات خلودهم الشخصي الذي يُخدر خوف الإنسان العادي من الموت. فكما قال مارك توين: «الرجل العادي جبان».

في ما يتعلق بالمبدأ المسيحي الكاردينالي «أن نحب بعضنا البعض» فأنا أتأمل البشرية في شخوص مجموعة من السيدات والسادة الأغنياء يقابلهم عدد كبير من الفقراء العاملين، المتفاخرين بنضالهم، والمنغمسين في خرافاتهم. هم لا يمقتونهم فحسب بل يكرهونهم لدرجة يودون استبدالهم بحيوانات أكثر تطورًا إن كان هذا سيُنقذ الحضارة. لا يمكنني حقًا أن أُحب الهتلريين والبافلوفيين ومن يقدسونهم أكثر مما وددتُ أن أحب قداسة توركميدا أو جمالية نيرو.

فإذا وصفتُ نفسي حيويًا فسيصنفني العلماء، الذين يعترفون بوجود قوة

حياة ولكنهم يتصورونها على أنها ميكانيكية بحتة مثل البخار أو الكهرباء، بأني مادي.

وإذا سّميتُ نفسي ببساطة «تطوريًا» فسأُدرج تحت خانة الداروينية. وكذلك، إذا رفضتُ الاعتراف بداروين فسيفترضون أنني لا أعلق أي أهمية على الدور الذي لعبه الانتخاب الطبيعي في المصير البشري، هذا لأن التصور الشائع لا يعمل إلا بالتطرف: سخام أو دِهان أبيض، يمين أو يسار، أسود أو أبيض. وأنا لا أبيض ولا أسود، بل رمادي تقليدي، شديد الجهل. وكل القطط رمادية في الظلام.

أنا لا أقبل حتى تسلسل السبب والنتيجة الذي لا جدال فيه. بل العكس، اللهم إلا الحادث العرضي. إن الهدف والغاية والتأثير المقصود هي ما تُؤدّي إلى ما يُسمى «السبب». إن حصل وأطلقتُ النار على جاري، فليس الخطأ من مسدسي أو زناده، ولا الحبل سبب إعدامي، وإنما نتائج تصميمي على القتل وإحساس هيئة المحلفين بتطبيق العدالة.

وهكذا، بما أن بيرجسون هو الفيلسوف الراسخ في طائفتي، فقد وضعتُ نفسي تطوريًا خلّاقًا. ويجب أن أترك هذا الموضوع عند هذا الحد، كوني رجلًا عجوزًا لا أقوى على تجربة أشياء جديدة. وما زال السؤال ذاته يُطرح عليّ: أين يكون الإله في معتقدي. فأتجنب إجابة هذا السؤال بردّه «وأين يقع الإله في معتقدك؟» والإجابتان لذات الشيء. يجب أن تُسلّم الكنائس بوجود إله قدير، ومن الواضح أنه إما ليس قديرًا وإما ليس رحيمًا، لأن العالم مليء بالشر كما الخير، لدرجة أن كثيرًا من المفكرين البارعين (من سفر الجامعة وحتى شكسبير) كانوا متشائمين. وكان على المتفائلين منهم افتراض وجود إله وشيطان، كلاهما يدير قوة

طبيعية تسميها الكنيسة «العناية الإلهية» والعلماء ينعتونها باللاهوب، والتكيف الوظيفي، والانتخاب الطبيعي، والأسطورة الحتمية، وتصميم الكون، وقوة الشفاء للطبيعة وما إلى ذلك.

وأنا أسميها قوة الحياة والنزعة الغريزية للتطور. وقد أطلق عليها بيرغسون الزخم الحيوي، ويسميها كانط الحتمية القاطعة، وشكسبير يقول: «حكمة إلهية تشكّل مصائرنا، مهما سعينا نحن إلى التخطيط لها»[1] وكل ما سبق له النتيجة ذاتها: حركة غامضة نحو قوة أكبر على ظروفنا وفهم أعمق للطبيعة. وفي السعي وراءها يخاطر الرجال والنساء بحياتهم كمستكشفين أو شهداء، والتضحية براحتهم وسلامتهم ضد كل رجاحة عقل، وكل الاحتمالات، وكل حس سليم.

ونظرًا لأن هذهِ القوة غير الخاضعة للمساءلة تواجه كل دين على حد سواء كحقيقة صعبة على الرغم من تعدد أسمائها المختلفة. وقد يُطلق عليها «العناية الإلهية»، وهي الكلمة الأكثر تعبيرًا وشيوعًا لها. ولهذا، فإن جانبًا كبيرًا من الاختلاف بين أشد الحملات الصليبية فظاظة والتطور الخلّاق الموجود في الممارسة التنفيذية يكون خياليًا.

ولا شك في أن آلهة الكتاب المقدس، الخمسة على أقل تقدير كما هو موثّق على الورق، جميعها عظيمة ومعصومة من الخطأ وقادرة على كل شيء، وعالمة بكل شيء، في حين أن قوة الحياة، مهما كانت خيرة، تتصرّف عن طريق التجربة والخطأ وتخلق معضلة الشر من خلال تجاربها الفاشلة وأخطائها.

(1) انظر هاملت: الجزء الخامس، المشهد الثاني.

لم تكن أي سلطة تنفيذية عملية قادرة على العمل وفق الافتراض القائم بأن هذهِ القوة العظيمة، المعصومة من الخطأ والقادرة على كل شيء، موجودة أو وجدت بالأصل أو كانت ستوجد في العالم. وحين يصبح الملحد تابعًا للأخوة بليموث أو العكس، فإن التعليق النهائي يكون «كما تُدين تُدان» *plus ça change, plus c'est la même chose*، وما عصمة الإله إلا وهم قد يكون ضروريًا من الناحية السياسية، مثل عصمة البابا أو اللجنة القضائية لمجلس اللوردات، لكنه مع ذلك وهم.

لا يهم إطلاقًا ما هي طوائفنا ومللنا. ويجب أن أتنصّل من تخطيطي لفرض طائفتي على الآخرين. لا أنسى تحذير يسوع بأننا إن حاولنا تخليص الأديان الراسخة من أعشابها الضارة، قد نسحب القمح معها وتُترك الإنسانية بلا دين.

أنا أمقت مذهب الفداء، إيمانًا بأن كرام الناس من الرجال والنساء يأبون أن يكفِّر أحد عن خطاياهم على هذا النحو بأن يعاني هو موتًا قاسيًا. لكنني أعلم كحقيقة صعبة أن الكنيسة الميثودية، المشبعة بهذه الخرافة البغيضة، قد غيّرت عمّال المناجم وزوجاتهم وأمهاتهم من متوحشين إلى كائنات متحضرة نسبيًا، وأن أي محاولة لتحويلهم إلى التطور الخلّاق ستجعلهم متوحشين أكثر خطورة من أي وقت مضى، حين لا يكون لديهم تردد ولا إله مشخصن (نوع الإله الوحيد الذي يمكن أن يؤمنوا به) ولا خوف من الجحيم لكبح جماحهم.

إن تغيير الفلاحين السذج إلى متشككين عن طريق غرس الإلحاد السلبي بالإضافة إلى العلم الذي يتجاوز حدود أدمغتهم من شأنه أن يقضي على الحضارة، حتى إنّها قد تضع نهاية للبشرية، لأنها قد وضعت

بالفعل نهاية للمزدوجات والديناصورات والماموث والمستودون. التطور الخلّاق يمكن أن يحل محلنا، ولكن في غضون ذلك، يجب أن نعمل من أجل بقائنا ونمائنا كما لو كنا كلمةَ الخلق الأخيرة. الانهزامية هي أسوأ السياسات.

- 14 -

تصحيح الأخطاء الفادحة لكُتّاب السيرة الذاتية

المحترم ونستون تشرشل M.P P.C

«سُحبتُ من الكنيسة المنخفضة والمعبد»

إطلاقًا. في حلقات البروتستانتية الأيرلندية، الكنيسة تعني الكنيسة المنخفضة (أو ربما الشعائرية في حال وُجِدت الشموع على المذبح) والكنائس الكاثوليكية الرومانية تُسمى المُصلى *Chapels*. يفوق التمييز بين الكاثوليك الرومان والبروتستانت كل الفروقات بين المنشقّين والملتزمين بالتصاق إنجلترا بويلز. في أيرلندا، إما أن تكون بروتستانتيًا أو لا تكون. وإن كنت كذلك، لا يهم ما إذا كنت ستذهب إلى كنيسة الأبرشية الأسقفية المُنشأة مسبقًا، أو بيت اجتماعات الكنيسة الميثودية، أو الكنيسة المشيخية، فقد تجد قاضيًا أو نائب ملازم بين صفوف المنشقين، إن فضّل قُدّاسهم، لكن إن تجرأ ووطأت قدمه معبد الكاثوليك الرومان، فستكون العواقب وخيمة.

فكرة أني نشأتُ كمنشق ويلزي هي خاطئة تمامًا. كانت أجواء عائلتنا منفتحة التفكير بشكل ساخر. بحلول الوقت الذي بلغتُ فيه العاشرة من عمري، تخلّى والداي عن تظاهرهما المهذب بالذهاب إلى الكنيسة. وبعد

أن فكرتُ مليًا في خطوتهم هذهِ، توقفتُ عن الصلاة على أساس كوني ملحدًا. ولأن صلاتي كانت عبارات كتبتها بدقة وإتقان، شعرتُ بأني حين أتخلّى عنها، أُقدم بذلك تضحية من أجل المبدأ. ولم يخطر لعرابي وعرابتي أن يهتمّا بأن شو الصغير كان كافرًا.

«يتحدثُ في الفنادق وفي ناصية الشوارع»

فنادق؟! أتحدّث في كل مكان عداها. ابتداءً من الجمعيات البريطانية وحتى بوبات أحواض السفن والأسواق وكل ركن وزاوية في البلد. لكني نادرًا ما ألقيتُ خطابًا في فندق. وقد تعامل معي هنري جيمس برهبة ودهشة لأن أحدهم أخبره بأني صعدتُ على حاجز وبدأتُ أخطبُ بالمارّة حتى تكوّن لي جمهورٌ كبير. وسألني يومها إن كان صحيحًا ما قيل له، وحين أكّدتُ له صحة الكلام هتف بقوة: «لا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني حمل نفسي على القيام بذلك!»، ولطالما أكدتُ أنّ الهواء الطلق هو أفضل مدرسة للخطيب.

كانت ذروة نجاحي كخطيب واسع الانتشار في الانتخابات العامة التي أعقبت حرب عام 1914 ـ 1918، حين كانت الشوارع، ولدهشتي، مغلقةً بالحشود التي لا تستطيع الدخول.

كان وداعي المنصة وخيلاءها في دار أوبرا متروبوليتان في نيويورك لتسعين دقيقة ناجحًا جدًا، لكنني تعبت لثلاثة أيام بعد ذلك، وعرفت حينها أنني كبرتُ على هذهِ اللعبة.

ثم إن نشرة الأخبار الإذاعية قد وضعت المنصات على الرف. ما زال بإمكاني بث تسعين دقيقة بفاعلية. من يرغب في الحديث إلى مئات الناس حين يكون بمقدوره الوصول إلى الملايين بنصف الجهد؟

«أظهر في عام 1889 وللمرة الأولى تأثيرًا ماركسيًا طفيفًا»

هذا تاريخ لاحق. لأن روايتي الأخيرة (الاشتراكي الانطوائي *An Unsocial Socialist*) هي ماركسية بحتة، وقد كُتبت عام 1883. بينما بدأت جمعية فابيان عام 1884، واخترتها لمنصتي، بعد أن هضمتُ كل كلمة لماركس وقعت يدي عليها بالفرنسية. في حينها، لم يكن هناك شيء بالإنجليزية (حرفيًا).

«تخلّى لاحقًا عن ماركس من أجل السيد سيدني ويب»

لم أتخلَّ عن ماركس أبدًا. ففي مبادئي، أنا ماركسي أكثر من أي وقت مضى. ولكن عندما هاجم فيليب ويكستيد، الذي حوّله جيفونز، نظرية القيمة الشهيرة لماركس، اضطررت للدفاع عنها، لأنه لم يكن هناك أفضل مني للقيام بذلك، ولم أكن أعلم شيئًا عن الاقتصاد المجرد.

استمررتُ لسنوات عدة أهاجم الموضوع، وأنا جالس أستمع إلى ويكستيد في مجتمع خاص يُحاضر حول النظرية الجيفونية. وعندما أتقنتُ تمامًا ما بقي صالحًا من الاقتصاد السياسي الرأسمالي، وجدت أنه لا ماركس ولا أي شخص آخر في الحركة الاشتراكية يفهمه، وأن نظرية القيمة المجردة لماركس كانت خطأ وويكستيد كان على صواب.

في ما يتعلق بقانون الإيجار، وهو أمر أساسي في الاشتراكية، كان ماركس جاهلًا بكل بساطة، كما توضح حاشيته على ريكاردو. وإن افتقاره إلى الخبرة الإدارية واتصالاته الشخصية مع المجتمع الإنجليزي، البروليتاري والرأسمالي على حدٍ سواء، أعاقاه بشكل خطير كسياسي عملي، على الرغم من كشفه، الذي هزَّ العالم، جرائم الرأسمالية وفهمه مصيرها في البيان الشيوعي.

لم يهتم سيدني ويب، الذي كان جون ستيوارت ميل قائدهُ المُلهِم، بكل ذلك. فقد اتّبع ميل حتى المرحلة الاشتراكية الأخيرة، ولذلك، لم يكن بحاجة إلى أن يحوله ماركس. كان لدينا كلانا فكرة تحسين العالم الضرورية، فقد كان ويب متكاملًا، رجلًا بقدرات خارقة وبساطة استثنائية. وصفه أسكويث بأنه قديس. ولولاه لما كنتُ سوى أديبٍ لبِق مثل كارلايل وراسكين.

«كان يعظ دائمًا بأن كل أشكال الثروة يجب أن تكون بيد الدولة، ومع هذا، حين فرضتْ ميزانية لويد جورج البدايات الضئيلة للضريبة الفائقة للمرة الأولى، لم يزعق أحد بصوتٍ أعلى من هذا الفابياني الثري»

من المفترض أن يعرف المستشار السابق لخزانة الدولة أفضل من غيره. وها هي الحقائق. عندما كانت النساء المطالبات بحق الاقتراع للمرأة ثائرات، دعت السيدة جيكوب برايت جميع النساء ذوات الأملاك إلى رفض الكشف عن دخلهن لأزواجهن لإقرار الإيرادات الداخلية كجزء من دخله. وعند ملء الإقرار الضريبي التالي، كتبتُ في المساحة المخصصة لدخل زوجتي أني لا أعرفه، وليس لدي أي سلطة قانونية لإرغامها على الكشف عنه. فأذهل هذا مفوضي ضريبة الدخل وزعزعهم.

في البداية، اعتقدوا أنني كنت أحاول التهرب من الضريبة بجعل نفسي مثيرًا للسخط. لكني أشرتُ إلى أنه يمكنهم إجراء تقييم خيالي، وأخبرتهم بالرقم الذي سأعترض عليه، مضيفًا أنني لطالما أصررت على أن يكون لزوجتي محامٍ ومصرفي منفصل عني (بما أنها تزوجت مغامرًا أدبيًا) وبأني حقًا لا أعلم. وشرحتُ لهم كذلك عن السيدة جيكوب برايت، وما عليهم توقعه إذا لم يجدوا مخرجًا لهذا. والنتيجة كانت تمرير قانون إعفاء برنارد

شو الذي مكّن الزوج والزوجة من الحصول على عائدات منفصلة. وحين أصبح علنيًا، لم أكد أتذمّر من شيء، فاستخلصوا من هذا أنه التذمر القديم حول دفع الضرائب بصورة عامة.

كذلك عارضتُ بثبات جميع أشكالِ فرض الضرائب على رأس المال، بما في ذلك الرسوم العقارية (رسوم الموت) وأصررت على أن الدخل وحده متاحٌ للضرائب. صحيح أنه لو كان دخلك السنوي خمسة جنيهات في السنة، فيمكن لسمسارك في البورصة أن يجد شخصًا يدفع لك من سبعين إلى مئة جنية «نقدًا» من أمواله الفائضة مقابل دخلك. فمن غير المنطقي الافتراض بأن مستشار خزانة الدولة بإمكانه دائمًا الحصول على ما يريد من الأموال عبر مضاعفة الدخل القومي على ورقة فئة عشرين، والافتراض بأن الإجمالي يمكن جمعه في أي لحظة بواسطة مُحصل الضرائب.

هذه مغالطة مدمرة؛ رأس المال والائتمان هما للأغراض العامة فئات وهمية. أتمنى لو يمكنني الصراخ بهذا بصوت أعلى بكثير، لأن أي وزير عمل مغفل يمكن خداعه بسهولة ليفرض ضرائب على رأس المال على هذا النحو ولا ينتج سوى بورصة الكل فيها بائعون ولا مشتري واحدًا، ويقيم رأس مال عند صفر ولا يمكنه فعل شيء حياله.

«أطلق أكثر المفكرين الاشتراكيين ذكاءً لقب (مسيرة دفن القرد) على العلم الأحمر»

هذا ليس دقيقًا؛ لقّبته بمسيرة جنازة ثعبان البحر المقلي.

التالي: حول زيارتي إلى روسيا عام 1931.

«حشود غفيرة من متظاهرين مدربين جيدًا أتمّوا خدمتهم بأعلامهم وأوشحتهم الحمراء. وضجّت الجوقات المتجمهرة بهتافات البروليتاريين الفعّالين العالية التي مزقت السماء»

محض خيال. لم تكن هناك لا فرقة ولا علم ولا وشاح أحمر ولا هتاف منذ بداية الرحلة وحتى نهايتها، على الرغم من أني وبلا شك عوملت كما لو كنت كارل ماركس شخصيًا، وحصلت على استقبال كبير (خليط غريب من اجتماع عام ومأدبة وجبات خفيفة وحفلة الموسيقية) في قاعة النبلاء التي تستوعب أربعة آلاف شخص وكانت مكتظة. كانت الخطابات قصيرة، ارتدى أحد فناني الحفل ثوب سهرة، وبدا كأنه مفارقة تاريخية سخيفة. بينما ارتدى أحد الخطباء قميصًا وسروالًا، وهو ما بدا طبيعيًا بما فيه الكفاية.

تحدث لونتشارسكي، وأمضى هو ولتفينوف وقتًا طويلًا نسبيًا معي. وقد اكتشفت لاحقًا أنهما أرادا رؤية عجائب السوفييتية، التي لم يكن لديهم الوقت لرؤيتها من قبل. وقد غُمرت بكل كياسة ورفق ممكنة من دون أي احتفال، وغياب الاحتفال وهراء المنصات جعلا رحلتي ممتعة بشكل استثنائي.

ذروة جولتي كانت في مقابلتي مع ستالين. كان حارس الكرملين، الذي سألنا من نحن، هو الجندي الوحيد الذي رأيته في روسيا. لعب ستالين دوره بإتقان، واستقبلنا بحفاوة كأصدقائه القدامى، وتركنا نتحدّث حتى أفرغنا ما في جعبتنا، قبل أن يبدأ الكلام رسميًا. كانت مجموعتنا مؤلّفة من اللورد والليدي أستور، وفيل كير (آخر ماركيز لوثياني) وأنا بالإضافة إلى لاتينوف وعدد قليل من الروس. وفي طريقنا مررنا بثلاثة أو أربعة أو خمسة مكاتب، في كل واحد منها يجلس موظف رسمي خلف المكتب. خمنّا وجود مسدس في متناول يده في الدُرج.

افتتحت الليدي أستور الاجتماع بهجوم عنيف، حين أخبرت ستالين أن البلاشفة لا يعرفون كيف يعاملون الأطفال. فقال ستالين، الذي اندهش للحظة، بازدراء مع إيماءة «في إنجلترا، أنتم **تضربون** الأطفال».

أخبرته الليدي أستور على الفور (كرد فعل) أن لا يكون أحمق ملعونًا، وأن يرسل امرأة راشدة إلى لندن لتتلقّى تعليمات في معسكر مارجريت ماكميلان في ديبتفورد عن كيفية التعامل مع الأطفال بعمر خمسة أعوام وكيف يرتدون ملابسهم ويُدَرَسون. دوّن ستالين العنوان على الفور. فكرنا في أن تصرفه هذا ما هو إلا من باب الكياسة، ولكن ما إن وصلنا إلى بلدنا حتى وصلت امرأة راشدة برفقة ست أخريات متعطشات لتلقي التعليمات. أخذوهن إلى ديبتفورد كما ينبغي، فتبددت عليه أموال أستور.

حين وصلنا إلى السياسة، تولى فيل زمام الأمور بصفته رجلًا قرأ كارل ماركس وعرف كل ما يخص الشيوعية العلمية. وأوضح أن الحزب الليبرالي الإنجليزي قد انقسم، الغالبية إلى اليمين، تاركين بقية الأغنام بدون راعٍ، غير قادرين على الانضمام إلى حزب العمال لأنه كان في مراحله الأولى كحزب سياسي.

كان المطلوب هو انتقال الحزب الشيوعي العلمي بقيادة لويد جورج إلى يسار حزب العمال. فاقترح فيل أن يدعو لويد جورج رسميًا إلى موسكو، ويطلعه على كل عجائب روسيا السوفييتية.

ولا شيء يمكن أن يفوق الفكاهة التي تلقّى بها ستالين هذا الاقتراح. من الواضح أنه كان مستمتعًا به مثلي تمامًا. وقد تُرجم ردهُ، الطويل والمجامل بدماثة، والمليء بالدعابة على ما يبدو، إلينا بما مفاده بأن الدعوة الرسمية

لشريك رانجيل في الجيش الأبيض[1] غير ممكنة، لكن، في حال رغب ل. ج. في القدوم بصفته الخاصة سيحصل على كل الاهتمام والتسهيلات.

وقد سعى اللورد أستور لإثارة إعجاب ستالين بقوله إن هناك الكثير ممن يكنون مشاعر ودية تجاه السوفييت في إنجلترا، ولا يوجد ما يمنع حصول اتفاق ودي في المستقبل. في الواقع، بالغ لدرجة أنني اضطررت إلى تحذير ستالين من أن لويد جورج، المعادي بشدة للبلشفية، لا يعتبر تمثيلًا كاملاً في هذا الصدد. وسألت ستالين عما إذا كان قد سمع من قبل بأوليفر كرومويل وقاعدته، المحفوظة في أغنية شعرية ركيكة ومعروفة جيدًا في أيرلندا:

ثقوا بالله يا أولادي

وابقوا متيقظين

وحين فهم ما سمعه قال إنه وبكل تأكيد سيبقى متيقظًا. وترك الرب خارج الموضوع. ثم سألته ماذا عن دعوة السيد تشرشل إلى روسيا؟ أصبح لطفه، كما اعتقدتُ، تهكميًا حين أجاب بأنه سيسعد برؤية السيد تشرشل في موسكو.

كان حسه الفكاهي واضحًا طوال الوقت. يمكنه الضحك.

عندما غادَرَنا (بعد منتصف الليل) ظننا أننا بقينا لأكثر من نصف ساعة بقليل في حضرته، بينما سجلت ساعاتنا ساعتين وخمس وثلاثين دقيقة.

سدماوث،

سبتمبر 1937

---

(1) الجيش الأبيض: أي من الجيوش التي عارضت البلاشفة خلال الحرب الأهلية الروسية 1918 ـ 1921.

البروفسور الراحل أو بولغر

كان البروفيسور أو بولغر ابن مفتش الشرطة الأيرلندية. وكان معجبًا بأعمالي، لدرجة أن خصّص ما أمكنه من الوقت من عمله الأكاديمي لكتابة سيرتي الذاتية، وكتبت له العديد من الرسائل ردًا على مناشداته للحصول على معلومات. ولكن عندما كتب السيرة الذاتية وعرضها على ناشر أمريكي، احتوت على افتراءات كثيرة، لدرجة أن الناشر، على الرغم من قبولها بناءً على مزاياها الأدبية، طالب بشهادة تأكيد وموافقة مني، وهو أمرٌ مستحيل بالنسبة إليّ، وسأوضح الأمر لاحقًا. وعليه، لم يُنشر الكتاب، ولكن بما أن المخطوطة في أيدي منفذي وصية المؤلف، فقد تظهر بعد وفاتي تحت عنوان (حقيقة برنارد شو) أو ما شابه، كان من الأفضل أن أجعل ردي عليها علنيًا.

على الرغم من أن البروفيسور أو بولغر إعتمد الأدب مهنة له، فقد ورث موقف الشرطة وتقنياتها من والده، إذ يختبر دائمًا أقوال وأدلة المتهمين أو المشتبه فيهم بهدف مقاضاتهم لخرقهم القانون، ويجمع الأدلة المتعلقة بصفاتهم الشخصية. وفي هذا لم يكن لدي شك بخصوص النقد الجمالي: كانت القضية الوحيدة هي ما إذا كانت الحقائق ستصور بنية غير قانونية أو عملًا مخزيًا. مجمل القول هو أن البروفسور لم يعمل ناقدًا ولا كاتب سيرة ذاتية بل محققًا فقط، من دون مسؤوليات المفتش الرسمي أو المدعي العام.

أدوّن أدناه ما يكفي من تعليقي حول الموضوع.

باركناسيلا، كينمار،
كو. كيري،
7 أغسطس 1919

عزيزي أو بولغر،

أنت وبلا شك ستكون سبب موتي. فقصتي، كما تصفها، هي أن البطل اللطيف دفعته خيانة زوجته ليعاقر الخمر، ويُهجر في نهاية المطاف، ليقضي نحبه في دار لإيواء الفقراء.

هل عليّ أن أُخبرك بالحقائق من جديد؟ وإن فعلتُ ذلك، هل ستكون أكثر فاعلية في إخراج أوهام أخبار الشرطة من رأسك المشتت على حساب حقائقي الجديرة بالتصديق؟

أخرج أستاذ الموسيقى لوالدتي وزميلها ج. لي من رأسك للحظات فقط. لم يظهر بعد في المشهد. والدي رجل كهلٌ أعزب «لم يكن عدوًا لأحد سوى نفسه»، ولم يكرهه أحد، لأن لا أحد يخافه.

هو شخصٌ فكاهي، ويكتب أبياتًا شعرية من حين لآخر لتسلية الناس. والسير روبرت شو، بارت، من بوشي بارك تيرينور، هو ابن عمه الثاني. ويصنّف نفسه على أنه رجل من عائلة إقطاعية، ولكن ليس لديه ممتلكات، كونه أصغر أبناء كرماء المحتد المعوزين من البداية، حتى وإن كانت نسبة معقولة من إخوانه وأخواته العديدين في ظروف مزدهرة ومواقف اجتماعية لا تقبل المنافسة. هو يشرب. وهذهِ ليست نقطة ضعف بهيجة، بل اضطراب عصبي مرضي وبائس، ضحاياه هم معارضون جادون للامتناع عن تناول المسكرات، يخطبون ضد لعنتهم. وقد ظهرت في الأسرة من قبل وكان مقدرًا لها الظهور مرة أخرى بين أبناء عمومتي وأولادهم. ولا أحد يذكر ذلك للشابات اللاتي تربين بصرامة، وكُنَّ محصنات من الموضوعات غير السارة حتى يتزوجن.

في الواقع، عاشت والدتي ونشأت بصرامة وتشدد وتربت على يد العمة التي يبدو أن وريثتها لا تعلم شيئًا عن الزواج ولا التدبير المنزلي ولا أي شيء غير لائق. وقد رحّب بها آل شو الأثرياء لفترة، أُعجب بها السير روبرت، واعتبرها البقية شخصًا اجتماعيًا. لكن والدي كان يثمل في حفلاتهم ومآدبهم حتى تعذرت دعوته إلى هناك مرة أخرى، لا هو ولا زوجته من دونه. كانت والدتي تعيش في الفقر المدقع، وتعاني نبذ المجتمع، مع ثلاثة أطفال في منزل مؤجر بثلاثين جنيهًا إسترلينيًا في السنة أو ما يقاربها، وزوج مخمور يبدو أنه غير قادر على تحقيق كثير من النجاح كتاجر، حين ظهر لي يبحث عن مغنين وممثلين وكل أنواع المواهب والأشياء اللازمة لفعالياته الموسيقية، واكتشف صوتها ودرّبها. أخبرتك بهذا بتفاصيل أكثر دقة، واستنتجت من كلامي أن والدتي زنت مع مدربها الموسيقي وبسببها أدمن زوجها الطيب الصاحي البطل الخمر!

لم يمت والدي في دار لإيواء الفقراء. ففي سنواته الأخيرة، تركته زوجته وأطفاله وحيدًا في دبلن لسبب وجيه، وهو أنه كان عاجزًا عن إعالتهم، ولأن حياتهم معه كانت ميؤوسًا منها وليس لها مستقبل. وبفعلتهم هذهِ، أزاحوا عن كاهله حِملًا ثقيلًا كان غير قادر على احتماله وسعيدًا لتخلصه منه، على الرغم من أنّه تخلّى عن الشرب وأصبح غير مؤذٍ للناس. باختصار، فعل ما بوسعه لعائلته، أرسل إليهم جنيهًا كل أسبوع حتى وفاته. وفي هذه الأثناء، عاش بارتياح ويسر في مساكن آبين وي (وهو حي سكني في الضواحي محترم جدًا)، وكان محل تقدير واحترام صاحبة المُلك. وحين أزفت ساعته، لُمّ شمله بآبائه في مقبرة مونت جيروم في أقصى لطافة شافيانية وأظنها كانت أسعد أيام حياته، لا

لي بعد الآن، ولا زوجة ولا أطفال بالغين. وفي النهاية، أقنعته قصاصات أو مراجعات من الصحف بأن ابنه سيحقق مصير والده الضائع بطريقة ما ويكون «رجلًا عظيمًا».

مع مراعاة هذه الحقائق غير البطولية، يمكنك الكتابة بلطف عن والدي كما تريد. لقد كان بالفعل، كما يقول الرجال، إنسانيًا وجديرًا بالحب. أخبرني ذات مرة كيف وجد في طفولته قطة ضالة، وأعادها معه إلى المنزل وأطعمها. لكنه ترك كلبه يقتلها في صباح اليوم التالي. وكان لا يزال نادمًا بسبب عمله الشرير هذا وحذرني من أنه لا يوجد رجل قادر على فعل ذلك ويستحق أن يكون له أي ثروة أو سعادة بعد ذلك. كان يوبّخ نفسه كثيرًا ويشعر بالخزي عندما لا يكون لديه دعابات سرية، وكان إما يعض على شاربيه ويهمس بلعنات وإما يهتزّ بنوبات من الضحك المكتوم. كان شريكه في العمل شخصًا مُهينًا بعض الشيء، وكان والدي يؤمن بأن اللباقة والطيبة والأدب الذي خفّف به مشاعر الأذى التي سببها شريكه، هي التي أبقت العمل جاريًا، وقد فعلت ذلك بكل تأكيد.

ولكن لا يوجد شيء في مؤشر وراثتك، لأنه كما صادف أنّ والدتي كانت لطيفة جدًا أيضًا، وغير قادرة على ضرب طفل أو حيوان، وتكره رؤية زهرة مطروحة على الأرض أو منتوفة الأوراق، من المحتمل أن نساءً كثيرات بمثل إثارتها سيكرهن والدي، لكنها لم تسخر منه أو تعنّفه على الإطلاق. ليس لديها أي احترام له بالمعنى العام للكلمة، لأنه غير قادر على فعل شيء فعّال أو مثير للاهتمام بشكل كبير، لكنها تقبّلته كما كان، بالطريقة الأيرلندية اللطيفة، من دون أن تثير قضية أخلاقية ضده أو تلومه. كنا جميعًا على هذا النحو، بشكل أو بآخر. كان موقعه في الأسرة هو ما كان

قادرًا على أخذه، لقد كان بابا بالمعنى الكامل للكلمة دائمًا، ولم يحصل لي الفعّال على أي عاطفة مستوحاة من بابا.

كان فشل لي في لندن المخفي تحت سنوات قليلة من النجاح المألوف، يرجع تمامًا إلى الظروف الاجتماعية التي أجبرته إما أن يكون مخادعًا وإما أن يتضوّر جوعًا. ووالدتي تبعته إلى لندن لتكون الموسيقى مهنة لها ولتبدأ أختي لوسي مسيرتها كمغنية أوبرا أساسية كما كانت متاحة في دبلن. ولكن، ما إن اكتشفت أنه تخلّى عن «الطريقة» في تعليمه وكان يتظاهر بتمكين تلاميذه من الغناء مثل باتي في اثني عشر درسًا، تخلّت عنه ولم تره لسنوات حتى مات، وهو حدث لم يزعجها أكثر مما فعل موت والدي. وكان موت أختي آغنس هو حزنها الوحيد. وبالمناسبة، وجد والدي في الجنازات ما كان يدغدغ حس دعابته، وهذه الخاصية ورثتها منه. لا أحزن أبداً، لكنني لا أنسى.

أشكرك على تخميناتك في ما يخص فضائل والدتي! وملاحظاتك على اقتصادياتي ليست نقدًا، إذ لا تنفّك تعارض، وبضمير حي، أشياء لم أتفوّه بها أصلًا، وتتذمر بشأن افتراضات لو كنتُ قد أيّدتها في أي وقت، لأودت بي إلى مستشفى للأمراض العقلية. مسرحياتي ليست أطروحات اقتصادية أكثر من مسرحيات شكسبير. صحيح أنه من غير الممكن أن يكتب مسرحية بيوت الأرامل *Widowers' Houses* والميجور باربرا *Major Barbara* شخصٌ جاهل بالاقتصاد، وأن مسرحية مهنة السيدة وارن *Mrs Warren's Profession* هي كشف اقتصادي لتجارة الرقيق الأبيض بالإضافة إلى كونها ميلودراما، وهناك رابطة اقتصادية بين كاشيل بايرون وسارتورياس والسيدة وارن وأندرشافت، وهي أنهم جميعًا ازدهروا في

نشاطات مشبوهة. ولكن هل سيستنتج أحدٌ سوى بروفسور جامعي غبي وأحمق وشبه مجنون بتصحيح الأوراق الامتحانية، أنّ كل مسرحياتي قد كُتبت كمقالات اقتصادية وليس كمسرحيات عن الحياة والشخصيات ومصير الإنسان كمسرحيات شكسبير ويوربيدس؟

ثم إن آرائي حول التعليم ليست جديدة ولا غريبة بأي شكل من الأشكال، لكنني أشرت إلى أن المدارس ومديريها، كما لدينا اليوم، ليست معروفة كأماكن تعليم ومدرسين، بل هي سجون وسجّانون يُحبس فيها الأطفال لمنعهم من مرافقة وإزعاج والديهم. كذلك يجب تصنيف التربية المدنية والدين على أنهما التعليم الاصطلاحي الضروري للحياة المتحضّرة، وليس التعليم الليبرالي الاختياري للثقافة. لو عاد الأمر إليّ لجعلتها إلزامية وجدلية. يجب أن يكون التعليم الليبرالي طوعيًا ويجب أن يتم في المنظمات التطوعية. هذه هي الاقتراحات التي ستُناقش. وتلك التي تخص المدرسة ومديرها لا علاقة لها بالتعليم أكثر من استنزاف الأموال وسرقتها لا أكثر. وإذا خلطتَ بين الاثنين فستتشوش بيأس وتقود نفسك إلى الجنون.

أنتَ مُخطِئ تمامًا بثرثرتك الجامعية عن كوني صبيًا ذكيًا وطموحًا. لم أكن طموحًا أبدًا، أنا مثل هاملت، أفتقر إلى الطموح. وأنا لست، ولم أكن أبداً، فائق الذكاء. سطع نجمي بسبب التجاذب المطلق ومصادفة حيازتي على موهبة مربحة.

وقد أبقتني رغبتي الخجولة في شق طريقي مفلسًا وعالة على والديَّ المُنهكين حتى أصبحتُ في الثلاثين من عمري تقريبًا. ومبالغتك بكوني شابًا طموحًا وذكيًا، مشبعًا بكارلايل وإيمرسون (لم أقرأ ولا كلمة لأيّ

منهما) يرزحُ تحت وطأة عار كونه يعمل موظفًا في مكتب، بعيدة كل البعد عن الواقع، كون موظفي المكتب هم أكثر الناس فخرًا على الأرض. يمقتون الأساتذة ويعتبرونهم تلاميذ غير عمليين وعاجزين لم يخبروا حياة البالغين ومسؤولياتها وخبرة العمل. صحيح أني كنت غير مرتاح في المكتب لأنه ليس مكاني كوتدٍ دائري في حفرة مربعة، لكن لم يخطر في بالي أبدًا أن أخجل منه.

وإذا لم تناسب قصتك أن تُصدق بأن لي كان عبقريًا بصورة ما، فمن الأفضل لك أن تُغيّرها. أنا أقول لك إنه كان عبقريًا وأنا أعلم في هذا الشأن أكثر منك؛ كوني ناقدًا موسيقيًا محترفًا سمعت كل قادة الأوركسترات في عصري وسمعتُ تلاميذ أساتذة الغناء العِظام كذلك. تقول إنك ليس بحوزتك دليل. هل بحثت؟ من المحتمل أن يملأ الألماني صفحات عدة بقائمة للحفلات الموسيقية والمهرجانات التي أدى فيها لي عروضه في دبلن، وما تم فيها من أعمال. وكان سينقب عنها في ملفات الصحف. ويمكنك القيام بذلك إن أردت أن تضيع وقتك وتصبح غير مقروء. أيُّ أثر يمكن أن يتركه قائد الأوركسترا؟

وعندما تقول إن الفقر لا يكمن في العوز بل في سوء إدارة التوزيع، فإنك تقصد أن الفقر موجود لا بسبب قلة الثروات المتداولة بل لأنها لا توزع بعدل. أنت مخطئ. ليس هناك ثروة كافية لتوزع بعدل. لكنها قد تكون كذلك مع الاشتراكية.

والآن، تقبّل لعناتي الودية لأنك عرّضتني لهذه المهمة التي لا تحتمل والمتمثلة بإخبارك من جديد ما قلته لك مسبقًا بصورة تامة وبعناية.

اذهب واسترح. فعقلك مضطرب بفعل عملك غير الطبيعي. وإنيّ أحذّرك بأنه لمن السهل أن تدمّر رجلًا بإعطائه مادة أدبية أكثر مما يمكنه هضمها، كما هو الحال بإعطائه رأس مال أكثر مما يستطيع إدارته. فنظامك الهضمي الآن معطلٌ تمامًا.

ابن عمي الأسترالي الراحل تشارلز شو

ابن العم العزيز تشارلز،

المجتمع الأسترالي أكثر انحلالًا من الأيرلندي في القرن التاسع عشر. وآل شو كانوا نفّاجين بالضرورة، مثل كل البروتستانت الأيرلنديين. لكن، يجب أن تضع في اعتبارك أنواع الخيلاء والتنفجة المختلفة. حين أخبرني والدي ألّا ألعب مع صديقي في المدرسة الذي كان والده يدير محلًا لتجارة الحديد والخردة، كان يخبرني ما يجب على جميع الآباء في مكانته أن يخبروا أبناءهم بمنعهم من الاختلاط بمن يعتقد أنهم معارف غير مرغوب فيهم. وعندما قيل لي إن كل الروم الكاثوليك سيذهبون إلى الجحيم كان من المستحيل ألّا أستنتج أنهم أصناف بشرية أدنى مرتبة، لا يمكن لشو البروتستانتي أن يتعامل معهم.

وقد رُسم بتشدد حدان اجتماعيان؛ الأول بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة، والآخر بين كنيسة روما والكنيسة الأسقفية في أيرلندا، التي كانت آنذاك الكنيسة القائمة. لا يمكن لشو أن يكوّن صداقات اجتماعية مع صاحب متجر ولا مع كاثوليكي روماني. وبطبيعة الحال، طبع آباء آل شو هذهِ الحقيقة في أذهان أطفالهم، وبالتالي جعلوا منهم نفاجين صغارًا بكلّ ما للكلمة من معنى.

ولكن، هناك فرع آخر من التنفجة، وهي أقل قسرية، وكتابك مليء بها بطريقة مسلية. هذهِ تنفجة العشيرة، القناعة بأن «آل شو» عائلة متفوقة ذات أنوف مهيمنة، منحدرة من طبقة النبلاء أو تنتمي إليها. أما بالنسبة لشو الأيرلندي، فقد بدت هذه حقيقة من التاريخ الطبيعي.

ما زلنا نَحرُن عند وصفِنا بأننا من الطبقة المتوسطة، كما فعل شو الذي أصبح قائد الشرطة في هوبارت. وهذهِ هي الخيلاء التي أخذها عمي المهاجر معه إلى أستراليا. كل ما يمكنك فعله هو السخرية منها من دون ضغائن. فهي لن تصمد في عصر ما بعد الماركسية.

ومحاولتك لإثبات أن والدي لم يدمّر زواجه بالشرب هي أكثر المغامرات يائسًا في الكتاب. وقد قادك ذلك إلى التشهير به بوحشية عن طريق مقارنته بوالد إريوهون بتلر. كان بتلر يخشى والده ويكرهه بشدة، لسبب وجيه، لأن فكرة والده عن تربيته بطريقة متديّنة كانت ببساطة انتزاع إنسانيته منه عن طريق الضرب المبرح وحشر النحو اللاتيني بدلها فيه. أما والدي، فلا أحد يمكنه كرهه. وعندما أتذكّر بعض المناسبات التي كنت فيها غير مكترث له، أفهم كيف وقف الدكتور جونسون تحت المطر في ليتشفيلد ليكفّر عن تأنيب الضمير ذاته. كان والدي غير محظوظ وغير مدرب وغير ناجح، لكنه تغلّب على إدمانه البائس للخمر (لأنه بحق جعله بائسًا) حين سقط عند عتبة بابنا في يوم أحد وأُصيب بنوبة قلبية أخافته كثيرًا وجعلته يفهم أنه يدمر نفسه. ومنذ تلك اللحظة توقف عن شرب الخمر.

وعندما هجرناه جميعًا، لا بد أنه وجد نفسه أكثر سعادة. وأنا مدين لك كثيرًا لإعطائي الدليل على ذلك، لتفكّر بأنه تمكن من تجديد علاقاته مع إخوانه وأخواته، وقد فصله شيئان عنهم: أولهما إدمانه الشراب، ففي

إحدى الحفلات العائلية في بوشي بارك، ثمل لدرجة أقرّوا بأن وجوده في حفلات الأنس الاجتماعية مستحيل، ولم نعد نزور إخوانه وأخواته ولم يعودوا يدعوننا إلى مناسباتهم، ولم أرَ أبناء عمومتي منذ ذلك الحين.

كان هذا صعبًا عليه، ولكن الأصعب أنه لم يجد الأُنس والاجتماعية في منزله. وعندما تشاركنا المنزل مع جورج جون فاندلير لي؛ زميل والدتي الموسيقي، قللت طاقته الساحرة وجرأته من كيان والدي في المنزل إلى الصفر تقريبًا. وعندما كبُر أطفاله على اللعب معه، وتوقف انتظارهم له ليعرفوا إن كان صاحيًا أم مخمورًا، لم يعد مجتمعهم مكانًا مريحًا بالنسبة إليه، ولم يرغب أقرباؤه في رؤيته، ولم تحبذ والدتي أن تراهم؛ فقد كانت تهتم بمعرفة الناس الذين يستطيعون الغناء فقط، وكان معظمهم من الكاثوليك، مواطنين أفضل وأصدقاء أكثر مرحًا، لكنهم ليسوا الرفقة المناسبة لشو البروتستانتي.

أترك لك أن تتخيّل التأثير الذي تُحدثه فيّ عندما تتخذ موقفك بثبات على أساس استحالة أن يكون أي شخص من آل شو مبتذلًا لدرجة يصبح فيها سكيرًا، وبالتالي سأكون كذابًا ميّالًا إلى التنكيت. ولو كنت قد مررت بتلك الفترة معي لما رأيت فيه أي مزح. لكن لا تندفع إلى النقيض الآخر وتستنتج أن كل آل شو كانوا سُكارى، ثلاثة فقط من أصل عشرة، اثنان منهم والدي ووِيليام (بارني)، امتنعوا عنه بعد أن بدت حالتهم ميؤوسًا منها بفترة طويلة.

فكر الآن في الآثار حين كنتُ أنا في العشرين من عمري، وكنتُ آخر عضو من العائلة أعيش مع والدي، ثم تخليت عنه كما فعل الآخرون وهربتُ إلى لندن. إنه حقًا تمام الراحة المباركة بالنسبة إليه؛ زوجته سبق

أن رحلت، ورحل بعدها ابنه، الذي كتب في النهضة الدينية التي أنتجتها زيارة الإنجيليين الشهيرين مودي وسانكي إلى دبلن، رسالة إلى الرأي العام يعلن نفسه ملحدًا، فما الذي يمنع عودته إلى عشيرته؟ تخبرني أنهم قبلوه بينهم من جديد وأسعدوه كما جعلناه بائسًا. أنا سعيد لسماع ذلك.

ووجبات الغداء التي تصفها مع شقيقه هنري في أيام الأحد كانت مستحيلة أثناء وجودنا معه. استقبلته أخته إميلي كارول كموهوب من الدرجة الأولى. وعندما وجدت الناجية الوحيدة من إشراف العمة إميلي في إيستبورن منذ عهد قريب، أخبرتني بعض الأشياء المضحكة التي كان يقولها. لا أستطيع أن أصدق أنه أراد رؤيتنا مرة أخرى، ولكن هذا لا يعني أن بيننا مشاعر ضغينة. وعندما صادف وجود أختي لوسي في دبلن ساعة وفاته، وقد كان موته سريعًا وبأسعد طريقة ممكنة، كانت علاقتهما طيبة.

إن عدم مبالاتنا بموت بعضنا البعض ميزتنا كعائلة غير عاطفية بشكل ملحوظ. وإصرارك على إظهارنا نفيض بالمشاعر الفيكتورية، بما في ذلك الجمال الرومانسي لكل النساء والشجاعة الجريئة للرجال أجمع، توّجت برسمك الخيالي والمبالغ به حياةَ أختي لوسي وشخصيتها التي لم تكن غير صحيحة فحسب، بل على العكس تمامًا من الحقيقة. كانت لوسي محبوبة الجميع خارج المنزل، حطمت قلوب كثيرين ولم تؤذِ قلبها قط. وحين وصلت إلى منتصف العمر تزوجت، لماذا؟ لا يمكنني إخبارك. أغلب الظن أنها أُعجبت بعائلة زوجها، التي كانت من دعائم كنيسة الأرفنغايت ومحترمة جدًا. اكتشفت حماتها أن أفضل مكان للعيش هو السرير، حيث أمضت فيه قرابة خمسة عشر عامًا حتى ماتت. ولطالما حاولت لوسي جاهدة تجنّب الفرص التي جلبها إليها مظهرها الجميل وغناؤها لتدخل

في المجتمع الإقَطاعي؛ كانت تعلم أنها لا تملك المال ولا المكانة الاجتماعية، بصفتها مغنية محترفة، لترتاح هناك، لذلك بقيت، وبحكمة شديدة، بين الأشخاص الذين دلّلوها بدلًا من أولئك الذين ينظرون إليها بتكبّر. لم تستفد من خيلاء آل شو ولا من دماثة الريف التي ورثتها من جهة أمها. ومع ذلك، كرهت البوهيمية وخجلت منها. وحين علمت حماتها طريحةُ الفراش ما الأمر، أخذت على عاتقها مهمة إعطاء لوسي التدريب الاجتماعي الذي كانت تحتاج إليه بشدة. وبالنسبة إلى والدتي التي تدربت بقسوة وبإفراط، فقد تركتنا نعلم أنفسنا بنفسنا، ولوسي التي لطالما مقتت هذا، شعرت بارتياح كبير حين فازت حماتها بامتنانها الأبدي لتعليمها كيف تتصرف بلباقة.

كان زوجها كاتب تأمين سابقًا، قصير القامة منتفخ البطن، ووجهه الجميل كأنه منقوش على مثانة خنزير. كان طموحه الوحيد أن يكون فنانًا شهيرًا في الأوبريتات. وقد مكنه عمله في المستعمرات من ادخار مبلغ خمسين جنيهًا إسترلينيًا قدمها رشوة لمدير شركة أوبريت سياحية للسماح له بغناء الجزء الرئيسي لليلة واحدة. وبعد ذلك، أفترض أنهم لم يرموه في الشارع على الرغم من غنائه بصعوبة إلا أنه تمكن من غناء القليل وساعده ذوقه الفني في أن يكون مرتاحًا على المسرح. كان مدمنًا على النساء والقمار. التقى بلوسي في المسرح وتزوّجها. وسرعان ما تعبت منه ونفته، وتابعت حياتها كامرأة غير مرتبطة وحرة. وقد بقي الحال على ما هو عليه لسنوات حتى علمت بالصدفة أنه كان على علاقة بامرأة خلال فترة زواجهما. وفي فورة غضبها جاءت لي وقالت إنها تريد الطلاق. اقترحتُ عليها أن هذهِ الخطوة غير ضرورية بما أنها طلقته عمليًا مسبقًا، لكنها

أصرت على التخلص منه قانونيًا، وكان مستعدًا لترك دعوتها دون أن يدافع عن نفسه في حال تنازلت عن كل مصاريف النفقات والتعويضات. وعلى هذا الأساس، حصل الطلاق واستأنفت لوسي حياتها كامرأة غير متزوجة.

ثم جاءت لمسة شافيان. في وقت لاحق، ظهر من جديد، وحيدًا ومحتاراً يبحث عن مكان يقضي فيه أمسياته. عطفت عليه لوسي فورًا بصفته متشرد وضال، رغم أنها لم تُطِقه حين كان زوجًا لها. وهكذا، أصبح يتردد عليها باستمرار حتى وفاته. حينئذ حلَّ أخوه المتمكن مكانه، كان مدير أحد المتاجر المتعددة الكبرى في لندن. شهدت لوسي وفاتهما دون أن تذرف دمعة. بعد أن مات والدانا منذ فترة طويلة، أصبحت قريبها المباشر الوحيد المتبقي على قيد الحياة، وكنتُ أزورها في فترات متباعدة، حين يكون لدينا بعض الأعمال لنناقشها. وفي مساء أحد الأيام، عندما كانت صحتها لا تبشر بخير، ذهبتُ إلى منزلها ووجدتها طريحة الفراش. وحين جلستُ قربها لفترة قالت: «أنا أُحتضر» فأمسكتُ بيدها لأشجعها وقلت بطريقة تقليدية: «أوه لا، ستكونين بخير عمّا قريب»، وصمتنا. ولم يعكر صفو هدوء المكان وصمته إلا صوت عزف أحدهم على البيانو قادم من أقرب منزل (كانت أمسية جيدة وكانت جميع النوافذ مفتوحة) ثم أصدرت حشرجة واهنة جدًا في حلقها، وكانت لا تزال تمسك بيدي، ثم استقام إبهامها وماتت.

جاء الطبيب في الحال. ولأنني اضطررت لتسجيل الوفاة، سألته عن سبب الوفاة الذي سيضعه في الشهادة، مضيفًا أنني أفترض أنّه مرض السل الذي عانت منه لسنوات عديدة بعد الالتهاب الرئوي الذي أنهى مسيرتها المهنية، لكنه قال أنها شُفيت من السل تمامًا. وحين سألته «ممَ

إذن؟» أجاب: «الجوع». اعترضتُ على كلامه، وأكدتُ له أنني قدمت لها أفضل ما أستطيع.

ثم أخبرني أنه منذ حرب 1914 ـ 1918 لم يكن قادرًا على جعلها تأكل ما يكفي. خلال الغارات الجوية، حطّم مدفع مضاد للطائرات، نُصِب في حديقتها الخارجية، جميع النوافذ والأواني الفخارية في منزلها، فأُصيبت بصدمة. أخذوها لاحقًا إلى ديفون، خارج نطاق القاذفات الألمانية، لكنها لم تستعد شهيتها أبدًا.

ولأني لا أعرف أيًا من دائرة معارفها؛ لم أدعُ أي أحد إلى مراسيم حرق جثتها في غولدرز غرين، ولكن حين وصلتُ إلى هناك، وجدت المعبد مزدحمًا بمعجبيها. ذكرت في وصيتها بصراحة أنها تمنع أي مراسيم دينية في جنازتها منعًا باتًا، ولكن بوجود كل هؤلاء الناس، شعرت بأنه من غير اللائق أن أرميها كقطعة حطب في النار. وهكذا، ألقيتُ خطبة الجنازة وأنهيتها بلحن حزين مأخوذ من سيمبلين Cymbeline[1]:

لا تفزعي من وميض البرق

ولا من قصف الرعد الرهيب

ولاءمت هذهِ الأبيات تقريبًا ما أخبرني به الطبيب.

كانت للوسي مَلَكة أدبية كافية لكتابة قصة أو اثنتين بأسلوب رودا بروتن *Rhoda Broughton* تقبلها مجلة فاميلي هيرالد *Family Herald* الأسبوعية. أنتجت كتابًا رديئًا، وهي في منتصف العمر، وقام أحد

---

(1) سيمبلين Cymbelin: إحدى مسرحيات شكسبير.

معجبيها الذي صادف كونه ناشرًا بنشر طبعة واحدة. كان من المفترض أن يكون سلسلة رسائل مُرسلة إلى فتاة شابة من امرأة عجوز تنصحها كيف تتصرف وتُدير حياتها. كان مثيرًا للسخرية لدرجة أن والدتي اشمأزت منه، وصدمني.

وستعرف باقي المعلومات من ملاحظاتي على نسختك المكتوبة على الآلة الطابعة؛ ستزيل النقاب عن أمور كثيرة تخص العائلة التي بجلتها في مكنونات قلبك في أستراليا.

إلى هنري تشارلز دفين

قرأت مسودة الطبع لكتابك جوهر برنارد شو (لماذا ليس شافيانيًا[1]؟) *Quintessence of Bernard Shaw (why not of Shavianism?)* بمعاناة وكرب أقل مما تسببه الكتب المكتوبة عني. سآتي على الفور إلى النقاط التي تبدو مفتوحة للنقد. وسآخذها بالترتيب الذي تظهر به في الكتاب من دون أي محاولة للاستمرارية.

الصفحة 9: أنت تفترض ضمنيًا هنا أني صرّحتُ بأن مسرحياتي أفضل من مسرحيات شكسبير. الأمر ليس كذلك. في مقدمة «مسرحيات للبيوريتانيين» *Plays for Puritans* هناك فصل بعنوان «أفضل من شكسبير؟» (لاحظ علامة الاستفهام)، وفيه تعاملت مع السؤال المطروح عن حقيقة كون اثنتين من شخصياتي التاريخية الرئيسية قد عبّر عنهما شكسبير مسرحيًا. ولم يتضمن جوابي، ولو مقدارًا ضئيلًا

(1) الشافيانية Shavianism: موقف أو كلام صفة مميزة لجورج برنارد شو، وقد تكون أيضًا الولاء لكتابات جورج برنارد شو وآرائه الاجتماعية.

من نسختك عنه، والذي أظنه ذكرى لمقدمتي عن روايتي زواج غير منطقي *The Irrational Knot*. ولأختصر لك ما قلته بعبارات قليلة: لا يمكن لأحد أن يكتب مسرحية أفضل من الملك لير، ولا أوبرا أفضل من دون جيوفاني. باختصار، إن قمم الإنجاز المحتمل، في ما يتعلق بالتنفيذ الفني، قد تحققت بالفعل في جميع الفنون. ولكن هذا لا يعني أن قيصر شكسبير لا يمكن تجاوزه كتاريخ من قِبل أي كاتب مسرحي عادي تمامًا قرأ لمومسون، وفيريرو، بالإضافة إلى بلوتارخ، ولا حتى إبسن في مجاله لم يترك لشكسبير مكانًا في حدة الذهن والشدة والذكاء. كان التباين الساحق مع إبسن هو الذي يفسّر حملتي في صحيفة مراجعة السبت *Saturday Review* ضد الجزء الزائف من سمعة شكسبير. لكن فكرة أني زعمت بفجاجة أن مسرحياتي، أو مسرحيات أي شخص آخر، كُتبت بشكل أفضل من مسرحيات شكسبير، منافية للعقل ومبتذلة.

الصفحة 15: كل ما ذكرته عن التدخين هي أشياء سخيفة، وتعني ببساطة أنك مُدخن. هل سبق لك أن مشيت في الريف إلى محطة القطار ثم دخلت في عربة التدخين؟ فإن لم تشعر باشمئزاز مؤقت على الأقل، لا بد من أنك فقدت حاسة الشم. عندما عدتُ من نِزال كاربنتر وبيكيت، كان عليّ أن أُغيّر كل قطعة من ملابسي قبل أن أقترب من أي شخص من دون تقديم اعتذار إليه. ما فائدة تجاهل تجارب كهذه وكتابة «العاشق المسالم لغليون التبغ غير المؤذي؟»، من الناحية العملية، أنا متسامحٌ مع التدخين، لأنه بخلاف ذلك، سيتعيّن عليّ أن أعزل نفسي تمامًا عن المجتمع البشري. لكنني لا أغمض عيني (أو أنفي) عن حقيقة كونها عادة مزعجة وبغيضة. وتصريحك بأنني «أُعدّل اعتراضاتي على التدخين عندما يكون، كما هو

الحال بالنسبة إلى المرأة، رمزًا للتمرد» هو محض خيال. لا أحب رؤية امرأة تدخّن، لكنني لا أستعرض، على هذا الأساس، النساء في مسرحياتي على أنهن غير مدخنات، فيفي وارن تدخن السيجار لأن النسخة الحية والأصلية منها فعلت ذلك. وتدخن لوكا السجائر لأن الفتيات البلغاريات يفعلن ذلك، تمامًا كما يفعل برودبنت في الجزيرة جون بول الأخرى *John Bull's Other Island*. لكن لا ينبغي أن أقوم بذلك حتى إذا تعذّر على ممثل أو ممثلة أن يتظاهر بالتدخين من دون فعل ذلك حقًا، كما يقال إن ونستون تشرشل كان يفعل. أنت تقول إن «مسألة التبغ هي مسألة فردية بحتة»، إذن لماذا تُخصص أماكن للتدخين، ويُمنع في مكان آخر، إذا لم يتأثر أحد سوى المدخن؟ خذ نصيحتي: اترك التدخين، وجرب الحياكة بدلًا من ذلك. بستانيّ، لا يدخن، ويحيك.

الصفحة 16 (وفي أماكن أخرى): أنت تقول إنني «ألوم» شكسبير وديكنز على جعل إدمان الخمر والسلاطة مسألة للضحك. أنا لا ألومهما، بل أقول، مثل كيغان، «كل مزحة هي جدية في رحم الزمن»، وكثير من مقترحاتي الجدية خطرت لي لأول وهلة كدعابة. وإنك لترى التطور ذاته في ديكنز نفسه، فالسيدة ماك ستنغر في روايته دومبي وولده *Dombey and Son* هي أضحوكة، في حين أن السيدة جارغري في آمال عظيمة *Great Expectations* كانت على العكس تمامًا. وفي ما يتعلق بشكسبير عن إدمان الخمر، قارن بين السير توبي بيلخ مع كاسيو والملك في هاملت. وبين إيرون *Erewhon* ومؤلفة الأوديسة التي لا بد من أنها أذهلت بتلر[1]

(1) سامويل بتلر (1835 ـ 1902): كاتب إنجليزي متمرّد، كتب روايته اليوتوبية الساخرة إيرون، وشبه سيرة ذاتية تصف التربية الروحية لشخص، وقد نُشرت بعد وفاته في عام

Butler للوهلة الأولى بغرابتها. وقد يحول كُتّاب المسرحية كثيرًا من الأمور التي سخرت منها في مسرحياتي إلى تراجيديا في المستقبل.

الصفحة 34: «بتلر هو أكثر الرجال الذين أمسكوا قلمًا قُربًا إلى النفس» كتبتَ هذا قبل ظهور مذكرات فيستنغ جونز. ولو كنتَ، ولو عن طريق المصادفة، قد قرأتَ مراجعتي عن تلك المذكرات في صحيفة مانشستر غارديان، لفهمت لماذا أقول لك الآن إن كلمة «محبوبًا» هي كلمة جريئة إلى حد ما، إلا إذا كنت تعتقد أن جميع الرجال العبقريين محبوبون. كان بتلر يشبه والده أكثر مما كان يظن. ولو كان القس ثيوبالد بتلر بعقل ضعيف عوضًا عن عقل حاد لكان من المحتمل أن يشبه ابنه العظيم كثيرًا.

الصفحة 43: هل تعتقد بجدية أنه كان على وليام بليك أن يكتب كتاب «زواج السماء والجحيم» *The Marriage of Heaven and Hell* وفق شروط وأخلاقيات مجلة الأبرشية؟ ما عليك سوى تجربة إعادة كتابة تلميذ الشيطان *Devil's Disciple* بهذه الشروط، وستعرف نوع المسرحية التي ستنتجها. لم أقابل في حياتي شخصًا تحيّر بشأن ديك دَجين إطلاقًا. وماذا عنك؟ ومن إيجابياتك أنك حيث تكون ذكيًا فمن الواضح أنك فائق الذكاء، وحيث تكون غبيًا، فمن الواضح أنك شديد الغباء.

الصفحة: **53** التسامح العقائدي هراء: ما كنت لأتسامح مع تعليم الكالفينية للأطفال لو كان لدي القدرة على اضطهادها أكثر من تسامح الحاكم البريطاني لزوجة العفة ***suttee*** في الهند. يجب على كل سلطة متحضرة رسم خط بين ما المقبول وغير المقبول.

1903. كلتاهما ظلّت تُطبع منذ ذلك الحين. وفي دراسات أخرى، درس العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، والفكر التطوري، والفن الإيطالي، وقدّم ترجمات نثرية للإلياذة والأوديسة.

الصفحة: 72 هل أخبرتك حقًا أنه عندما يتعلق الأمر بعلاقات الجنسين لا توجد أنثى سوى أنثى العنكبوت؟ آن وايتفيلد في الإنسان والسوبرمان لا تملأ أفق رؤيتي تمامًا كما فَعلت معك. إن مأساة السيدة نوكس في مسرحية فاني الأولى، التي أخطأت تجلي نوكس بالحب الشهواني لما عشقته السيدة جورج في الأسقف الذي ابتعدت عنه بحرص شديد، ليست مأساة عنكبوتية. والميجور باربرا، وليزبيا غرانثام، ولينا سيزبانوفسكا، لوحظ في فقرات لاحقة أنهن بعيدات جدًا عن النحلة والعنكبوت كأقل رجالي إنتاجًا للذرية.

يبدو لي أن ما يدور في ذهنك هو حشدٌ هائل من الناس محايدي الجنس تقريبًا بقدر ما يمكن للبشر أن يكونوا. وآن بالطبع ليست نموذجًا منهم. ثم هناك أناس، كثيرون أيضًا، ممن لا يعرفون عن علم وظائف الأعضاء وعلم النفس الجنسي أكثر من أي وظائف أخرى في علم وظائف الأحياء وعلم النفس. وربما يعتقد العنكبوت أنه ينسج شبكته ويمسك فريسته للتسلية فقط، أو ربما كطقس يستمتع به إله العناكب ولا يعرف أنه سيموت إذا لم يأكل. لكن مسرحياتي من النوع الذي سيكون مستحيلًا ما لم أمنح شخصياتي قدرات الوعي الذاتي والتعبير عن الذات التي لن تمتلكها في الحياة الحقيقية. لن تحصل على خرافات إيسوب ما لم تتحدث الحيوانات.

ومع ذلك، قد يكون هناك اختلاف حقيقي بيننا هنا. لستُ متأكدًا من أني لن أتعامل بشكل ملحوظ مع امرأة معادية للأمومة يومًا ما. لستُ بأي حال من الأحوال على دراية بالجنس البشري، لكني لم أقابل أبدًا ما تسميه في صفحة 82 «امرأة من نوع الدجاجة الحاضنة التي تعتبر نفسها، أولًا وقبل كل شيء، حاضنة أطفال»، لكن من ناحية أخرى، لم أقابل أبدًا امرأة،

وقد عرضت السؤال على بعض النساء اللواتي يعادين الأمومة بشدة، ممن أنجبن طفلًا، وذكرت أنها ندمت على هذهِ التجربة. وفي صفحة 84، أنت تقول في هذا الصدد: «من المحتمل أن يسميه شو (نفاقًا ماكرًا)»، ولا يمكن أن أتصوّر نفسي أتفوه بسخافة وجهل كهذين.

الصفحة 89: ارتكبت خطأ لافتًا للنظر عندما تحدثت عن الغيرة، ما يجعلني أشك في أن لديك تجربة شخصية مع الغيرة. جوليا في زير النساء *The Philanderer* هي دراسة عن الغيرة مثل ليونتس في حكاية شتاء *The Winter's Tale*، ومع هذا، لا يبدو أنك لاحظت أنها غيورة، وأنها بسبب الغيرة أصبحت مستحيلة. ومن هذهِ النقطة، يمكنني أن أضيف، يبدو أنك لا تلتمس أية أعذار للجزء المعقول من شخصية الكاتب المسرحي الدرامية التي تتكوّن في دراسات من نموذج حي. بعض شخصيات أعمالي هي صور مقربة، وبالنسبة إلى الآخرين، استخدمتُ نموذجًا كما يفعل الرسام. أنت تكتب بالتحديد كما لو أن جميع شخصياتي كانت تجسيدات مجازية لا أشخاصًا.

الصفحة 93: هنا تفترض فجأة أنني، مثل ماكولاي ما قبل ماركس، أرى في التاريخ تقدّمًا في التنوير العام. لكنك مخطئ. اقرأ الملاحظات عن قيصر وكليوباترا *Caesar and Cleopatra*، أو دليل الثوريين *Revolutionist's Handbook*، وسترى أنني أعتبر أن الوهم الماكولياني هو الأخطر على الإطلاق.

الصفحة 96: «كرامبتون زميل قديم ومحبوب جدًا»، الرجل الذي بمقدوره أن يُحب كرامبتون يمكن أن يحب أي شخص.

الصفحة 102: أنت تنسى أن جريجوري لون كان بين ذراعي السيدة

جونو عندما وصلت زوجته مع جونو. وحين قال إن على الرجال أن يمارسوا الحب مع معظم النساء لاستحالة التحدث إليهن، فهو يقول الحقيقة، ولكن هذا لا ينقذه عندما تكون المرأة متحدثة جيدة ومغرية أيضًا. موضوع المسرحية هو إبطال قوة الحياة للأخلاق البرجوازية والضمير المبني عليها. وقد وصفه دون جوان بايرون من قبل في مقطع اقتبسته أنت. يظهر هنا ولأول مرة في عمل مسرحي، ومع ذلك، لا ترى أي شيء فيه، على ما يبدو، سوى ملاحظة تافهة يقولها غريغوري.

الصفحات 104 ـ 106: لا أريد إلغاء الأسرة. المجموعة المكوّنة من الأب والأم والأطفال، على الرغم من أنها ضيقة وغير اجتماعية بحد ذاتها فإنها الوحدة الاجتماعية الطبيعية.

الصفحة: 106 «المعنى في قلب الشاعر» هو ما تصفه بأنه الأكثر احتمالًا، أي أن الحياة المنزلية ليست مصير الشاعر؛ وأن «الحياة أنبل من ذلك»، والليلة المرصعة بالنجوم، لا الغرفة الضيقة مع مصباح البارافين، هي المكان المناسب للشاعر، وبأن الحل البديل الذي «ستأتي إليّ عاجلًا أم آجلًا بعد كل شيء» سخيف جدًا.

الصفحة 143: عندما تقول السيدة وارن «إن الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرأة فيها تدبّر حياة كريمة هي أن تكون جيدة مع رجل يستطيع أن يكون كريمًا معها». فهي تشمل الزواج، كما تقول، لكنها تشير أيضًا إلى النساء ذوات المواهب المربحة المستقلات عن الزواج والدعارة كوسيلة أفضل للحصول على قوت يومهن وسد رمقهن. ولكن هذا فقط لأن المواهب الاستثنائية لها قيمة الندرة. لقد أدليتَ بتعليق مذهل مفاده «إذا كانت المرأة تهتم، كما يفعل معظم الرجال، باستخدام مواهب أعلى وتأمين مؤهلات

إضافية، فستكون على يقين من أنها ستحقق أداءً مقبولًا». وتضمينك يدل على أن فتاة مولودة في متجر أسماك مقلية في الطرف الشرقي يمكن، إذا شاءت، أن تعمل في جميع المهن الليبرالية، يُظهر أنه ليس لديك رؤية للوضع الحقيقي للفقراء. والقول «إذا لم يكن لديهم خبز، فلماذا لا يأكلون الكعكة؟» عملي بالمقارنة. ومع ذلك، فأنت تشير إلى أن الرجال، الذين ليس لديهم بديل من البغاء، محكوم عليهم بنفس العقوبة.

الصفحة 146: هنا تظهر، وليس لمرة واحدة فقط في الكتاب، أنك تفكر في أنني مجرد كاتب مسرحي. على الرغم من أني ألقيت مئات الخطابات ونشرت كتبًا لا غبار عليها عن الاشتراكية الفابية مقابل كل مسرحية كتبتها. ويتوارى خلف مسرحياتي جميعها علم اجتماع مدروس يجعلها مختلفة تمامًا عن تلك التي كتبها المؤلفون الذين تعني لهم معرفة المجتمع أن البازلاء يجب ألّا تُؤكل بسكين، ولا تدعى زوجة فارس بالليدي بولي جونز بدلًا من الليدي جونز.

والقسم الأخير من صفحات 146 ـ 147 خاطئ بالكامل. لم «أدرك أبدًا عبثية إلقاء خطبة تبشيرية لمقاعد كنيسة فارغة» لأن المقاعد لم تكن فارغة مطلقًا، وما أدركته هو عبثية إلقاء خطب لمقاعد ممتلئة، إذ لا طائل يرجى من المقاعد الممتلئة. من الواضح أنك لم تتبع مسيرتي العملية كاشتراكي، وحري بك أن تبقى بعيدًا عنها ما لم تكن مستعدًا لعمل دراسة عنها، وسيستغرق الأمر منك وقتًا طويلًا.

أما بالنسبة إلى الشر، فأنا لستُ كما تقول «مقتنعًا بحكمة أن أتركه لسخريته». بل على العكس؛ إن بلانكو بوسنت يصرح بالسؤال «ماذا عن الخُناق؟»، ويجيب عنه. هناك نظرية مدروسة للتطور الخلّاق وراء كل

أعمالي. وأول بيان كامل لها هو الفصل الثالث من الإنسان والسوبرمان. إنه إيمان بتلر وبرغسون. أما قولك «سخرية الرب الغامضة» فليس سوى بايرونية قديمة ولا أدرية تعود للقرن التاسع عشر.

الصفحة: 158 المروءة وعزة النفس لا يمكن أن «تُغرسا في الطفل من الخارج بواسطة مدربيه»؛ إنهما شرارة إلهية كامنة فيه وقد يُحرفها المدربون عن مسارها عن طريق الاستعمال الخاطئ لها (على سبيل المثال، ميثاق الشرف في المدارس العامة)، لكن الإحساس الطبيعي دائمًا ما يثور على انحرافاته بصورة أو بأخرى، والعباقرة يفضحون الزيف دائمًا.

الصفحة 161: أنت تتحدّث عن طلبي «بجعل أسس العقيدة ذات مصداقية»، لكنك تستمر في الافتراض أني أطالب بأن يكونوا حقيقيين وعقلانيين، وهو أمرٌ مختلف تمامًا، وما يحملك على التصور أن كل الرجال والنساء عقلانيون بالنسبة إلي، على الرغم من أنك تقبل مسرحياتي الكوميدية كإثباتات على أنهم ليسوا كذلك. غالبًا ما تكون الحقيقة أقل مصداقية من الأسطورة.

إن ما تفكرُ فيه هو إصراري على تأثير العقائد المُفسد للأخلاق الذي لا يمكن لأصحاب العقول الراجحة تصديقها، وكنتيجة لذلك، إما يديرون ظهرهم للدين والحياة العامة أو يصبحون منافقين. وشرعية العقيدة لا علاقة لها بهذا الجانب من المسألة. القصد هو أن العقيدة الراسخة تُحدث ضررًا عندما لا تكون ذات مصداقية أكثر مما تفعله حين تكون ذات مصداقية، حتى وإن كانت العقيدة التي لا مصداقية لها هي الصحيحة والأخرى لا.

الصفحة 186: هناك قدر كبير من الحقيقة في وصفك للديمقراطية بأنها

«غباء مُسلح بمسدس». لكنك تفتقر إلى حقيقة أن «المحامي والكاهن والأديب والسياسي» هم في العموم أكثر خطورة من عامة الناس الذين لم تفسدهم العملية التي نسميها «التعليم الثانوي».

دوّنتُ بعض الملاحظات الهامشية على الصفحات التي تلي صفحة 200، إذ اعتقدت أنك تصرفت بعدوانية في بعض الأماكن كما في إشاراتك السابقة إلى التدخين. ربما لم تقرأ مقدمتي لكتاب السنة التعليمية لعام 1919، الذي ذكرتُ فيه مشاجرتي مع مدير المدرسة، وذكرت الفروق المعينة بين التعليم الفني والتعليم الليبرالي الذي أعتبره مهمًا، خاصة تلك التي صنفت فيها التعليم الديني على أنه تقني. أما في ما يتعلق بمسألة ضرب الأطفال، فأنا، بحسب علمي، الكاتب الإنساني الوحيد الذي قال صراحةً إنه لا ينبغي حماية الطفل من التعلم من خلال التجربة، وإنه إذا تسبب في إزعاج كبير، فسيضربه الضحية الغاضب على رأسه.

لكنني أصررت على أنه إذا كان التدريس لا يعني شيئًا سوى ضرب الطفل إذا لم يعطِ إجابات محددة للأسئلة المحددة، فإن سكويرز وكريكل[1] مديرا مدرسة مؤهلان تمامًا، ومهنة التدريس لا تفتقر إلى المهارة فحسب ولكنها سيئة السمعة. تعليقاتك تجعلني أشك في كونك مدير مدرسة من دون أن يكون لك أي دور في التدريس. تقول إنني كنت صبيًا غير صالح للمدرسة في مدرسة سيئة. لكن ما هو تعريفك للفتى الذي لا يصلح للمدرسة؟ كنتُ شرهًا للمعرفة وأهتمّ بكل شيء، لكنني لم أستطع قراءة الكتب المدرسية، على الرغم من أنني كنت أقرأ أي شيء

(1) سكويرز: مدير مدرسة قاسٍ في رواية نيكولاس نيكلبي، وكريكل نائب مدير المدرسة الداخلية في رواية دايفد كوبرفيلد. وكلا الروايتين من تأليف تشارلز ديكنز.

آخر تقريبًا. والمدرسة المعروفة الآن باسم كلية ويسلي، كانت بلا شك مدرسة سيئة، لكنها كانت ولا تزال من بين أفضل المدارس في البلاد. حين كان شيللي في إيتون كان صبيًا غير صالح للمدرسة وفي مدرسة سيئة، لكن ليس بالطريقة التي توحي بها. ربما كنتُ أكثر الصبية قابلية للتعليم في أيرلندا ولم تعلمني المدرسة شيئًا سوى أنها سجن وليست مكانًا للتدريس، والاستنتاج هو أن علم التربية ليس علمًا بعد.

الصفحتان 208 ـ 209: توضح شخصية دوبيدات[1] إحدى أطروحاتي الطريفة التي مفادها: ليس هناك من رجل دقيق من جميع النواحي. لديه، بحسب قدرته ومصالحه، أمور شرف محددة، بينما في الأمور التي لا تهمه، فهو لا مبالٍ ومجرد من المبادئ. كان أحد النماذج العديدة الذي جلس من دون وعي لدوبيدات دقيقًا وموسوسًا بإفراط في ما يتعلق بمعتقداته الدينية والسياسية وكان على استعداد لأن يذهب إلى المشنقة على أن يتراجع عن أي حرفٍ منها. لكنه كان معدوم الضمير والمبادئ في ما يتعلق بالمال والنساء. فقد كان مغويًا ومُقترضًا وقحًا، فضلًا عن كونه لصًّا. على النقيض من الرجال الذين يتعاملون بضمير مع حياتهم العائلية والعملية، كان يبدو وغدًا، وكان فعلًا كذلك، ولكن هناك حالات يتركون فيها انطباعًا سيئًا مقارنة به، كالمناسبات حين يتعرض ولاؤهم ومعتقداتهم للخطر والتضحية.

عندما يقول دوبيدات وهو على فراش موته إنه خاض معركة جيدة، فهو جاد جدًا. وهو يعني أنه لم يرسم فتيات صغيرات يلعبن مع كلاب

(1) لويس دوبيدات: من الشخصيات الرئيسية لمسرحية برنارد شو «معضلة الطبيب» The Doctor's Dilemma

صيد لعرضهن وبيعهن في الأكاديمية الملكية، بدلًا من بذل قصارى جهده في فنه. مثلما كتبت ضد البوهيمية الأناركية بعنوان «لعنة الفنانين» وصرّحتُ بأنه لا يوجد نقص في الأشخاص الأذكياء ولكن هناك عوزًا كبيرًا في الأشخاص الرزينين الصادقين والكادحين، الذين يرفضون دائمًا تقديم المرتبة العليا من الموهبة ذريعة لمستوى سلوك منخفض. ومع ذلك فأنا أدرك أن الأخلاق البرجوازية هي، إلى حد كبير، نظام لجعل الفضائل الرخيصة غطاء للرذائل باهظة الثمن. لذلك لا يمكنني أن أؤيد نبذك لدوبيات على أنه مجرد نذل. كان لديه إيمان، أيده ودافع عنه.

الصفحتان 211 ـ 212: ليس لدي أي شفقة وتعاطف مع «المجرم في زنزانته»، وإنما أثارتني قسوة وضع أي شخص في زنزانة. والبديل الذي أقترحه، وهو قتل المجرم إذا تعذر الوثوق به طليقًا، لن يبدو له ما أقوله تعاطفًا. وليس لدي كراهية تجاه «العنف الجسدي من أي نوع»، لقد استخلصت الراحلة سيسيل تشيسترتون مني تفسيرًا كاملًا لوجهة نظري. إن العنف الجسدي هو السلاح الذي من خلاله يمكن للغباء والنذالة أن يهزما العقل والفضيلة ويدمراهما. وإن احتجنا إلى تكرار هذا الشيء اليوم، لهو دليل على الانفعالية الطائشة التي تحكمنا. ويجب أن تكون أولى مسائل الشرف في المجتمع المتحضّر هي عدم خوض المعارك الفكرية بالقبضات ولا الجريمة بالتعذيب. كانت فطرة بول جونز سليمة حين كان مستعدًا لقتل المتمرد إن اقتضت الضرورة بدل جلده.

يجب ألّا أبتليك بمزيد من الاعتراضات التافهة. أتفق تمامًا مع استنتاجك بأن شو «الرائع» لديه في جعبته أربعة أو خمسة نصوص ستكون مملة لو لم يكن فنانًا. لقد أدركتَ روح المسرحيات وجوهرها على نحو

كاد يكون مُحالًا لو لم تستمتع بها، وقد استمتعت بها إلى حد كاد يكون مستحيلًا لو لم تكن قوة الحياة فيك مواكبة، إلى حد ما، لقوة الحياة بداخلي. لا أتوقع منك إعادة أعمالي كلها مرة أخرى من خلال مناقشة كل نقطة وصولًا إلى الأساس. لكنك قدمت للناس توصية فعالة ومختصة جدًا ليأتوا الي ويسمعوا ما أقوله لهم. ومن أجل هذا، أنا مُلزم، وعليّ، لأول مرة، أن أقرأ كتابًا عني بضمير حي.

سيرة ماكمنز الذاتية في كتاب ونستون ج. ب. ش. 90

الصفحة 33: كصورة لحالتي الذهنية عندما عبرت القناة الأيرلندية، لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من هذه الصفحة. بقدر ما كان لدي أي قرارات أو نيات، تركت أيرلندا لأنه لم يكن لدي مستقبل واضح هناك. وفي الفترة بين هجرة لي والإحياء الأدبي والدرامي بقيادة و. ب. ييتس وليدي غريغوري، كانت دبلن صحراء قاحلة فنيًا. وبالنسبة لغزو لندن، لم أحلم بمثل هذهِ الاحتمالية أكثر من أحلام الفلاحين الأيرلنديين الفقراء الذين حلموا بغزو الولايات المتحدة.

الصفحة 33: لم يكن شعري الأحمر الكستنائي بلون التلال الحمراء كشعر أختي آغنيس. لكني كنتُ «الوحش الأشقر» من النوع الدنماركي الذي لا لبس فيه.

الصفحة: 36 لطالما تحدثنا عن كوخ جدتي الرائع المصنوع من القش وكأنه مدينة مستديرة. وقد قيل لي إنهم حوّلوه إلى محلات ومنازل.

نحن آل شو لم نتعلم قطعًا «تقديس» الروابط الإنجليزية؛ اعتبرنا أنفسنا جزءًا شديد التميّز عنها.

لم أرَ والدي يحمل كتابًا بين يديه. لكن لا بد من أن يكون قرأ في شبابه؛ لأنه كان يعرف روايات سكوت وشجعني على القراءة. قرأتُ له رواية مسيرة الحاج وأتذكر أنه أخبرني ألّا ألفظ (ثقيل الوطأة) بصورة خاطئة.

بالغ السير ويليام وايلد في عملية عين والدي. فقد عالج الحول الطبيعي، لكنه أنتج واحدًا أسوأ في الاتجاه المعاكس.

لم تكن روح دعابة والدي «مُبالغًا فيها وثقيلة دم» بل كان لديه حب كوميدي لخيبات الأمل، وقد ورثت هذا منه. عندما كادت شركة كليبورن وشو أن تنهار بسبب إفلاس أحد المدينين، لم يتمالك كليبورن نفسه وبكى، في حين عاد والدي إلى المستودع وانغمس في موجة ضحك مع نفسه. كان أيرلندي بحس دعابة يستمتع بخسارته الكبيرة.

ولم يكن جدي «مالك أراضٍ صغير في مقاطعة دبلن»، فقد كانت ممتلكات أسلافه في مدينة كارلو (وورثتُها عن ابنه بعد وفاته، وبعد أن استعادت قدرتها على سداد الديون، أعدتها إلى مجلس المقاطعة). عاش في أوترارد في غالوَي كرجل نبيل، يمارس صيد الأسماك والرماية ويقوم بأعمال النجارة بنفسه ويبني قاربه كهاوٍ.

الصفحة 37: صحيح أن عمّتي إيلين كانت حدباء، لكنها ليست قزمة.

ولم تكن كنيسة القديس برايد قريبة من شارع سينج، كانت بعيدة في الأحياء الفقيرة، وقد دُمِّرت منذ مدة طويلة، ولم يسكن فيها سوى فقراء الكاثوليك. قُيّد تعميدي في سجلاتها، ولكن سواء أحرقت في المحاكم الأربع خلال الحرب الأهلية، أو حُفظت في مكتبة كلية ترينيتي، فإن التقارير تختلف.

الصفحة 39: لا يمكن لأي كاتب مدينة أن يعيش في شارع سينج. كان معظم أصحاب المنازل، مثل والدي، تجارًا، ليسوا موسرين ولكن ذوي ادعاءات اجتماعية أعلى مقامًا من أصحاب المتاجر.

بوشي بارك كان ولا يزال منزلًا ريفيًا، خارج مدينة دبلن تمامًا في راثفارنهام، على الرغم من أن العنوان البريدي هو تيرينور.

الصفحة **41**: لم يضحك والدي قط وهو مخمور. وفي حادثة أخطأ فيها جدار كوخ دالكي ظنًا منه أنه البوابة، وحين صنع من قبعته الطويلة كونسيرتا بنطحها مرات عدة، صدرت الضحكة من ابنه وصهره.

الصفحة 42: لا بد من أن الآنسة كارولين هيل علّمتني كثيرًا من الأشياء التي لا أتذكّر أني تعلمتها، ولسنوات عديدة ظننتُ أني عرفتها بالفطرة. أدركتُ فجأة في أحد الأيام أن هذا هراء، وبعد موت الآنسة هيل بسنوات طويلة، أصبحت مشتركًا في مؤسسة العمل الخيري التابعة للولاية. لا أتذكر تعلم القراءة. لكنني أتذكر بعد ظهر يوم ممطر على الأرصفة عندما لجأت مع والدي إلى رواق مملوء بالملصقات، كنتُ صغيرًا بما يكفي ليحملني بين ذراعيه، أذهلت الجمهور بقراءة جميع الملصقات بصوت عالٍ.

الصفحة 43: لم يكن هناك «وفرة من الآلات الموسيقية مرمية هنا وهناك». عندما كسرتُ ترومبون والدي لمعرفة ما بداخله لم يبق سوى البيانو.

الصفحة 44: هذا نسيج من الأخطاء الفادحة والتخبط. كان «لي» قائد أوركسترا ساحرًا، وقد جمع عازفي أوركسترا هواة، وكان يقتصد أحيانًا

بجلب عازف منفرد من فرقة عسكرية. لكن الفكرة القائلة بأن بروفات الأوركسترا كانت تُقام في منزلنا هي فكرة سخيفة. وإنما أقيمت في غرف الحفلات القديمة في شارع برنزويك، حيث تُقام البروفات في غرفة الراية والعروض في غرفة الحفلات. وحين تُقام البروفات في منزلنا، كانت المُرافقات الموسيقية تُعزف بالبيانو. لم يشتكِ الجيران أبدًا؛ لأن الموسيقى كانت عذبة ولم يكن هناك «ضجيج».

عاش لي بعد موت أخيه في شارع هارينغتون مع مدبرة منزل عجوز اشتهرت بكونها مُرعبة. تخلص منها بطريقة ما. ولحق هذا ترتيب اتحاد منزلينا في رقم 1 في شارع هاتش.

باستثناء عمي ويليام الذي كان يعزف الأوفيكلايدة في فرقة لي، لم يكن هناك أي اتصال موسيقي مع أقارب عائلة شو، وقد عُرفت عنهم قدرتهم على عزف ألحان شهيرة بمختلف الأدوات الموسيقية سماعيًا، لكنهم لم يدرسوا الموسيقى في الصفوف.

ابنة العم إيميلي، التي كانت تعزف التشيللو (الكمان الجهير) هي عمتي إيميلي، زوجة خادم رعية كنيسة القديس برايد، وأخت والدي. لم تستلطف والدتي، ولم تأتِ لزيارتنا في شارع سينج. وفي أحد الأيام، حين زارتها والدتي، سمعتها تصرخ «تلك الساقطة!» حين أعلنوا قدومها. وبذا أنهت تلك الحادثة معرفتهما.

الصفحة 45: هناك كثير من الحذف والإغفال في هذهِ الصفحة. كان أفضل المغنين في فرقة لي (كلهم تقريبًا) من الروم الكاثوليك، وتواصلنا معهم أزال الاعتقاد الراسخ من أذهاننا أن الكاثوليكيين هم أدنى مرتبة منّا

ولا يجب التعامل معهم لأن مصيرهم العذاب الأبدي في النار. ما زلت أحبهم وأحترمهم أكثر من طبقة البروتستانتيين النفاجين.

يُطلُ كوخ دالكي المُقام، على تل توركا، على خليجي دبلن وكينلي، وهو بعيدٌ نسبيًا وفوق مدينة دالكي الصغيرة. ولم يكن ساحل كينلي مفروشًا بالحصى بل كان رمليًا من بدايته حتى نهايته. وهناك لافتة معدنية جميلة معلقة على كوخ توركا تحتفي بإقامتي فيه. تم كشف النقاب عنها في يناير 1948 وقد أسعدتني كثيرًا.

الصفحة 46: في ذلك الوقت كان السل يسمى انحدارًا أو هزالًا تدريجيًا في الصحة، ولا يعتبر معديًا. التقطت العدوى أختي آغنيس من خادمة، وبعد تدهور سريع في صحتها، ماتت في جزيرة وايت، وليس في مصحة.

كان منزلنا في شارع فولهام؛ زقاق مسدود مقابل مكتب بريد ويست برومبتون تقريبًا. كانت تسمى آنذاك فيكتوريا جروف وأعيدت تسميتها الآن «نيثرتون جروف». هُدمت فيلّا رقم 13 واستبدلت بمبانٍ كبيرة، مثل جميع الفلل شبه المنفصلة على الجانب الشرقي. لكن آخر فيلّا على الجانب الآخر هي نسخة طبق الأصل من رقم 13.

الصفحة 47: لم أتجادل مع والدي مطلقًا، ولم أسأله لماذا؟ لماذا؟ لماذا ا؟ عندما كنت طفلًا، كنتُ أسأله ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ كما يسأل جميع الأطفال والديهم. وتحت هذا الضغط أخبرني كثيرًا من الأشياء التي لم يكن يعرفها، مرتجلًا إجاباته فجأة، وكما اكتشفت لاحقًا، فإنّ هذا هو سحر الأبوة بحق.

الصفحة 49: لم أقرأ البنود التسعة والثلاثين أبدًا، ولم أعرف بوجودها. بالنسبة لماري ولستونكرافت، لم أسمع عنها من قبل.

إني أنظر إلى توماس باين على أنه صانع مشدات سكير لا أثر لشميلة إصلاح فيه. وعلِمتُ أن فولتير وروسو كانا مُجْدِفين وكان احتضارهما مرعبًا بسبب يقينهما من الذهاب إلى الجحيم. وأصبح هذا جزءًا من تعليم الرجل النبيل لإقناعه بأن الرجال الثلاثة الأكثر تدينًا في أوروبا كانوا أشرارًا متهورين وهم الآن يحترقون في الجحيم الأبدي. وقد شفاني شيللي من كل هذا حين قرأت كل مؤلفاته الشعرية والنثرية من بدايتها وحتى النهاية. وقد حدث هذا في أواخر مراهقتي.

الصفحة 51: لم أكن «مدركًا لمواهبي الخاصة»؛ فقد كنتُ عاجزًا، ولسنوات، لتصوري أن الجميع يعرف بقدر ما أعرفه ويمكنه القيام به أفضل مني. كان الاختلاف هو آفتي الدائمة. كنتُ حكيمًا كفاية ليغلبني جهلي وبريئًا بما يكفي لتصور أنني الجاهل الوحيد في العالم. كنت جبانًا حتى حوّلني ماركس إلى شيوعي وأعطاني الإيمان. وعندما اتضح فيما بعد أنني ولدت بعبقرية شكسبيرية، كنتُ أطري على نفسي بأنها فطرية، أو ما تعرف بالعناية الإلهية، أو قوة الحياة، وقد أعطتني في طفولتي تقديرًا مفرطًا للحفاظ على الذات خشية أن أفرط في عبقريتي مقابل بعض المغامرات المشاكسة. على أية حال، في صباي، كنت جبانًا، وكنت أخجل من ذلك بشدة.

أيوت سانت لورانس

8 ـ 1947

- 15 -

أصل كورنو دي باسيتو

اعترضتُ على الضجة التي أحدثها النجم بسبب عيد ميلاده الخمسين؛ لأنه يذكرني بأني تجاوزتُ الثمانين عامًا. ويبدو لي أن ولادته قد حدثت قبل يومين.

استقرّ الآن باحترام في منطقة فليت ستريت، لكن ولادته كانت في أزقة سوق فارنغتدون في شارع ستونكتر، وفي بناية شُيّدت لهذا الغرض، بدا في حينه أنه بناء مرتفع جدًا، وفيه فناء مربع يمثل جرف هاوية مروعة في حالة نشوب حريق لشاغلي الطوابق العُليا.

كان من المقرر أن يسكن تاي باي (اسم إدموند ييتس للأيرلندي الراحل تي بي أوكونور، عضو مجلس العموم ومؤسس ومحرر صحيفة النجم) هناك، لكن السيدة تي. بي. اعترضت حين رأت الهاوية، فأضافوا إلى نافذة غرفتها أنبوبًا قماشيًا كمخرج طوارئ أصرت على تجربته قبل أن يُغادر البناية رجال البائع، ولكن بما أنه لا أحد في لندن، لا قبل ولا الآن، لديه أدنى فكرة عن كيفية استخدام السلعة التي يبيعها، لم يخبروها بأن عليها استخدام مرفقيها كمكابح.

وهكذا، دخلت السيدة تي. بي. إلى الأنبوب وانطلقت.

نزلت بسرعة كما يمر البرق في موصّل، وخرجت من النهاية التي كان الرجال يمسكونها بقطع منحنٍ مكافئ انتهى عند الجدار المقابل. أي شخص عدا السيدة تي. بي. كان سيموت في الحال لكنها لم تُصَب بأي أذى، سوى أنها أخبرت الرجال المفزوعين برأيها عن مخرجهم المُعد للطوارئ.

وجدت السيدة تي. بي. صوتها في مقالة خاصة كان تي. بي. فخورًا جدًا بها. وقد أنشأ إدموند ييتس صحيفة أسبوعية بستة بنسات وسماها العالم وكانت ذات شعبية كبيرة في ويست إيند من خلال أعمدة عن ثرثرة المجتمع بعنوان «ماذا يقول العالم:. وهو شيء لم يُسمع به في صحيفة نصف بنس مخصصة لـ «وضع قطعتي سكر في فنجان شاي الغسّالة بدلًا من واحدة». (وهو تعديل تي. بي. لكلمات سويفت الشهيرة: قطعتي قمح بدلًا من واحدة). لكن تي. بي. صرّح بحق أن الغسّالة حريصة على ثرثرة المجتمع كالدوقات، وبذا ترك السيدة تي. بي. تتصرف بحرية في عمود بعنوان «أساسًا عن الناس» الذي افتتحته بـ «السيدة كولين كامبل هي المرأة الوحيدة في لندن التي تصبغ أظافرها».

كانت السيدة تي. بي. سيدة أمريكية جذابة جدًا، لكن تي. بي. لم يتمكن من الارتقاء إلى مستوى حظه الجيد، ولم ينجح زواجه، وهُجرت الشقة في الطابق العلوي مع مخرج الطوارئ، وانفصل الاثنان، تاركين عمود «أساسًا عن الناس» أقل متعة من دون قصد.

وتحرير تي. بي. كان كزواجه، بدأ الصحيفة بحماس عظيم وكل بهاء ممكن، لكن حين وصل الأمر إلى مواصلتها، أعاقته حقيقة أن نظرته السياسية قد أصبحت ثابتة في أيرلندا في ستينيات القرن التاسع عشر،

وتوقفت ساعته من ذلك الحين فصاعدًا. على الرغم من أن لا سبب يحذوني للاعتقاد بأنه كان يمقت كل رجل إنكليزي كفرد (ما عدا جوزيف تشامبرلين، الذي سماه يهوذا) فهو مثل خريج جيد من كلية غالواي، يكره الإنجليزية بالإجمال.

وعندما استولت جمعية فابيان على أول مجلس مقاطعة في لندن وأغرقته بالاشتراكية المحلية متنكرة باسم التقدمية، لم يعرف تي. بي. مكانه. وحين حاول مساعدهُ الأول، هـ. و. ماسينغهام، الذي كان يُعرف آنذاك باسم الصبي، ومساعده الآخر إرنست بارك، تثقيفه تدريجيًا وبشكل متزايد، احتجّ جون مورلي بكل سلطة مقاعده الأمامية في مجلس العموم وأخاف تي. بي. ليعود إلى مزيجه الغريب من دبلوماسية بالميرستون البريطانية والليبرالية التجارية الحرة مع الفينية الأيرلندية المتنكرة تحت الحكم الذاتي.

وصلت عشرون رسالة بعد وقت قصير إلى شارع ستونكتر، تحتج بشدة على انسحابه، الذي أنتج تصعيدًا هائلًا في البلد بأكمله. ورغم أن ماسينغهام أكد لمديره أنني أنا من كتبت الرسائل (وكان هذا مقاربًا للصحة، لأني طلبت من عشرين عضوًا في جمعية فابيان أن يهاجموه) وعلى الرغم من كل هذا لم يتأثر تي. بي.، هذهِ هي طبيعة المحررين.

انضممت إلى فريق صحيفة النجم كاتبًا رئيسيًا بناء على توصية ماسينغهام في اليوم الثاني من وجودها، لأن تي. بي، في البداية، أعطى أوامر صارمة إلى البواب باستبعاد كل شخص مُريب لأنه رفض قبول أي عضو يمتهن الأدب. ولم يجرؤ على طباعة أي من مقالاتي الرئيسية، إذ بدأت الصحيفة كلسان حال ليبرالي، وكنت أنا بنيويًا لكني في الواقع

اشتراكي متحمس. والسبب الرئيسي الذي قبلت على أساسه الانضمام إلى الصحيفة هو لدسّ الفابية الاشتراكية المحلية فيها.

لكن لندن ارتقت بسرعة كبيرة إلى برنامج فابيان، لدرجة أنها حين خاضت الجمعية أول انتخابات في مجلس المقاطعة فازت بها. لكن ليس قبل أن يجبرني الليبراليون الغلادستونيون الكبار، المرتبكون بما كان بالنسبة إليهم هرطقة خطرة، على الاستقالة من قسم التحرير، والتوسل للحصول على عمل متواضع كالمساهمة في عمود أسبوعي يُعنَى بالموسيقى. وكما بدا لـ تي. بي. أنني لا يمكن أن أُلحق الضرر هناك، وافق بارتياح. وعليه، بما أن العمود الأسبوعي كان يوقع باسم كورنو دي باسيتو. لم يعلق تي. بي. أية أهمية عليه؛ لجهل محرري الصحف اليومية بالفنون الجميلة في ذلك الوقت، الذي فقد مصداقيته في الوقت الحاضر، لأن واجباتهم الليلية جعلت من المستحيل بالنسبة إليهم حضور المسارح أو الحفلات الموسيقية. يمكنك كتابة أي لغة غير مفهومة، وعرضها عليهم كنقد فني. وقد وضع الراديو حدًا لكل هذا.

وسرعان ما اتضح لاحقًا أنني استخدمتُ كلمة موسيقى بمعنى أفلاطون. لأنني كتبت عن كل شيء يعجبني: أولًا، حرصت على أن يكون كورنو دي باسيتو مُسليًا دائمًا. وثانيًا، استخدمت معرفتي بالموسيقى والاقتصاد السياسي التي لم يشك أحد في أني امتلكها، لتوفير أساس متين من النقد الحقيقي لخفة دم ولاعقلانية باسيتو. وأخيرًا، بعيدًا كل البعد عن كوني عرضة ليحلوا محلي، خَلفت تي. بي. الذي كانت مقالاته البالمرستونية قديمة بينما تقدم عليها عمود باسيتو.

- 16 -

إلى فرانك هاريس عن الجنس في السيرة الذاتية

أولًا، يا كاتب السيرة الذاتية المهووس بالجنس، ضع في اعتبارك أنه لا يمكنك معرفة أي شيء عن الشخص الذي تكتبُ سيرته الذاتية من تاريخه الجنسي. العلاقة الجنسية ليست علاقة شخصية. قد تتأجج الرغبة ويحصل الجماع بنشوة غامرة بين شخصين لا يتحمّلان بعضهما ليوم واحد في أيّة علاقة أخرى. وإذا كنت سأخبرك بكل مغامرة استمتعت بها، فلن تفهم رغم شرحي أيّ نوع من الرجال أكون. ستعرف فقط ما تعرفه بالفعل: إنني إنسان. وإذا كانت لديك أي شكوك حول فحولتي، فأبعدها عن بالك. لم أكن عاجزًا ولا عقيمًا، ولم أكن مثليًا. كنت حساسًا جداً، ولكن ليس بشكل غير قانوني.

وكذلك، أنا لا أعاني من عصاب (كما أصنفه) الخطيئة الأصلية تمامًا. ولم أربط الجماع بالجنوح مطلقًا، ولم يكن لدي أدنى تردد أو ندم أو شك في ضميري بشأنه. بالطبع، كان لدي تردد ومثبطات فعّالة حول توريط النساء «في مشاكل» أو إقامة علاقات مع زوجات أصدقائي. كما أني حملتُ عفتي لتكون شغفًا كما حملت ذكائي ليكون شغفي هو الآخر، لكن حالة القديس بول كانت بالنسبة إليّ دائمًا مَرَضية. بدت التجربة الجنسية نزعة غريزية

طبيعية وفي إشباعها اكتمال للخبرة البشرية اللازمة لمؤلف مؤهل بالكامل. لم تجذبني العذارى، فضلت النساء الناضجات اللواتي يعرفن ما يفعلن.

اندَهشتَ وملتَ إلى الشك عندما أخبرتك بأن مغامرتي الأولى لم تحدث حتى أصبحتُ في التاسعة والعشرين من عمري. ولكن سيكون من الخطأ اعتبار ذلك التاريخ بداية لحياتي الجنسية. لا تسيئوا فهم هذا: كنتُ عفيفًا تمامًا باستثناء سلس البول اللا إرادي في أرض الأحلام، وكانت حالات نادرة جدًا. ولكن فيما بين أوسكار وايلد الذي قال إن عمر السادسة عشرة هو السن الذي تبدأ فيه الرغبة الجنسية، وروسو الذي أعلن أن دمه يغلي بها منذ ولادته، فإن تجربتي الشخصية تؤكد روسو وتدحض وايلد. تمامًا كما لا يمكنني أن أتذكر في أي وقت لم أعرف فيه القراءة والكتابة، لا يمكنني أن أتذكر في أي وقت لم أمارس خيالاتي في أحلام اليقظة حول النساء.

على الشباب جميعهم أن ينذروا أنفسهم لفينوس كي يحفظوا عفتهم، وهنا تكمن أهمية الفن الجوهرية. انغمستُ في الأوبرا الرومانسية منذ طفولتي. وعرفتُ كل الصور والتماثيل اليونانية القديمة في معرض أيرلندا الوطني. وقرأت بايرون وكل ما أمكنني الحصول عليه من الخيال الرومانسي، وجعل دوماس الأب التاريخ الفرنسي مثل أوبرا لي مايربير بالنسبة لي. ومن كوخنا في دالكي هيل، كنتُ أُعاين بانوراما ساحرة للبحر والسماء والجبل، أتخمت بعسل اللذة؛ فقد كانت فينوس منّانة.

والصعوبة التي تكتنف فينوس هي أنه على الرغم من قدرتها على إنقاذنا من الفجور المبكر، ما يمكننا من إطالة عذريتنا الجسدية لفترة طويلة بعد سن المراهقة، فإنها تستطيع أيضًا أن تجعلنا عقيمين بمنحنا

غراميات خيالية في سهول جنتها السحرية لدرجة أنها تفسدنا كرجال ونساء حقيقيين. قد نعزف عن ممارسة الجنس من خلال تخمة الجمال وفائض الحسّية. وقد ينتهي بنا المطاف زُهّادًا أو قديسين أو عزّابًا مسنين أو عوانس؛ لأننا، مثل هاينه، لا يمكننا سلب لُب فينوس ميلو أو السماح لهَرمِس[1] براكسيتليس بخطفنا. قصائد حبنا ككتاب شيلي «عن الروح الصغيرة[2] *Epipsychidion*»، لا يثير سوى الرجال والنساء الشهوانين العقلانيين الذين يعرفون على الفور بأننا نحب رؤيتنا الخاصة ونتظاهر فقط بأنها ليست كذلك، ولا نرغب فيها ولا نأمل أن نكونها.

والآن بتَّ تعرف كيف عشتُ حياتي؛ عفيف لم أمارس الجنس، وزير نساء عنيد، حتى أصبحتُ في التاسعة والعشرين من عمري، أهرب حين تُرمى محرمة إليّ، لأني أردتُ أن أحب دون أن أستسلم وأفقد حريتي اللانهائية. وخلال الأربع عشرة سنة التي سبقت زواجي في سن الثالثة والأربعين، دائمًا ما كانت هناك سيدة في حياتي، جربت كل التجارب وتعلمت ما أمكنني تعلمه منهن. لم أدفع للسيدات مالًا؛ لافتقاري للمال الفائض، فقد كسبت ما يكفي فقط لأسكن في طابق ثانٍ، ولم أستلم باقي أتعابي كمبالغ مالية بل حرية التبشير بالاشتراكية. أما البغايا اللاتي كُن يُبادرن بالكلام والتقرب مني فلم يُعجبنني أبدًا.

---

(1) هِرمِس Hermes: ابن زيوس ومايا، وهو رسول الآلهة وإله التجار واللصوص والخطباء. نحته براكسيتليس على أنه رجل يعد رحاله للسفر بقبعة عريضة الحواف وحذاء وقضيب مجنحين.

(2) عن الروح الصغيرة Epipsychidion: هو عمل شاعري نشره بيرسي بيش شيلي عام 1821. وكُتب عنوان ثانوي فيه: «قصائد موجهة للسيدة النبيلة سيئة الحظ، إميليا فـ...، المسجونة الآن في دير...».

وما إن أصبحتُ قادرًا على شراء الملابس اللائقة، حتى اعتدت على أن تقع النساء في غرامي. لم ألاحق امرأة قط، كُنَّ هنَّ من يلاحقنني.

ومرة أخرى، لا تسارع في استنتاجاتك. كل هؤلاء النسوة لم يرغبن بعلاقات جنسية. فبعضهن زوجات سعيدات وقّدرن فهمنا بأن الجنس محضور. أردن أزواج الأحد، والكثير منهم. وبعضهن كان على استعداد لشراء الصداقة بكل سرور، بعد أن تعلمن من تجربة متنوعة أن الرجال يُشكّلون بهذه الطريقة. قد يكون بعضهم ساحرًا لكنه لا يطاق كشريك حياة. ولا توجد حالتان متماثلتان. لم يكن قول ويليام موريس «كلهم متشابهون»، كما قال لونجفيلو: «يتحدث إلى الروح».

لم يخدعني الجنس أبداً كأساس للعلاقات الدائمة، ولم أحلم أبدًا بزواج على علاقة به. وضعت كل شيء أمامه، ولم أرفض أو أخلف وعدًا للحديث عن الاشتراكية كي أحظى بسهرة أتودّد فيها إلى النساء. أقدّر التجربة الجنسية بسبب قوتها في إنتاج طوفان سماوي من العاطفة والانسجام الذي أعطاني عيّنة من النشوة، مهما كانت لحظية، والتي قد تكون يومًا ما الحالة الطبيعية للنشاط الفكري الواعي.

لم أكسب ما يكفي من المال حتى تجاوزت الأربعين من عمري لأتزوج من دون أن يبدو زواجي من أجل المال، ولا زوجتي التي بنفس سني، من دون الشك في أن تكون مدفوعة بالجوع الجنسي. وكرجل وزوجته، وجدنا علاقة جديدة لم يكن للجنس فيها دور. انتهى عصر التودّد إلى النساء، والمغازلة، والعبث لكلينا. حتى تلك الارتباطات التي لم تتم والتي كانت من ألطف الذكريات وأطولها أمدًا.

ولا تنس أن جميع الزيجات مختلفة وأن الزواج بين الشباب، الذي تليه الأبوة، لا يجب أن يُجمع بزواج بلا أطفال بين كهولٍ في منتصف عمرهم تجاوزوا السن الذي يمكن للعروس فيه أن تنجب طفلها الأول بأمان.

والآن. لا رومانسية، وفوق كل شيء، لا إباحية.

1930

كيف كان على فرانك أن يكتبها

كان الراحل فرانك هاريس شخصية مميزة في لندن الأدبية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. عمل محررًا لمجلة فورتنايتلي ريفيو The Fortnightly Review وبعد ذلك خاصةً لصحيفة مراجعة السبت الأسبوعية The Saturday Review. أحاط نفسه بزمرة من الكتاب الرائعين الذين اختيروا بحكمة وشجاعة استثنائية، وأنا منهم. اشتملت أعماله الخاصة على قصص قصيرة، على غرار قصص دي موباسان، وسيرة ذاتية لأوسكار وايلد، وكتاب عن شكسبير، وسيرة ذاتية صريحة فاضحة (لاحقًا)، وسلسلة بورتريهات معاصرة واضحة وحادة.

وفي أحدها، توهّم أنه كتب بورتريه عني، ولم يكن واضحًا ولا حادًّا، لأنه، في كتابته عني، كان محُرجًا ومقيّدًا بسبب التزامه تجاهي، لأنني بقيت مخلصًا لارتباطنا القديم خلال فترة لم يكن يتمتع فيها بشعبية ولا ازدهار، واضطر إلى اللجوء إلى المنفى أخيرًا. وكانت النتيجة تقريضًا محببًا بورَع، الأمر الذي جعلني أضحك؛ لذلك أمسكتُ قلمي وأرسلت إليه المثال التالي عن كيف كان يجب أن يصوّرني.

نشرها هاريس في مجلده الأخير «بورتريهات معاصرة»، لكنني لا أظن أنه قرأها أبدًا. لم يعرف شيئًا عن حياتي العملية بعد تركي صحيفة مراجعة السبت. وحين كان يُصارع الموت، كلّفه ناشر أمريكي بكتابة سيرة ذاتية لي،

دفعته الحاجة إلى القيام بمحاولة يائسة لإنجاز هذه المهمة، لكن تلفيقاته وتخميناته كانت كبيرة، لدرجة أنني اضطررت إلى إعادة كتابة الكتاب بنفسي وجعلته أكثر واقعية كي يتمكنوا من نشره بعد وفاته. وبالتالي فعلت بجدية ما فعلته في الأسطر التالية كألعاب ذهنية:

اغتنمت هذه الفرصة لإضافة بعض الجمل التي وحده شبح هاريس يمكن أن يكتبها لأنها تذكر الظروف التي حدثت بعد وفاته.

وقد مكنني تهويل نفسي من وجهة نظر واقعية (النظرية طبيعية بالنسبة إليّ) من قول أشياء ما كنتُ لأقولها بلطافة من منظوري الذاتي، لكنها تُحتمُ عليَّ إضافة أخطاء وأوهام ذاتية مستثناة.

قبل محاولتي إضافة برنارد شو إلى مجموعتي «بورتريهات معاصرة»، أجد أنه من الضروري أن أحصن نفسي مقدمًا باعترافي الكامل بفضائله الاستثنائية. من دون إثارة اعتراضات تافهة عن ضآلتها، أعلن على الفور أن شو هو رجل عادل بشكل مثالي. وأعترف أنه في جميع خلافاته، معي أو مع أي شخص آخر، كان، وسيظل، شو دائمًا على حق.

أنا أدرك أن العادة الشائعة لإساءة معاملته هي عادة ناشئة عن جهل وسخافة، وأن التظاهر بعدم التحدث معه ما هو إلا غطاء تافه للتراجع عن لقائه المفاجئ. وإذا كان هناك أي اعتراف آخر يمكنني تقديمه، أو أي شهادة أخرى يمكنني الكشف عنها، فأنا على استعداد لتقديمها والاعتذار عن إهمالها، ولن أتردد في القول، ولو للحظة، إنّ شو هو أعظم رجل عاش على الأرض؛ كل القضايا التي رُفعت ضده دُحضت حين دققوها جيدًا، وكل نبؤاته تحققت وكل إبداعاته الرائعة تنبض بالحياة لأجيال.

يخامرني شعور بعدم الارتياح من كوني لم أنصفه حتى الآن، وبأني ناكرٌ للجميل، وغير مخلص ومستخفّ به. لا يسعني إلا أن أكرر أنه إذا كان هناك أي شيء غفلته، ما عليكم سوى لفت انتباهي إلى السهو وسيُعالج. وإذا تعذر عليّ القول إنّ شو لا يلمس شيئًا إلا وزيّنه، يمكنني على الأقل أن أشهد أنه لا يلمس شيئًا إلا وأزاح عنه الغبار ونظّفه وأعاده إلى مكانه بعناية أكبر بكثير من آخر شخص تعامل معه.

سأخبركم طُرفة عن شو. قال أوسكار وايلد عنه: «ليس له عدو في العالم. ولا أحد من أصدقائه يحبه».

ذات مرة، في عشاء عام أقامته مجموعة المسرح، كان على شو أن يشرب بصحة النُقّاد المسرحيين، وكان على ماكس بيربوهوم الردّ. قبل بدء الحديث، جاء ماكس إلى شو وقال له: «ستقول إنّك ناقد أيضًا، أليس كذلك؟» رد شو: «لا أعرف ما سأقوله ولكنني قد أتجرأ على قول ذلك».

فقال ماكس: «عِدني أنك ستفعل. أريد توضيح أمرًا بخصوصه».

«افعل ما أنتَ مُلزم بفعله». قال شو، وفعل ذلك.

وبدأ ماكس خطابه حينها: «في ما مضى، حين كنتُ في المدرسة حيث اعتاد المدير على القول: تذكروا يا أولاد، أنني واحدٌ منكم». وأنقذ هدير الضحك ماكس من توضيح العبرة من كلماته.

وقال روبرت ليند عن منطق شو السليم عن الحرب التي على الرغم من أن لا أحد يمكن أن يعترض بمنطقية عليها، مع ذلك، منذ لحظة اندلاعها، كانت الحرب موضوع حديث وكتابة كحرب بين الحلفاء من جهة وبين ألمانيا والنمسا وتركيا وبرنارد شو من جهة أخرى.

عندما حاول شو الحصول على مقعد في انتخابات مجلس مقاطعة لندن باعتباره تقدميًا، بعد ستة أعوام من الكدح التقدمي الشاق في مجلس منطقة إدارية، مع ميزة كونه أحد مؤسسي التقدمية المحلية، لم يُهزم بسبب تخلي الجميع عنه، ما عدا الأقلية الليبرالية والإصلاحيين المعتدلين (شو لا يشرب الخمر) فحسب، وإنما حتى الصحف التقدمية الرئيسية تهللت وابتهجت بشدة علنًا لخسارته، كما لو أنها الخلاص المبارك. الأشخاص الوحيدون الذين صوّتوا له هم أولئك الذين لم يصوّتوا من قبل. وقد ثبت ذلك من خلال زيادة نسبة الاقتراع في الانتخابات اللاحقة عندما كان الممثل المحبوب جورج ألكسندر هو المرشح الفائز.

هذه هي الأشياء التي تحدث له في لحظاته الأكثر شعبية عندما لا يصدم ويعارض تيار الرأي العام. وحين، كما يحدث غالبًا، يتعيّن عليه انتهاز فرصة كونه محكومًا بالإعدام شنقًا من غير محاكمة بإخبار بعض الحقائق غير المستساغة، وعندما يعتقد عدد من الأشخاص الذين لم يجرؤوا من قبل على إظهار عداوتهم له من قبل أنهم أجبروه على الفرار أخيرًا، وينفثون عليه مرارة وعنفًا لا بد وأنهما كانا يغليان في قرارة نفوسهم لسنوات.

والنتيجة هي: نادرًا ما تجد أحدًا لم يلتقِ بشو إلا وظنه رجلًا ذا مظهر غير لائق وأخلاق فظّة وقاسية وشخصية لا تُطاق. وهو يعرف هذا، ويقول: «أدهش الغرباء بلطفي ودماثتي دائمًا؛ نظرًا إلى أنه لا يمكن لأي إنسان أن يكون مرفوضًا جدًا كما يتوقعون مني، كل ما عليّ فعله هو التصرّف بمَدَنية طبيعية كي أبدو لطيفًا جدًا».

ولا يمكن لأي بورتريه معاصر صادق تجاهل كونه إما تلك القوة الخارقة للعداء المحتدّ المثير وإما الغياب الكامل لأي أساس واضح

لها. وقد قيل إنّ شو يزعج الناس بالوقوف دائمًا على رأسه، وبأنه يسمّي الأبيض أسود والأسود أبيض. لكن وحده المغفل من يعرض أو يقبل بهذا الهراء. لا يكسب الرجال سمعة كالتي كسبها شو بالخداع والانحراف. الأمر المحيّر هو أن شو كان يزعجنا بشدة بوقوفه على قدميه وإخبارنا بأن الأسود أسود والأبيض أبيض، بينما نرضي أنفسنا بالتصريح بما يعرف الجميع أنه خاطئ.

ثمة شيءٌ جنونيٌ في أن تُجبر على الاتفاق مع رجل يحتج عليه كيانك بأجمعه، لا لأنه يعبر عن وجهة نظرك بدقة أكبر مما تستطيع أنت، بل لا يمكنك تحمل أن يشاركك رجل تعتبر طبيعته وحشية ومدمرة أعمق قناعاتك. كما لو أن هذا الرجل قد عرض السير معك قليلًا لأنك تسير في اتجاه منزله، وكنت تعلم أن المنزل سيكون حفرة لا قرار لها.

في الواقع، لا يوجد شيء في برنامج شو السياسي والاجتماعي ولا حتى في إصراره على المساواة الأساسية في الدخل وانفصاله عن أي نوع من المثابرة أو الفضيلة الشخصية يستدعي أن يخشاه مفكرٌ ذو مؤهلات عقلية حديثة مناسبة. إنه رجل آمن تمامًا في أي لجنة، رجلٌ لبِق وحذر أبقى جمعية فابيان، التي كان قائدًا لها لسبعة وعشرين عامًا، خالية من الخلافات التي فضّت جميع المنظمات الاشتراكية الأخرى.

لكن الوحشية موجودة. لأن شو يعمل في السياسة بروح من يساعد كلبًا أعرج للحصول على عظمة يعتقد أنه لا يمكنه تجاوزها. «كل رجل فوق الأربعين هو وغد!»، صرّح بهذا حين كان عمره فوق الأربعين. وهو لا يخفي قناعته بأن المشاكل التي أثارتها الحضارة الحديثة متعددة الأديان تتجاوز قدرتنا السياسية وقد لا نحلّها أبدًا. وهو لا يعلّق قيمة كبيرة

على الخبرة المجردة، معتبراً أن توقع الحياة لا تذكرها هو الذي يحدّد السلوك. ويذكرنا مرارًا وتكرارًا بأنه نظرًا إلى كون التطور لا يزال خلاقًا، فقد يتعيّن على الرجل التخلّص منه باعتباره شيئًا ضارًّا، واستبداله بخلق أجدد وأسمى، تمامًا مثلما وُجِد الإنسان نفسه لتعويض أوجه القصور في الحيوانات الدُنيا.

من المستحيل اعتبار كلام شو إهانة نستاء بسببها، لأنه لا يرحم نفسه كما يفعل معنا. لا يركلنا في البحر ويبقى على سطح السفينة، بل بأقصى قدرٍ من الفكاهة يطوق خصرنا بمودة ويقفز في البحر معنا. لا في المحيط الأطلسي المهيب حيث قد نهلك بشكل مأساوي، ولكن في بحرٍ من السخرية، وسط صرخات من الضحك الساخر. ويلعب حيلته هذهِ معنا في أكثر اللحظات غير المتوقعة وغير المناسبة. وقد قال السير هنري نورمان: «لا يوجد رجل يعرف كيف يدهن مزلجة أخلاقية أفضل من شو». وبالتالي يصبح دفاع شو أشد رعبًا من أكثر الهجمات الآخرين حقدًا.

في بدايات ازدهار إبسن في لندن، اقترح شو مساعدة ممثلة أمريكية في مشروع إبسن من خلال إجراء مقابلة معها. ولدهشته، أخبرته السيدة بجدية انفعالية بأنه إذا كتب كلمة عنها، فستطلق النار عليه. وقالت: «قد لا تصدّق، هنا في إنجلترا، أن مثل هذه الأشياء ممكنة. ولكن في أمريكا، نفكر بشكل مختلف؛ وسأفعل ذلك، لدي المسدس جاهز». فعلّق عليها شو بهدوء من دون أن يزعجه كلامها «مسدس الجنرال غابلر»، لكنه لاحظ كيف ترددت السيدة بتوتر من التعامل معه على الورق، لذا لم تكتب المقابلة.

يعترف بعض الأصدقاء المقربين بأنهم حتى اعتادوا عليه، كانت رسائله الودية تُثير حنقهم وتنقلهم إلى هيجان صاخب من الشتائم التي يمطرونه

بها. يروي عالم فراسة الدماغ الذي خاض معه حوارًا في مطعم نباتي في بداياته قصة، اتهم هذا الرجل شو بأنه «عَفِن» *septic* وكان يقصد «شكّاك» *skeptic* فسأله شو: «لماذا؟ أليس لدي نتوء الوقار؟».

صاح عالم الفراسة «نتوء! بل قل حفرة!».

ولو كانت أخلاق شو عدوانية وقبيحة، لضربه على رأسه على أقل تقدير. لكن شفقته على عدم كفاءتك وكفاءته بالغة اللطف، مغطاة بمراعاة لا تقبل الجدل على الاحترام الجمهوري المثالي الذي يحق لك بأن تكون عاجزًا تمامًا، وليس هناك ما نتذمّر بشأنه، ولا شيء تتمسك به، ولا مبرر لخطف سكين حادة وغرزها في أحشائه.

أنا فرانك هاريس، كنتُ أعمل محررًا لمجلة فورتنايتلي ريفيو حين قابلتُ شو لأول مرة بشأن مقال. كان لديه أسلوب جذاب في كونه مهتمًّا بي أكثر من اهتمامه بالمقال. وكي لا أكون شديد التواضع، أفترض أني كنتُ أكثر أهمية ومتعة من المقال. وبطبيعة الحال لم أكن مستعدًا للتشاجر مع شو بسبب التفكير في هذا وإظهاره. هو بارع في الحصول على شروط سهلة وحميمية بسرعة فائقة. وبعد انتهاء الخمس دقائق، وجدتُ نفسي أشرح له كيف أتعبتُ صحتي بسماحي لنفسي بصبيانية أن أندفع بسرعة كبيرة في قارب سباق في النهر، وأجهدت نفسي كثيرًا.

أصغى بانتباه إلى محنتي وتعاطف معي كطبيبي، وسألني بعض الأسئلة بخصوص مدى اعتنائي بصحتي، ومن هذهِ الأسئلة: «هل تشرب الخمر؟»، كنتُ مسيطرًا على الموقف وأكدتُ من دون أن يرفّ لي جفن أن تشخيص الهذيان الانفعالي لا يمكن أن يستمر، لكني لم أستطع منع نفسي من إدراكي فجأة أني توقّعت أن يفترض الرجل أني لستُ سكيرًا، وأني جالس

وجهًا لوجه مع رجل لن يقدم على افتراض كهذا. وكان سؤاله شبيهًا جدًا بالأسئلة التي طُرحت في إيرون بتلر لتكون مناسبة تمامًا للهشاشة البشرية.

في مسرحية شو هداية الكابتن برازباوند *Captain Brassbound' conversion*، يقدم الكابتن مساعدهُ بالكلمات التالية (أو بما معناه) «هذا أعظم وغدٍ ولص وكاذبٍ ومخادعٍ على الساحل الغربي». ويردّ عليه مساعده «اسمع يا كابتن. إذا أردت أن تكون متواضعًا، فتحدث عن نفسك، لا عني». وحقيقة كون شو متواضعًا بنفسه، ويكشف عن نفسه بحرية أكبر مما تسمح له أخلاقه الطيبة أن يُعري أصدقاءه، لا تجعل التعامل مستساغًا أكثر لضحاياه، فهو يسلبهم ثأرهم ويجبرهم على الإشادة بمودته في حين يشعرون بالانزعاج الشديد منه.

من صعب تصنيف رجل يكشف نفسه لدرجة يجعل منها أضحوكة تافهة. لكن أصدقاء شو يتفقون على أنه تافه بعبثية. وهنا مرة أخرى، يخلط حكمنا بإساءة التصرف إليه بأقصى درجات التبجّح المُغرق عن فطنته وذكائه. ويُصرّح بأنه يفعل ذلك لأن الناس يحبون هذا. ويقول بصراحة تامة، إنهم يحبون سيرانو ويكرهون «السعال المتواضع للشاعر الصغير». أولئك الذين يمدحون كتبه في وجهه يُصابون بالدهشة حين يرون الحماسة التي يبديها وهو يمدح كتبه معهم، ويحتاجون إلى حضورهم الذهني كله ليتجنبوا استفزازه لهم ليسحبوا خمسة وسبعين بالمئة أو أكثر من مديحهم.

مثل هذا الاستعراض يجعل من الصعوبة بمكان تحديد مقدار الغرور الحقيقي أو التواضع الذي يكمُن تحت كل ذلك. وهو بنفسه ينكر أنه مغرور ومعجب بنفسه حين يقول: «لا يمكن لأي رجل أن يكون مغرورًا، حين يكون، مثلي، أمضى حياته بأكملها يحاول عزف البيانو بصورة صحيحة،

ولم ينجح أبدًا في إصابة فاصلة موسيقية واحدة». وحين طلبت منه أن يقدم لي قائمة بفضائله، ومميزاته، وإنجازاته، كي لا أظلمه بإغفالي ذكر أي منها، أجابني: «هذا غير ضروري: كلها معروضة في نوافذ المكتبات».

يلعب شو دور الرجل المتواضع فقط في علاقاته بالفنون التي هي منافس كبير للأدب. لم يزعم قط أنه «أفضل من شكسبير»، على الرغم من أنه يدعي أنه خليفته. ويحتوي العنوان المقتبس إلى حدٍ ما لإحدى مقدماته على نبرة استنطاق بعده، وقد نبذ السؤال بنفسه حين علّق بأن شكسبير في المسرحية كموزارت في الأوبرا ومايكل آنجيلو في الفريسكو، قد وصل إلى ذروة فنه، ولا يمكن لأحدٍ أن يكون أفضل منه، على الرغم من أن أي شخص في هذا الزمان بإمكانه قول أشياء لم يقلها شكسبير، ووجهة نظر عن الحياة وشخصية لم تكن مُتاحة له.

مع ذلك، لدي قناعة بأن شو راغبٌ في مقارنة مسرحياته مع مسرحيات شكسبير كما كان تيرنر راغبًا في أن تُعلق لوحاته إلى جانب كلاودس. ومع هذا، حين دعوه إلى وليمة عشاء في باريس على شرف رودن، كتب أنه تشرّف بكونه أحد نماذج رودن، وأنه متأكد من أن قواميس السيرة الذاتية ستذكره على أنه «برنارد شو: نموذج لتمثال نصفي لرودن، وبخلاف ذلك، غير معروف». وضرب على نفس الوتر، حين اكتشف أن رودن، على الرغم من خبرته المثالية في النحت، ليست لديه أية كتبٍ باستثناء أكثر الأنواع شيوعًا من مجلدات العروض التجارية، وقدم له نسخة من كيلمسكوت شوسر[1] وكتب فيها:

(1) كيلمسكوت شوسر Kelmscott Chaucer: نسخة متميزة وفريدة من الأعمال الكاملة لأول شاعر إنجليزي عظيم (جيفري شوسر المولود في القرن الرابع عشر)، وتعتبر الإنجاز المطبعي المتميز في كل العصور إلى جانب الكتاب المقدس لغوتنبرغ، وقد صممها ويليام موريس.

سبق أن رأيتُ فنانَين مبدعَين في عملهما: موريس، الذي صنع هذا الكتاب، ورودن العظيم، الذي أبدع نحت رأسي من الصلصال، أهدي هذا الكتاب إلى رودن، وأخط اسمي في زاوية الضريح، ليقدس أعماله بينما تضيع أعمالي هباءً.

وعلى نفس المنوال، كان النقش الذي اقترحهُ على قاعدة التمثال الذي نحتته الليدي كنيت له، وهو موجود الآن في معرض بورنموث المحلي.

لا تندبوا العجوز جورج برنارد فقد فني

وهتف كل أصدقائه: أحسن صنعًا

وعلى الرغم من منزلة رأس جورج التي تفوق أكثر الرؤوس ندرة

والوقت الطويل الذي أمضته كاثلين في نحت تمثاله بيديها

قال الرب: ليس عظيمًا ما صنعته يداكِ. توقفي عن المحاكاة

ولتكن روحكِ دليلكِ.

انحتي تمثاله من دون مظهر الأبدية

كي يشارك خلودكِ

حين يطوي النسيان كل أعماله

وفي وقتٍ لاحق، طلبت منه الأخبارية المسائية *The Evening News* أن يكتب كلمات قصيرة لتُخطّ على شاهد قبره. وردًا على ذلك، رسم قبرًا تنمو عليه الأعشاب الضارة بإفراط وخط عليه الأسطر الآتية:

هنا يرقد

برنارد شو

من هو بحق الشيطان؟

أنا أعترف الآن أنني لست مقتنعًا بدليل التواضع هذا. ولست متأكدًا من أنها ليست اللمسات الفنية الأخيرة لتبجّح شو. وبالنسبة إلى أصل التمثال النصفي لرودن: لم يعرف رودن شيئًا عن شو، ورفض في البداية القيام بهذهِ المهمة. فكتبت السيدة شو في هذا الشأن إلى رودن تتوسّل إليه بأنها تتمنى الحصول على نصب تذكاري لزوجها، وبأن زوجها صرّح: أن أي رجل، معاصر لرودن، يسمح لأي أحدٍ عداه بأن يصنع له تمثالًا، سيعرّض نفسه لسخرية الأجيال اللاحقة كونه غبيًا وأحمق. وجد رودن أنه يتعامل مع رجل يعرف قيمته، فوهنت حدّة رفضه.

ثم تأكدت السيدة شو من ريلكه، الشاعر النمساوي، الذي كان يعمل سكرتيرًا لرودن حينها، من قيمة الرسوم المعتادة مقابل تمثال نصفي. وقُدِّم المال (ألف جنيه إسترليني) على الفور إلى رصيد رودن، على أساس أنه لن يكون ملزمًا بأي شيء في ما يتعلق به، وقد يصنع التمثال النصفي أو لا يقوم بذلك، أو يبدأه أو يتركه كما يحلو له: باختصار، تعاملَ مع المبلغ المدفوع كمساهمة وهبة لعمله بشكل عام وبقي سيد الموقف تمامًا. وكانت النتيجة بالطبع أن رودن أرسل في طلب شو ليأتي إلى باريس في الحال. واستقبلهم هو وزوجته كضيوف يوميًا في فيللا ميدون الخاصة به، وعمل بانتظام كل يوم لمدة شهر حتى انتهى من التمثال النصفي، وتجاوز صفقته في إعطاء ملامح شخصيه للجالس.

لدينا هنا شو الدبلوماسي، سيد التملّق وناقد الفن حاد النظر، ولا أقترح، ولو للحظة، أن هناك أدنى رياء في تصرفاته. ولو كان هناك، ما كان لرودن أن يتضمنها. لكن ألم يكن فيها أي خيلاء؟ هل سيترك رجل مشغول جدًا، مثل شو، عمله ويذهب إلى باريس ويتموضع كنموذج محترف لشهر

كامل، لو لم يعتقد أن تمثاله يضاهي تماثيل أفلاطون التي هي الآن كنوز للمتاحف التي تمتلكها؟

إن شو ممثل متواصل لا سبيل إلى تقويمه، يستخدم مهارته بشكل متعمد في حياته الاجتماعية كما في عمله المهني في إنتاج مسرحياته الخاصة. وهو لا ينكر ذلك، ويقول «إن ج. ب. ش. ليس شخصًا حقيقيًا، إنه أسطورة أنشأتها بنفسي، تكلّفٌ ومكانة مرموقة. وشو الحقيقي لا يشبهه إطلاقًا». وهذا بالضبط ما يقوله جميع معارفه عن تمثال رودن؛ إنّه لا يشبهه على الإطلاق. لكن شو يؤكد أن هذه هي الصورة الوحيدة التي تقول الحقيقة عنه. وعندما بدأ رودن العمل في الاستوديو الخاص به، اشتكت إليه السيدة شو من أن جميع الفنانين ورسامي الكاريكاتير، وحتى المصورين الفوتوغرافيين، يهدفون إلى إنتاج مفستوفيليس، شيطان الضواحي، الذي تخيّلوا أن شو يمثله، من دون أن يتكبّدوا عناء النظر إليه. فردَّ رودن قائلًا: «لا أعرف شيئًا عن سمعة السيد شو، لكني سأمنحكِ ما أراه فيه». وصرّح شو بأنه كان جيدًا ككلمته.

حين رأى بول تروبيتسكي التمثال النصفي أعلن أن لا حياة في عينيه. وفي ثلاث ساعات من العمل المحموم، أنتج أول تمثال نصفي لبرنارد شو، موجود الآن في أمريكا. كعمل فني مميز هو رائع، لكنه مفيستوفيليس، وليس شيطان الضواحي، بل شيطان أرستقراطي. أحب شو التمثال، وأحب تروبيتسكي، لكن زوجته لم يعجبها التمثال، ولا البورتريه التي رسمها نيفيل ليتون التي أوحت بها ملاحظة غرانفيل باركر حين قال إن بورتريه فيلاسكيز للبابا أينوسنت كانت لوحة بديعة لشو. وعلى هذا الأساس، رسم ليتون شو في زي ووقفة البابا أينوسنت، وعلى الرغم من أن اللوحة تُصوّر كيف سيبدو

شو وهو جالس على كرسي البابوية، فإن البابا بيرنارد لن يتعرّف إليه أي جامع للتحف الأثرية كما هو الحال مع تمثال رودن النصفي.

بورتريهات أوغسطس جون الثلاثة لشو أقل تناغمًا مع تمثال رودن. وفيها أظهر جون قوة حضور شو وثقته بأبهى صورها، وهي بالطبع أكثر بكثير مما في الواقع. وكان شو يقول لأصدقائه حين يُريهم صورته «هذا هو شو العظيم»، ولكنه حين يُشير إلى تمثال رودن يقول «هذا أنا فحسب، من دون ادعاء». وبورتريه دي سميت هي لرجل مسن حساس وهادئ، أحب شو الشبه الكبير مع والده. وتمثال الليدي سكوتِ ودود وواقعي، التمثال بنصف طوله لليدي كنيت من دين (نفس السيدة) هو قرين لتمثال شكسبير في كنيسة ستراتفورد. ويُصنف التمثال النصفي لسيغموند ستروبل بنفس مرتبة تماثيل رودن وتروبيتسكي. وقد نحت الأخير تمثالًا كاملًا لشو؛ طبيعي وواقعي وهو على المنصة واقف كخطيب. وهذا التمثال البرونزي الجميل موجود في المتحف الوطني الأيرلندي، الذي يحتوي على بورتريه رسمه جون كولبير لشو، عادي، ولكنه نابض بالحياة بما يكفي لتخطئ السيدة شو بينه وبين شو نفسه في استوديو كولبير. كانت السيدة شو شديدة الحساسية تجاه اللوحات المرسومة لزوجها وصعبة الإرضاء، وقالت لزوجها عن لورا نايت: «لقد أعطتك لورا صدقها الخالص، لكنك تمثل على الدوام»، وعندما رأت صورة لتمثال إبتسين النصفي الشهير (والأخير) قالت: «إذا دخل هذا الشيء إلى المنزل، سأغادره». ولم يدخل التمثال إلى المنزل أبدًا. أُعجب شو بجودة العمل، لكنه اعترف بأنه يصور أحد أسلافه الأصليين. وعلى الرغم من أن تمثال ديفدسون مفعم بحيوية فإنه تصميم مُنجز بعجل.

لا عجب أن ه. ج. ويلز اشتكى من عدم قدرته على التحرّك مسافة قدمٍ من دون أن يُحدق في وجهه تمثال شو. ربما شو المتواضع، لكن بالنسبة إلى شخص جلس أمام أعظم فنانين عصره ليصنعوا له تماثيل تذكارية، هل يمكن تبرير تواضع كهذا حتى تمضي على موته خمسمائة سنة على الأقل.

شو هو أكبر المتحذلقين على قيد الحياة، ورجل ديكنز الذي أكل الكعكة من حيث المبدأ لا يمكن أن يُقارن به من هذهِ الناحية. وقد قال عنه الصحافيون الوصفيون إنه يرتدي قميصًا من الفلانيلة. لم يرتدِ شو قميصًا من الفلانيلة قط في حياته. وهو لا يرتدي قميصًا من الأساس، لأنه يعتقد أنه من الخطأ تغطية جذع الرجل بطبقتي نسيج، ولذلك يرتدي ملابس داخلية كاملة غير معروفة لصانعي القمصان. وقد نشأت خرافة الفلانيلة، لأنه في الوقت الذي كان فيه من المستحيل اجتماعيًا للرجل المحترف أن يظهر في الأماكن العامة في لندن بدون ياقة بيضاء منشّاة، أكد شو أنه لا يمكن لأي عين بارعة أن تتحمل تباين الألوان بين الياقة المنشاة البيضاء ودرجات لون البشرة الأوروبية، وأنه أصحاب البشرة شديدة السواد وحدهم من يجب عليهم ارتداء ياقات كهذه. ولهذا، كان يرتدي الياقات الرمادية. الآن، بعد تغيّر الموضة، أصبح يرتدي ياقات بألوان مختلفة، لكنه يختار اللون بحسب نظرية مفادها بأن أفضل تأثير للألوان يكون باختيار درجتين مختلفتين من نفس اللون. وسترته من أكثر خياطة ويست أيند أناقةً، لكنها غير مبطنة من حيث المبدأ.

كان يعنون رسائلهُ الرسمية في أعلى الجزء الأيسر من الظرف. وقد تقول إنه مجرد تظاهر بالتفرد، بل على العكس؛ سيحدثك لساعة عن جمال نظام هوامش الصفحة الذي وضعه كَتَبَة العصور الوسطى وتبناه ويليام موريس،

وعن تركهم مكانًا مخصصًا لإبهام ساعي البريد. وعندما اشتكى ساعي البريد من أن ختم البريد طمس العنوان عاد شو إلى الممارسة العادية.

ويبرر رفضه ااستخدام الفواصل العليا والفواصل المقلوبة (علامات الاقتباس) في طباعة كتبه على أساس أنها تفسد مظهر الصفحة، معلنًا أن الكتاب المقدس لم يكن ليحقق مكانته العليا في الأدب لو كان مشوهًا بمثل هذه العلامات القبيحة. ويهتم بالصوتيات وأنظمة الاختزال، ويدين بشعبيته الكبيرة كخطيب في أكبر القاعات إلى تعابيره المتحذلقة، إذ تُسمع كل كلمه بوضوح شديد. ويدافع عن مزيج النظام المتري مع الاثني عشري عن طريق إدخال رقمين جديدين لتعدادنا، وبالتالي يصبح: ثمانية، تسعة، ديك، إل، ثمانية دزينة، تسعة دزينة، ديك دزينة، إل دزينة، وهكذا.

يُحبُ شو الآلات كمحبة الأطفال اللعب، وقد اشترى في إحدى المرات ماكينة تسجيل النقود من دون أدنى استخدام لها. وحين كان على أبواب الستين من عمره، سلّم روحه لانبهار الدراجات النارية؛ وكان يقودها من المصنع إلى المنزل لسبعة وسبعين ميلًا، وفي النهاية، حاول ذات يوم التوقف فجأة وبسرعة فائقة عند عتبة بابه، فانبطح أرضًا.

وقد اتُهم بأنه واحد من عصابات المجانين المخلصين الذين يستحمون في بحيرة السربنتين على مدار العام، تحت المطر أو أشعة الشمس. ولكنه تلفيق بُني على أساس ممارسته السباحة في حوض استحمام نادي السيارات الملكي كل صباح قبل الإفطار في الشتاء والصيف، وتعليله المزعوم هو: كونه أيرلنديًا يكره غسل نفسه، لكنه لا يستطيع الاستغناء عن تحفيز الغرق في الماء البارد. وهو، كما يعرف الجميع، نباتي، ويقدّر الصحة بشكل كبير ولكنه يعلن أن الرجال يتاجرون في صحتهم إلى

أقصى حد، وبالتالي يعيشون على حافة الانهيار. ويقول إنّ على الرجال المشغولين جميعًا الذهاب إلى الفراش لثمانية عشر شهرًا كل أربعين سنة للتعافي. ويمكنني بسهولة ملء صفحة أخرى من بِدعه وهواياته، لكنني سأكفّ عن ذلك.

كياسة شو مع النساء وتودده إليهن تكاد تكون معدومة. ويقول ببعض المصداقية إنه ليس هناك رجل يقوم بعمل حقيقي في العالم لديه الوقت أو المال الكافي لمطاردة طويلة ومكلفة مثل ملاحقة النساء. ربما يكون قد استهلّ الاحتجاج على غلاء وابتزاز النساء الجميلات، وهو الموضوع الرئيسي لمسرحيات هارلي غرانفيل باركر (خراب *Waste* ومنزل المدراس *The Madras House*)، ولا أحد يعرف ماضيه في هذا الشأن لأنه أصلح من أن يُقبِّل النساء ويشي بهن.

ظاهريًا وأمام الجميع هو زوج نموذجي، ولم تظهر عليه فضيحة أو أية شائبة خلال فترة تنقله بين الحركات السياسية المختلفة في شبابه، ومع ذلك، تصف حكاية شهيرة أن مدير أعمال ممثل معروف قال في يوم من الأيام في بروفة لممثلة ذات جمال متميز «لنعطِ شو شريحة لحم ونضخ بعض الدماء الحمراء فيه»، فصاحت الممثلة: «بحق السماء. إنه سيئ بما فيه الكفاية. ولكن إذا أعطيته اللحم فلن تكون أي امرأة في لندن بمأمن منه».

على أية حال، إن تعاليم شو أكثر إثارة للاهتمام من مغامراته الشخصية، هذا إن كان لديه أي منها. وهذه التعاليم هي رد فعل قوي جدًا ضد ما سماه حُبية *Amorism* القرن التاسع عشر، فهو ليس واحدًا من رجال الضواحي المتعصبين لفكرة أن الحب وحده يكفي. ويصر على أن العفة هي غريزة

قوية لدرجة أن إنكارها وتجويعها على النطاق الذي تم فيه تجويع الغرائز النقيضة ورفضها ممكن أن يُدمرا الحضارة. ويُصرُّ على أن الذكاء والفطنة هما شغف وعاطفة، ولأن الفكرة الحديثة القائلة بأن العاطفة ليست سوى جنس هي فكرة فظة وبربرية كفكرة بلوغمان، التي تزعم أن الفن هو فسق وبذاءة لا أكثر. ويشير إلى أن الفن يمكن أن يزدهر بشكل رائع عندما يكون الجنس ممنوعًا تمامًا، كما كان، على سبيل المثال، في الأدب الفيكتوري الذي أنتج ديكنز. ويقارن جوليو رومانو، المصوّر الإباحي الوقح، وهو تلميذ رافائيل ومخطط رائع، مع رافائيل نفسه، الذي كان حساسًا جدًا؛ لدرجة، على الرغم من أنه لم يرسم شخصية مغطاة من دون رسمها لأول مرة عارية، فقد قدّم ثناءه الغريب لسروال العذراء المباركة الداخلي في دراساته عنها! وأبدع في تزيين فيللا شهواني بقصة كيوبيد والروح من دون أن يخجل من صراحته المطلقة أو يفقد ماء وجهه وبراءته. ويؤكد شو أنه عندما انتقل الفن من رافائيل إلى جوليو سقط في الهاوية، ولم يكن مثيرًا للاشمئزاز فحسب، بل كان باهتًا.

كذلك يرفضُ المثلث الأبدي لمرحلة باريس كإثبات أن الزنا هو أكثر المواضيع المطروحة جفافًا. وكتب مسرحيات للبيوريتانيين ليوضح مدى استقلاليته عنها. ويسأل باستخفاف فيما إذا كان بالإمكان إشباع الفحولة الحقيقية بالقصص والصور، ويعلن أن المدرسة الجسدية في الفن هي عزاء العاجز.

مع ذلك، هناك مقاطع في مسرحياته تحثّ على أن الحب المُتخيل يلعب دورًا مهمًا في الحياة المتحضرة. حين يقول البطل الوسيم لرجل يشعر بالغيرة منه: «لا تبدد غيرتك عليّ؛ المنافس الخيالي هو الخطير».

وفي الزواج، السيدة التي ترفض الزواج لأنها لا تستطيع تحمل فوضوية الذكورة ورائحة التبغ، تُشير إلى أن خيالها يزودها بسلسلة من المغامرات التي تتسول واقعًا. ويقول شو إن فتوحات دون جوان الألف وثلاثة تتكون من اثنتين أو ثلاث دسائس خبيثة والألف الباقي قصص متخيلة. ويقول إن كل محاولة لإدراك مثل هذهِ القصص ستبوء بالفشل، ويمكن القول إنّ لا أحد سوى الرجل الذي حاول ذلك، قد تمكن من كتابة الفصل الثالث من الإنسان والسوبرمان. وفي الفصل الأخير من هذهِ المسرحية أيضًا، نجد فيه المشهد الذي يتمرد فيه البطل على الزواج ويكافح ضده من دون أي أمل في الهروب منه بكلمات صادقة بشكل مؤثر لا بد أنها جاءت من تجربة شخصية. وفي معالجة شكسبير نفس الموضوع عبر شخصية بينديك[1] ربما كان يسخر من أحدهم، لكن تانر، بكل تطرفه، هو الأول. قد لا ينكر شو ذلك وربما لا يصدقونه إن فعل ذلك.

كانت حملة شو ضد شكسبير في فترة تحريري صحيفة مراجعة السبت غير متوقعة إلى حد كبير، لأنني كنت من المحررين القلائل في لندن الذين كان شكسبير يعني لهم أكثر من مجرد اسم؛ كنتُ مشبعًا بشكسبير. والشيء الوحيد الذي كان عليَّ التصريح به بثقة أنه لم يخطر ببالي مطلقًا أني سأكون محرر الهجمة الشرسة جدًا على شكسبير. وما زاد من صعوبة المغامرة وغرابتها: أولًا، كان شو الذي وجّه الهجمة الشرسة مُشبعًا بشكسبير مثلي تمامًا، وثانيًا، على الرغم من أن كلينا تعرض للفضيحة بسبب تدنيسنا المقدسات، لم يتمكن أي منا من تغيير كلمة في إحدى المقالات، فقد

(1) بينديك Benedick: هو واحد من أكثر الشخصيات الغامضة في مسرحية (جعجعة بدون طحن Much Ado About Nothing).

كانت شائنة، لكن لم يكن هناك ما نتراجع عنه، أو نخففه أو حتى نعدله، من دون إسقاط الصرح النقدي بأكمله.

والتفسير بسيط جدًا، فقد أطلق شو شرارته الأولى على شكسبير عام 1894، وأولى محاولات إبسن وصلت إلى مسرح لندن عام 1889 بموقف ضعيف. وقد كتب شو مقالته عن جوهر الإبسينية في هذه الأثناء، وكان يحكم على كل شيء داخل المسرح وخارجه بالمعيار الذي وضعه ذلك النرويجي الرهيب. وفشل العديد من الرجال الذين كانوا دون هذا المعيار، لكن شكسبير كان الضحية الأكثر وضوحًا. وقال شو «إنه لمن غير المجدي الحديث عن عمق شكسبير الآن؛ إذ لم يبقَ شيء سوى موسيقاه. وحتى تحديد الشخصية الشهير لموليير ـ شكسبير ـ سكوت ـ دوماس ـ بيير ليس سوى خدعة محاكاة. فقد اصطدم شاعرنا في غير حينه، ولم تعد هناك أيّةُ ملامح على وجهه. وما هاملت سوى صورة ضعيفة الشخصية مقارنة ببير جينت، وإيموجين دمية أمام نورة هيلمر، وعُطيل ليس سوى اجتماع أوبرا إيطالية مقارنة بجوليان[1]». وكان هذا صحيحًا تمامًا. ويمكننا رؤية شكسبير يصل إلى العمق الذي يعمل به إبسن في السونيتات فقط.

لم يكن شو مشبعًا بإبسن فحسب، بل بفاغنر وبيتهوفن وغوته ومن باب الفضول بجون بنيان. الطريقة الإنجليزية في أن تكون عظيمًا بالومضات: طريقة شكسبير، وطريقة راسكين، وطريقة تشيسترتون، من دون متابعة

---

(1) بير جينت: الشخصية الرئيسية في مسرحية إبسن بير جينت Peer Gynt، ونورا هيلمر إحدى شخصيات مسرحية إبسن (بيت الدمى The doll house) وإيموجين شخصية شكسبيرية من مسرحية سيمبلين Cymbeline، وجوليان إحدى شخصيات مسرحية إبسن (الإمبراطور والغاليلي Emperor and Galilean).

الإلهام الذي وضع ويليام موريس إصبعه عليه عندما قال إن راسكين يمكن أن يقول أكثر الأشياء روعة وينساها بعد خمس دقائق، لا يمكن أن يخفى عدم اتساقها على رجل أيرلندي.

ويقول: «الأيرلنديون، بكل خصائصهم البغيضة، على أقل تقدير هم بالغون، ويفكرون بشكل منهجي، فهم لا يتوقفون في منتصف لعبة الجولف للاستمتاع بعظمة الفكر كما لو كان غروب الشمس، ثم يعودون إلى لعبتهم على أنها عمل جاد في حياتهم». ويستمر فخره الوطني بكونه أيرلنديًا على الرغم من أن حياته المهنية بأكملها في إنجلترا وتفضيله الأصدقاء الإنجليز والاسكتلنديين.

سيُلاحظ أن البورتريه الذي كتبته عن شو هو أكثر وأقل حميمية من أي بورتريه آخر كتبته. أكثر، لأن شو يخبر العالم أجمع بكل ما يمكن أن يُقال عنه، وأقل، لأني لم أجلس معه في لجنة، وهذهِ الطريقة الوحيدة للتواصل معه؛ لأن شو ليس اجتماعيًا، لا يذهب إلى أي مكان ما لم يكن لديه عمل هناك. ولا يزور أحدًا. شجّعه موريس بارينج في إحدى المرات على الذهاب إلى حفلة توديع العزوبية ذات الطابع البريطاني المعتاد، حيث كان الرجال الكبار يرمون كتل الخبز بعضهم على بعض، ويخبرون قصصًا بذيئة، ويسعون جاهدين إلى التصرف مثل الطلاب الجامعيين الصاخبين. قال شو بازدراء قاتل لجهودهم: «أيها السادة، سنستمتع كثيرًا إذا توقفتم عن محاولة أن تكونوا مرحين». وعندما أصرّوا، غادر المكان وقال إن الرجال يتصرّفون بشكل لائق في حضرة النساء فقط.

بعد تناولنا الغداء في نادي سافيل عند وصوله إلى لندن، قرر أنه لن يكون رجلًا أدبيًا أو رفيقًا لأحدهم. وقال: «ربما لو كنت غبيًا كفاية،

لقضيت حياتي جالسًا أشاهد هؤلاء الزملاء وهم يؤدّون أعمال بعضهم البعض ولا يتعلمون أكثر من نقرة على الآلة الكاتبة». حاولتُ علاجه من هذا بدعوته إلى مأدبة غداء مراجعة السبت في المقهى الملكي، لكن من دون جدوى، فقد جاء لعدة مرات، وكان مهتمًا بحق في المقهى، والنُدل والأسعار والطبخ. باختصار، كانَ مهتمًا باقتصاديات المكان. إلا أنه خلص إلى أني وهارولد فريدريك نتناول كثيرًا من شرائح اللحم، وأنها خسارة كبيرة للمال حين يدفع أسعار المقهى الملكي مقابل طبق المعكرونة الذي يتناوله، في حين يمكنه الحصول عليه في مكان آخر مقابل عشرة بنسات. وحقيقة كوني أنا من يدفع لم تغير شيئًا؛ فقد كان يعترض على تبديد أموالي كما يعترض على ضياع أمواله.

كنت أتمنّى في بعض الأحيان أن يكون الآخرون على نفس القدر من المراعاة لرغبات الآخرين، لكن مراعاة شو ترقى إلى التدخل في الشؤون الخاصة للمرء التي تثير غضبًا كبيرًا لأن نزعتها إلى الخير وفطنتها تجعل الاستياء منها مستحيلًا. وقد باءت كل محاولاتي استدراجه إلى تواصل اجتماعي نزيه بالفشل. ولأرى شو كما يمكنني، بسهولة، رؤية أي مُشتغلٍ بالكتابة في لندن، كان عليَّ أن أنضمَّ إلى إحدى لجانه التي لا تنتهي. كانت علاقاتنا كمساهم في الصحيفة ومحرر غير مجدية لأغراض اجتماعية؛ لم يكن يأتِ إلى المكتب إلا عندما تواجهنا بعض الصعوبات القانونية، ومعظمها لإظهار، بشفافية فائقة، أننا نفتقر إلى حجة نستند إليها. هو متاح للجميع، ولكن النتيجة النهائية هي أن لا أحد يعرفه حقًا.

ثمة ميزة متطورة في شو يخافها الجميع. لديه إلى حد كبير عقل زئبقي يتعرّف إلى المحتوم في الحال ويواجهه ويتكيف معه وفقًا لذلك. ولا يكاد

يوجد أي شيء في العالم لا يطاق مثل الرجل الذي لن يبكي، ولو قليلًا، على اللبن المسكوب، ولا يسمح لنا بلحظات تذمر قليلة قبل أن نعترف بأنه قد انسكب وانتهى الأمر.

وقلة منا تدرك، كم نخفف خسائرنا عن طريق حجبها في جو من التعاطف والندم والتعازي والملاطفات المزعومة التي على الرغم من ذلك تكون حلوة لأنها مجرد تخدير. شو لا يقدم ولا يتقبل مثل هذهِ الأشياء. عندما اشتعلت النيران في الزوجة المفضلة لأمير هندي، أثناء مأدبة معه، حتى أصبحت رمادًا قبل أن تنطفئ، تقبّل الأمير الأمر في الحال وواجهه وقال لخدمه المتباكين: «اكنسوا سيدتكم واجلبوا الدرّاج المشوي». وكان هذا الأمير هو شو بنسخته الشرقية.

ذات مرة في محطة قطار الأنفاق في ويستمنستر بريدج، انزلق شو من أعلى الدرج، ونزل الدرج بأكمله على ظهره، ما أثار قلق المارة. ولكن عندما نهض من دون أدنى مفاجأة ومشى كما لو كانت تلك هي طريقته المعتادة في نزول الدرج، انفجر الجميع ضاحكين. وسواء كان قطارًا فائتًا أو وفاة بين أقرب وأعز ناسه، فإنه يظهر هذه الثقة والسيطرة اللا إنسانية.

لم يتهمه أحد بأنه ابن سيئ، فقد كانت علاقته بوالدته، على ما يبدو، مثالية كأي علاقة من هذا القبيل. ولكن عندما حُرقت جثتها، لم يقل له جرانفيل ـ باركر، وهو الذي اختار أن يرافقه بصفته المعزي الوحيد، شيئًا سوى: «شو: من المؤكد أن روحك مرحة». تخيل شو أن والدته كانت تنظر من فوق كتفه وتشاركهم متعة مشاهدة رجلين يرتديان زي طهاة يلتقطان قصاصات من المعدن من رمادها. إنه مغرم بالقول إن ما يحتاج إليه الثكالى هو القليل من الارتياح الهزلي، وهذا هو السبب في أن الجنازات هزلية جدًا.

من نواحٍ عديدة، نفعت هذه الموهبة الزئبقية تحوّل شو كثيرًا؛ فهو يعرف أبكر وأفضل من معظم الناس متى يكون في خطر ومتى ينسحب، ويكسبه هذا مظهر الشجاعة في حين أنه لم يُخاطر فعليًا. لديه نفس الميزة في إحساسه بقيمة المال، ويعرف متى يستحق الأمر الإنفاق ومتى عليه توفير نقوده، وهنا أيضًا، غالبًا ما يبدو كريمًا عندما يعقد صفقة رابحة جدًا.

وحين نقف مأخوذين بجرأته ودهشته، ثمة شك في مدى قدرته على مواجهة خطر حقيقي أو الإقدام على تضحية حقيقية. هو لا يحسد أحدًا، ولكن كيف له أن يكون حسودًا وهو يُشفِق على كل رجل لم يكن جورج برنارد شو؟ وقد ترك الراحل سيسيل تشيسترتون مدونًا أنه حين كان شابًا ونكرة، التقى بشو الشهير، وأنه استُقبل على أساس المساواة الصبيانية الصريحة. وهذا يظهر أن شو لا يخطئ بحق الرجال والعادات الحميدة. كل ما يمكنك توقعه منه هو الدهشة.

وكذلك، مع كل أخلاقه الجذابة وشغفه الاجتماعي، يبدو شو غالبًا شخصًا لا يبالي بما يقوله أو يشعر به الآخرون، وهذا يفسر قول وايلد «ليس له عدو في العالم. ولا أحد من أصدقائه يحبه». ويفترض قيصره «من لم يأمل أبدًا، لا يصيبه اليأس».

ولكن من يستطيع أن يتأكد من أن إلهامه ليس جهنميًا أكثر من كونه إلهيًا؟ قارنه مع الورع بابتذال «هذهِ هي المتعة الحقيقية في الحياة، أن تُستخدم لغرض تميزه على أنه الأسمى، وأن تُبلى بالكامل قبل أن تُرمى على كومة الخردة، وأن تكون قوة الطبيعة بدل أن تتحول إلى كيان أناني صغير محموم بالأسقام والمظالم يجأر بالشكوى من أن العالم لا يكرس

نفسه لإرضائك». لن تجد فيه ذكرًا للجحيم، لكن اسأل أي شخص من معجبي شو: أي الاقتباسين هو شافياني أكثر.

لن أحاول متابعة كتابتي لبورتريه شو؛ كونه مادة عصية وميؤوسًا منها، لأنّي لن أضيف شيئًا مهمًا عنه لم يذكره شو من قبل عن نفسه. وكل ما تركه لي لأتعامل معه هو ما غفل عنه هو وكُتّاب سيرته الذاتية، ولم يحاول شو أو أيٌّ من كتّاب السيرة هؤلاء تفسير حكمة وايلد الساخرة، إذ إن الناس يبغضونه ويمتعضون منه بشدة وفي نفس الوقت يُعجبون به ويحبّونه. وقد وقّع بينيرو رسالة خاصة معنونة له بـ «مع خالص احترامي ومقتي».

لقد حاولت تصوير شخصية متسقة (وشخصية شو متسقة ميكانيكيًا تقريبًا) يمكن أن تنتج مثل هذه التأثيرات المتناقضة. لم يحاول أحد حتى الآن القيام بذلك، فقد تجاهل المدافعون عنه الكراهية، وأنكر مهاجموه خصاله الحميدة وابتدعوا أخطاء لا وجود لها. ولم أحاول الجلوس كحكم أو لعب دور الصديق الشهم. رسمت الخطوط العريضة للرجل كما تبدو، وعلى الرغم من أن الناتج كان خاليًا من أي عيب أو شائبة، إلا أنه يسبب لنا القشعريرة بالقول «تخيل عالمًا لا يسكنه إلا رجال كلهم برنارد شو!»، وهذهِ مزحة ماكرة؛ لأن أي عالم يقطنه رجال كلهم أي شخص واحد فقط، لا يمكن احتماله. ولكن، هناك شيء ما فيه، وسأتركك تكتشفه بنفسك، لأني لست أفهمه.

24 مايو 1919

مبعوث

يجب أن أختم هذهِ الذكريات والمذكرات وأنتهي منها، كما أن لكل شيء نهاية. لقد حاولت، كما وعدت، ألّا أزعج قرائي بتفاصيل معروفة لي ولتسعة وتسعين بالمئة ونصف من الجنس البشري، لكنني أدرجت مادة، على الرغم من أنها ليست غريبة بالنسبة لي، لكنها ربما تكون مفيدة للمبتدئين في مِهني المختلفة أو للمؤرخين في الفترة التي عشتها.

ولم أذكر شيئًا عن حياتي الزوجية في القرن العشرين؛ لأنها كانت علنية جدًا بحيث يمكن لأي كاتب سيرة التأكد منها أكثر مما أتذكرها بنفسي. وسواء كانت النتيجة قابلة للقراءة أم لا، أشك في ذلك؛ لأنه في عمري (أكثر من تسعين عامًا) لا يمكنني التأكد من أن أقوالي وكتاباتي ليست هراء شيخوخة رجل مهذار وطاعن في السن.

ومع ذلك، ما شجّعني على ترك مذكراتي هذهِ تأخذ فرصتها في النشر هو أن كثيرًا منها قد كُتب منذ سنوات. وفي النهاية، لن أترككم مودّعًا؛ لأني أظن أني ما زلت أملك من القوة ما يكفي لأقدم المزيد.

ملحق الصور

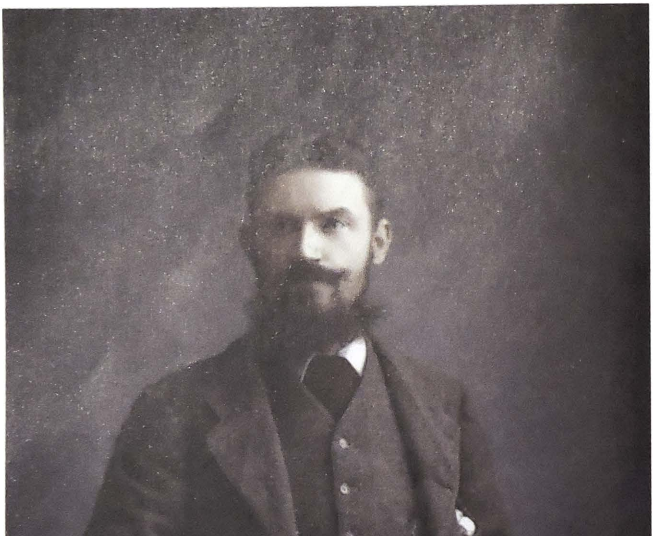

جورج برنارد شو في شبابه عام 1893.

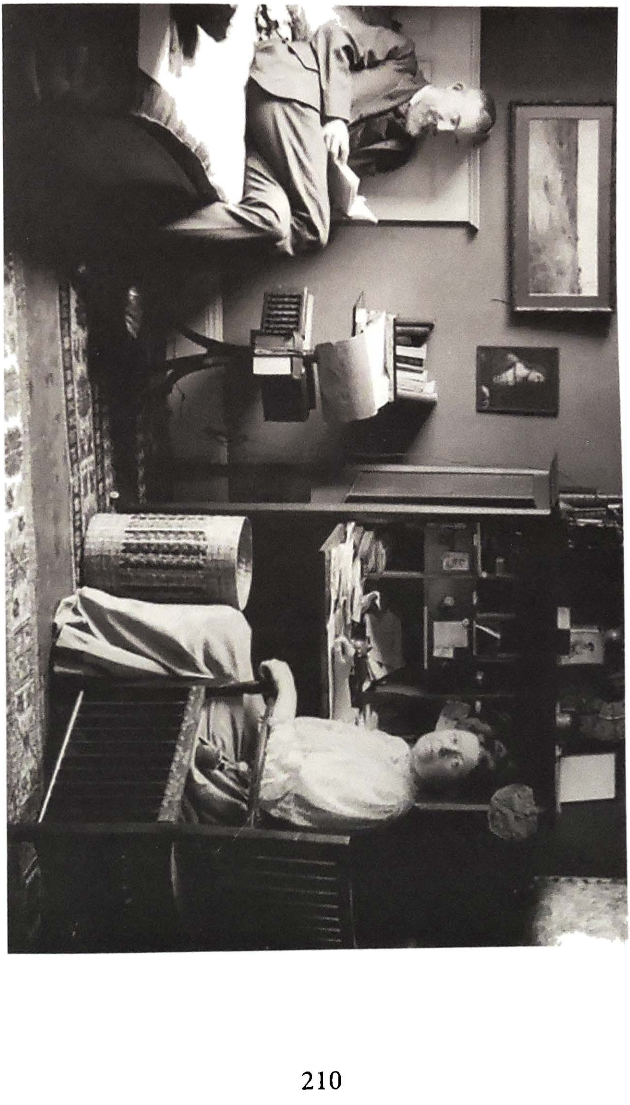

برنارد شو في المنزل مع زوجته في لندن.

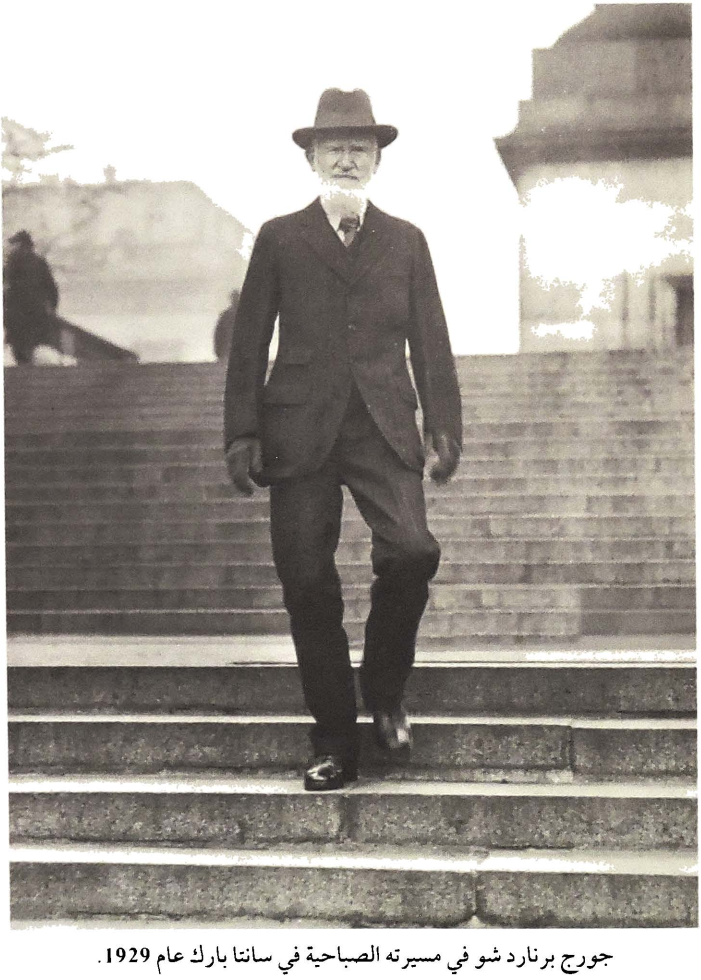

جورج برنارد شو في مسيرته الصباحية في سانتا بارك عام 1929.

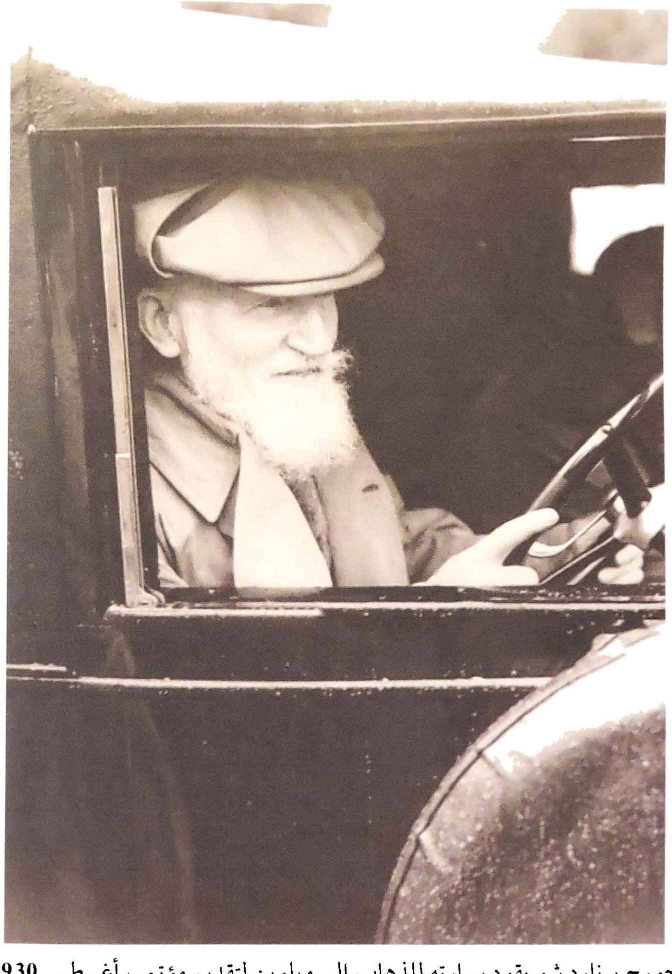

جورج برنارد شو يقود سيارته للذهاب إلى ويلوين لتقديم مؤتمر، أغسطس **1930** في المملكة المتحدة.

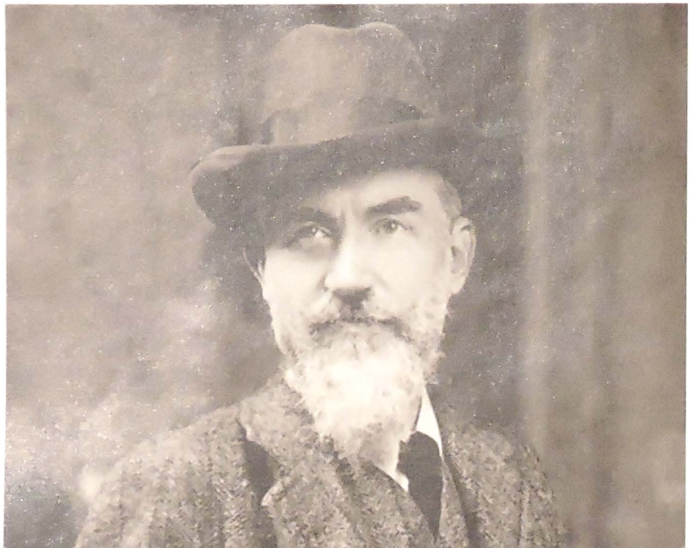

جورج برنارد شو اثناء زيارته لبنان، بعلبك عام 1931.

جورج برنارد شو مع عامل في محطة ليفربول ستريت، لندن عند مغادرته إلى نيوزيلندا
8 فبراير 1934.

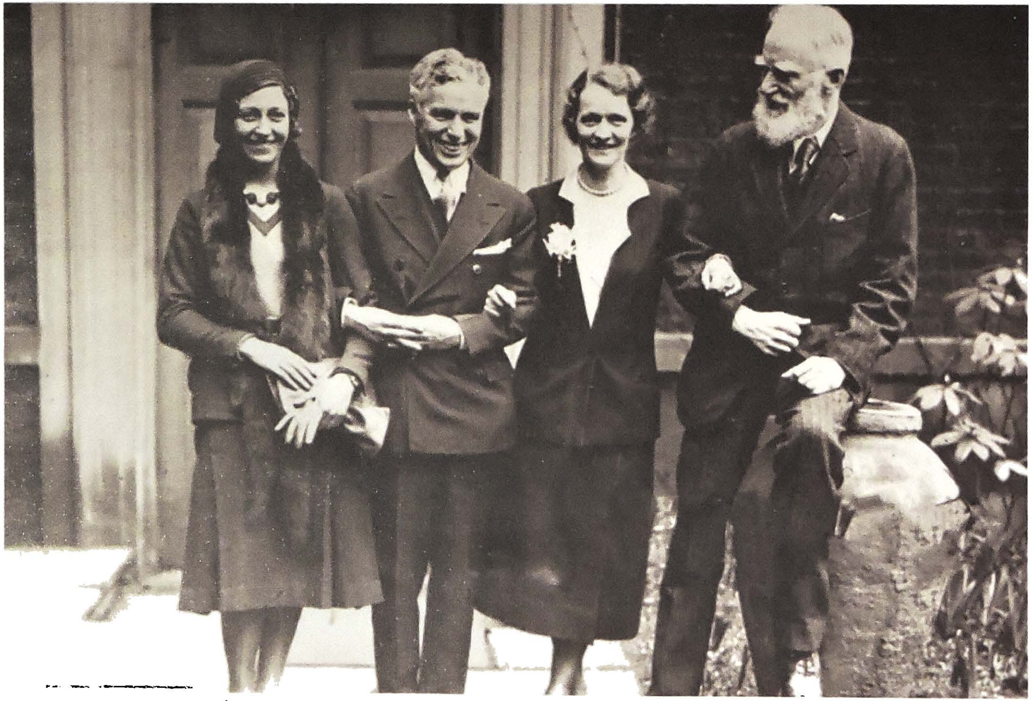

الطيارة البريطانية إيمي جونسون، والممثل تشارلي شابلن، والليدي نانسي أستور، وجورج برنارد شو.

المؤرخ البريطاني هيلير بيلوك (في الوسط) مع جورج برنارد شو (على اليسار)
وجي كي تشيسترتون (على اليمين).

جورج برنارد شو في ملابس سائق السيارة عند مغادرته مدرسة (I.L.P) الصيفية في ويلوين عام 1935.

جورج برنارد شو وزوجته شارلوت باين تاونسند عام 1936.

جورج برنارد شو يأخذ دروس العزف على البيانو مع صديقه القديم والتر روميل في باريس.

برنارد شو مع المخرج أنتوني أسكويث خلال مأدبة غداء في استوديوهات باينوود، المملكة المتحدة عام 1938.

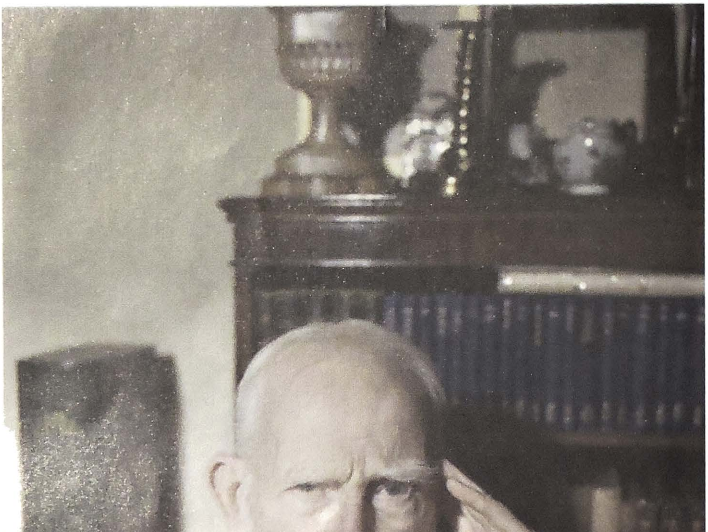

جورج برنارد شو في منزله عشية عيد ميلاده التسعين 25 يوليو 1946.

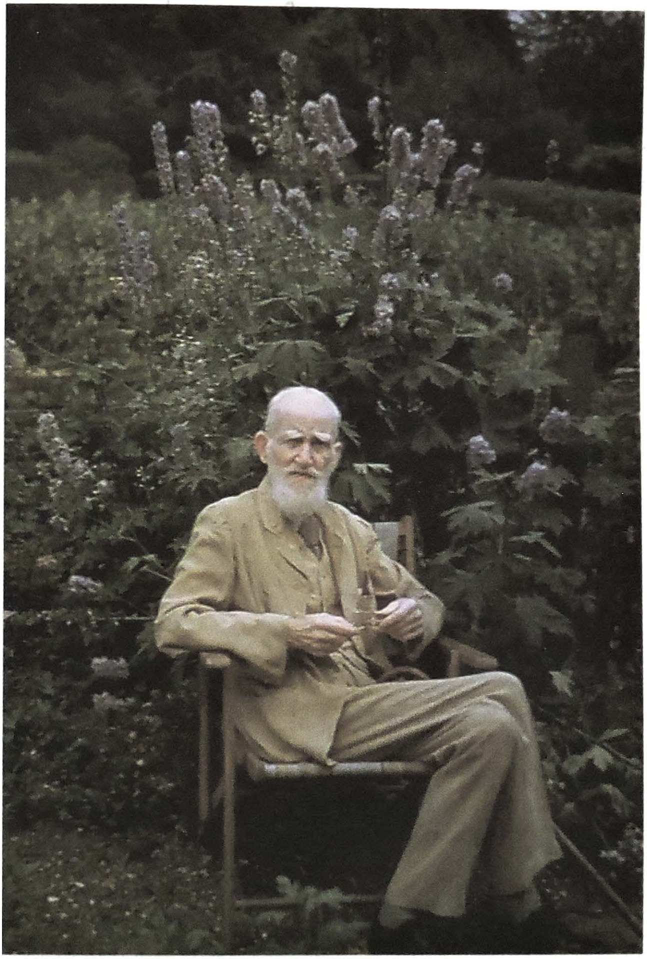

جورج برنارد شو في حديقة منزله عام 1949.

برنارد شو يتحدث مع كاتب سيرته الذاتية الدكتور إف إي لوينشتاين خارج كوخه في حديقة منزله في شو كورنر عام 1950.

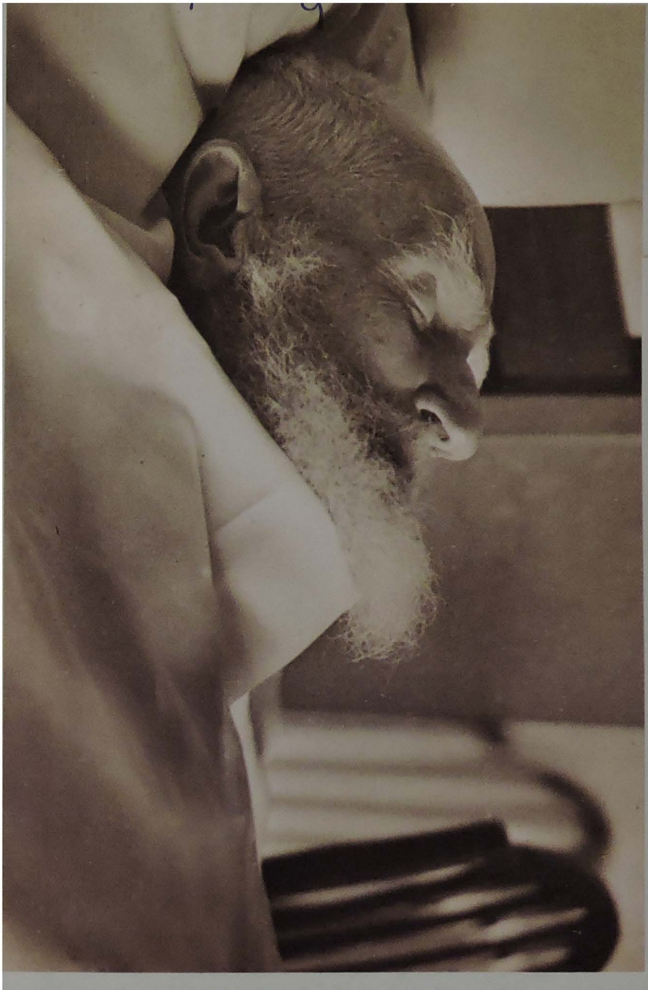

وفاة جورج برنارد شو عام 1950.